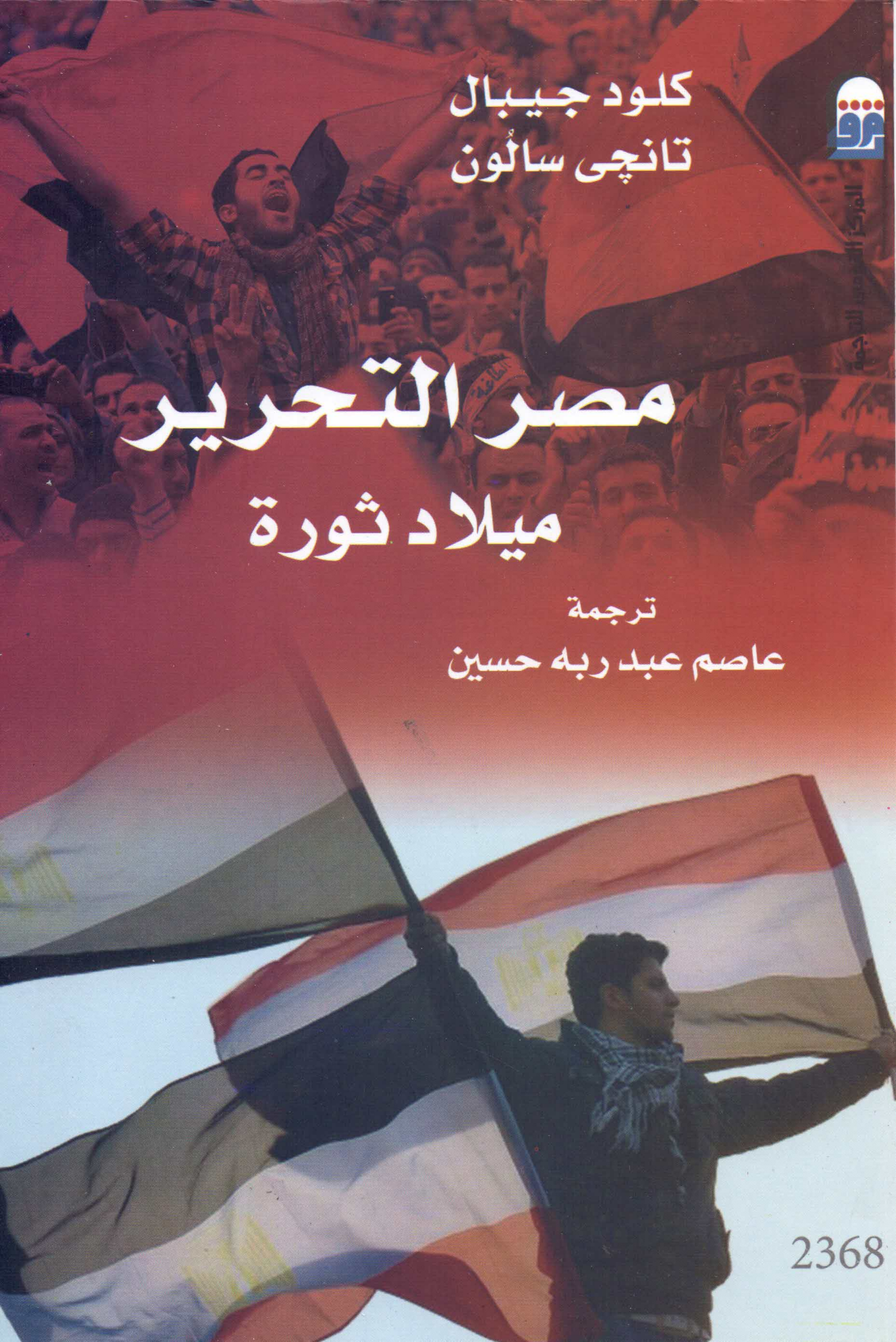

كلود جيبال
تانچى سالُون
مصر التحرير
ميلاد ثورة
ترجمة
عاصم عبد ربه حسين
2368

هذا الكتاب من تأليف صحفيين فرنسيين هما :
كلود جيبال و تانجي سالُون، عرفت المؤلفين شخصياً وأعجبني فيهما اهتمامهما البالغ بمعرفة مايحدث في مصر وميلهما إلى اكتشاف الحقيقة بدون الخضوع لأية أفكار مسبقة.

اذكر لهما بامتنان حماسهما للثورة و تعريض حياتهما للخطر من أجل أن ينقلا إلى العالم الجرائم التي ارتكبها نظام مبارك في حق الثوار. كما أشكرهما على تأليف هذا الكتاب الذي قدم للقارئ الفرنسي صورة صادقة عن الثورة المصرية. الآن تصدر الترجمة العربية للكتاب بجهد مشكور من المترجم الأستاذ عاصم عبدربه، أعتقد أن الكتاب سيكون ممتعا للقارئ المصري لأنه سينقل له الأحداث التي عاشها في مصر من وجهة نظر صحفيين فرنسيين محبين لمصر وللثورة........

علاء الأسوانى

تصميم الغلاف: نسرين كشك

مصر التحرير

ميلاد ثورة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2368
- مصر التحرير
- كلود جيبال، وتانچى سالؤن
- عاصم عبد ربه حسين
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:
L'Égypte de Tahrir: Anatomie d'une révolution
Par: Claude Guibal et Tangi Salaün

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مصر التحرير

ميلاد ثورة

تأليف: كلود جيبال

تانچى سالوَن

ترجمة: عاصم عبد ربه حسين



2014

جيبال، كلود.
مصر التحرير/ تأليف: كلود جيبال، تانجى
سالُون؛ ترجمة: عاصم عبد ربه حسنين. ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.
٢٥٦ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٦ ٧٧٣ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ مصر ـ الأحوال السياسية.
أ ـ سالُون، تانجى (مؤلف مشارك)
ب ـ حسين، عاصم عبد ربه (مترجم)
ج ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٧٣/ ٢٠١٤
I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 773 - 6
ديوى ٣٢٠,٩٦٢

المحتويات

إهداء

إلى روح الشهيد المجهول ذى الابتسامة الغامضة.

إلى أرواح الشهداء فى عليائها.

إلى أحمد حرارة وكل من قدم نور عينيه ليزيح شيئا من الظلام وإلى كل مصابى الثورة.

إلى أطباء المستشفيات الميدانية الأبطال رجالا ونساءً.

إلى كل من شارك فى كسر طوق الذل.

إلى كل من نادى .. عيش.. حرية .. عدالة اجتماعية.

إلى كاتبى هذا العمل.

إلى بناتى وزوجتى.

أهدى هذا الجهد

المترجم

كلمة المترجم

بين أيدينا ترجمة واحد من أوائل الأعمال التى صدرت حول ثورة يناير فى لغات أجنبية، ولعله الأول فى لغة موليير . الكتاب من تأليف كل من «كلود جيبال» و « تانچى سالون» وهما صحفيان فرنسيان يقيمان فى القاهرة.

إذا كانت مقدمة هذا الكتاب قد عرّت الصدر من مصر كاشفة عن جراحها، فإنه فى النهاية يترك الأبواب مشرعة أمام كل الاحتمالات، وإن كانت أمنيته التى لم يفصح عنها (الكتاب) هى أن يؤتى هذا الإنجاز المذهل ثماره المرجوة.

يرصد الكتاب بإيجاز أحداث الثورة يوما بيوم، ثم يتناول بتفصيل أكثر أهم المقدمات التى أدت إلى هذه النتيجة، ولا يتعرض لمستقبلها الذى لا يمكن التنبؤ به الآن.

منذ السطر الأول يتبدى إيمان كاتبيه الفرنسيين بالثورة والثوار، وإن لم يدفعهما هذا النزوع إلى التخلى مطلقاً عن الموضوعية والحياد. ولأنهما يعيشان فى مصر منذ قرابة عقد ونصف، فقد توافرت لهما الفرصة كاملة لقراءة المشهد المصرى فى تأنٍ، ورصد الأحداث التى مهدت وصاحبت الإرهاصات الأولى لحركة الغضب الشعبى، الذى تحول فى يوم الثلاثاء ٢٥ يناير إلى انتفاضة ساندها أهل مصر ثم جيشها، لتتحول إلى ثورة أطاحت بالديكتاتور الذى يجثم على صدورنا منذ ثلاثين عاما.

دونما إسهاب، يتناول الكتاب الظروف التى حفزت هذه الحركة، منذ بداية مشروع التوريث، الذى يراه الجميع أول مسمار فى نعش هذا النظام، الذى تمثل فى الدفع بمبارك الابن إلى صدارة المشهد السياسى المصرى وتمهيد الطريق أمامه داخليا وخارجيا كما يعلم الكافة. ويشير الكتاب إلى الموقف الأمريكى وموقف الاتحاد الأوربى دون أن يوضح أسباب انحيازهما المتأخر إلى جانب الثورة.

بعد أن تحدث الكتاب عن جيل الشباب الذى قام بالثورة، والذى أفرد له حوالى عشرين صفحة، نقل فيها صوراً من لحم ودم لبعض شخوصه؛ انتقل الكتاب بعدها ليسرد قصة قيام آل مبارك وسقوطهم (التعبير من نحت أستاذنا محمد مستجاب رحمه الله وكان عنونا لرائعته «قيام وانهيار آل مستجاب») بعدها يكون للجيش المصرى نصيبه بين ضفتى هذا العمل وكيف كان شبه مرادف للدولة فى ضمير المصريين الجمعى، وكيف تبنى موقف الثوار بعكس الشرطة التى كانت تمثل وجه النظام البغيض وذراعه الغشوم، غير أنه لم يغفل وضع الكثير من علامات الاستفهام حول مواقفه التى لا تخلو من غموض وكيف انزلق إلى تصرفات تجرح فكرة انحيازه إلى الثورة وتهدمها من أساسها. ولقد أثبتت الأحداث بعدها أن يديه قد تلوثتا بدم الثوار، وأنه لم يفرق فى تنكيله بهم بين رجل وامرأة ، شيخ وصبى، مسلم ومسيحى.

بعدها يتعرض الكتاب لحركة الإخوان المسلمين حتى إنه أسماهم، فى إلماح ذكى ومتنبئ: « جيش الظل » ، وقد قاده هذا المنحى إلى استعراض الجماعات الإسلامية السلفية والجهادية والصوفية.

يحسب لهذا الكتاب أيضا عدم تردده أمام « المسألة القبطية» إن جاز لنا استخدام هذا التعبير الذى كان شائعًا فى ظروف شبه مماثلة؛ ونقصد بها أجواء ثورة ١٩١٩.

إن كان الهدف الأول لأية تجربة ثورية هو بناء نظام سياسى مغاير لما هو قائم، نتمنى أن يعبر عن الديمقراطية، فإن كتابنا يقول إن هذه الثورة كانت خطوة عملاقة فى تاريخ التحول الديمقراطى فى مصر، ثم يختتم بما أسماه « صحوة المصريين» وما اقترحنا هى «نوبة صحيان» والذى يحدثنا من خلاله عن روح الإخاء التى أسقطت الحواجز بين المصريين مسلمين ومسيحيين، رجالا ونساء، فقراء وأغنياء، متدينين وعلمانيين.

خاتمة

مستعينا بنماذج حية من المصريين من كل الأعمار، والطبقات الاجتماعية والأطياف السياسية، يرسم الكتاب صورة شديدة الواقعية لأحوال الناس: آرائهم، آمالهم، مآسيهم.

يسترعى انتباهنا أن روح الثورة قد تلبست أسلوب الكتاب وحتى طريقة إخراجه. فلم يلجأ الكاتبان إلى المعهود فى إخراج الكتب من حيث التبويب وخلافه، فخرج فى تسعة موضوعات يمتد بينها خط الأحداث بحيث لا تنفصل عن بعضها. وكذلك جاء الأسلوب الصحفى فى الكتابة ثوريا: عبارات قصيرة، سريعة، ملتهبة، كأنها شعارات ثورية. يحمل الكثير من علامات الاستفهام والتعجب تاركا للقارئ أن يبدى رأيه فيما يقرأ.

من المبكر جدا، بكل تأكيد، التنبؤ بما سوف تصير إليه ثورة ٢٥ يناير، غير أن ذلك لم يكن القصد من وراء هذا الكتاب، فالكتاب ـ كما يصفه عنوانه الفرنسى «نظرة تشريحية للثورة » ، «و كما أسميناه «ميلاد ثورة» ـ قراءة فى مقدماتها ورصد لأحداثها.

عاصم عبد ربه

إلى شاهيناز..

إلى معاذ..

رواد جيل الشباب الواعى

إلى لوسيل، بنت الثورة

المؤلفان

لا يمكن أن تقوم الثورة
إلا حيث يوجد الوعى

جان جاوريس

ثمانية عشر يوماً من ربيع جاء فى الشتاء
الثلاثاء ٢٥ يناير يوم الغضب

كان فجرا كسولا، صباحًا يحمل سمات وداعة زائفة، تغفو فيه مصر، مثقلة بعناء حياة هامدة وكابية، قوامها الحرمان والعجز والضجر. فى يوم العطلة هذا، تحتفل الدولة بالشرطة، التى أقيم عيدها القومى منذ ثلاث سنوات مضت، المصريون هم ملوك النكتة، هذه المزحة الغارقة فى الأسى والحدة، الساخرة، اللاذعة، على غرار حسهم الفكاهى الذى يزيده اليأس حدة. وفى دخان الكثيف لغلايينهم المائية التقليدية ـ الشيش ـ، كانت النكتة السائدة وقتها، تثير فى كل مقاهى القاهرة ضحكا أصفر متكلفا.

- وانت هاتعمل إيه بكرة عشان عيد الشرطة ؟!
- أنا؟ بسيطة: هاقوم من الفجر، أقلب الشقة كلها، أبهدلها، واضرب نفسى قلمين وبعدين أرجع انام.

منذ عدة شهور، وفى مدينة الإسكندرية، مات أحد الشبان، صرعه فى مدخل إحدى البنايات، شرطيان فى ثياب مدنية (سريان)، هشما رأسه ثم تركاه ليموت فوق بلاطات الأسمنت، كان اسمه خالد سعيد، بعد عدة أيام من هذه الواقعة، كانت صور وجهه المعذب يجرى تداولها عبر الانترنت، أثارت هذه الصور، التى نشرتها الصحافة المصرية، موجة من النفور، وحالة سخط اتسعت رقعته متجاوزة دوائر المعارضة التقليدية، لذا كان الاحتفال بالشرطة أمراً غير لائق، كما يعتقد الكثيرون، بل كان غير محتمل بالنسبة إلى قطاع متنامٍ من الرأى العام

المصرى، وهؤلاء المعارضين، أعضاء منظمات المجتمع المدنى، هذا الشباب الواعى، نشطاء توجيه الرأى العام، الذين أرادوا فى هذا اليوم إعلان رفضهم للنظام الأمنى القائم فى مصر والتعبير عن سخطهم من بلد يحكمه الرجل نفسه منذ قرابة الثلاثين عامًا ـ حسنى مبارك ـ الذى بلغ الثانية والثمانين.

كانوا قد دعوا إلى التظاهر، فى الخامس والعشرين من يناير هذا، يوم الغضب، وبالفعل كانت انتفاضة واسعة تتصاعد على مدى عدة أيام. منذ السابع عشر من ديسمبر الماضى، بالتحديد فى ذلك اليوم، وفى ضاحية سيدى بوزيد فى تونس، انتحر محمد بوعزيزى، بائع الفاكهة والخضراوات المتجول، فى ذات الصباح، صودرت بضاعة بوعزيزى، بسبب عدم صلاحية رخصته، أهانته شرطية تابعة للمجلس البلدى، كانت قد أوقفته وأوسعته ضربا بحسب رواية الشهود بعد ذلك بساعة، وأمام إحدى البنايات الحكومية، أشعل بوعزيزى النار فى جسده.

وكان هذا القربان المتوهج بالنار هو ما سجل بداية ثورة الياسمين، وأدى إلى سقوط زين العابدين بن على، القائم على رأس النظام الحاكم فى تونس منذ ثلاثة وعشرين عامًا.

فى مصر، يتطلع الناس فى ذهول، افتتان وحسد إلى هذا المد الثورى الهائج الذى يحمل رائحة الحرية، تصاعد الغضب. وحين فر الرئيس التونسى إلى السعودية، فى منتصف يناير، كانت العدوى تجتاح أرض النيل، رجل واحد، ثم اثنان، فأربعة رجال قدموا أرواحهم فداءً، على طريقة بو عزيزى، تصرفات يائسة أدانتها عظات الأئمة فى المساجد فى خطب الجمعة، بناءً على إيعاز من السلطات المصرية، مجموعة من الشباب، حركة ٦ أبريل، تطلق نداء على فيسبوك، داعية الناس إلى التظاهر. وإلى جوارهم، معارضة كاملة متباينة المشارب، غير صريحة أو غير شرعية: من حركة كفاية الرافضة (هذا يكفى!)، أول من طالب برحيل مبارك فى عام ٢٠٠٤ إلى شباب الجماعة المحظورة نظريا التى يغض الطرف عنها فى الواقع، الإخوان المسلمون.

٢٥ يناير، منتصف النهار، أمام جامعة القاهرة، كان رجال أمن الدولة ، جهاز الشرطة المكلف بالاستخبارات الداخلية، يطوفون بالمكان فى ثيابهم المدنية، يستجوبون الصحفيين الأجانب، متسببين، بمجرد تواجدهم، فى ابتعاد كل المارة. « لماذا أنتم هنا الآن؟ كما ترون بأنفسكم، ليس ثمة ما يجرى» هناك شىء من التوتر يسرى فى أصواتهم: كيف علمتم بالأمر؟ استعلمتم عن طريق النت أليس كذلك؟ سأل أحدهم فى فرنسية راقية، أما زميله فكان يتحدث الإنجليزية فى طلاقة وامتياز ، ثم نسمعهم يردون بأنفسهم، بأن شيئا لا يخفى عليهم باعتبار أنهم ينتمون إلى جهاز أمن الدولة العتيد. ضحكات هازئة تنم عن انزعاج، خشخشة أجهزة التوكى - ووكى، يجثم على المكان جو ثقيل وتخيم النذر.

بعد نصف ساعة، شارع رمسيس، وسط المدينة، على ناصية الشارع، بالقرب من نقابة الصحفيين، ومكتب النائب العام بالقاهرة، تنتشر أيضا مجموعة صغيرة، على الرصيف، يقف رجل متوقد العينين، منطبق الفكين فى حزم، يخرج الرجل من سترته لافتة مطوية إلى اثنين: «مبارك .. ارحل»!

حول هذا الرجل، بدا الحشد فى التجمع. نفس الشىء فى مدينة السويس، على ضفاف القناة، على الحدود مع آسيا، فى الإسكندرية على أبواب المتوسط. فى أسوان، المدخل إلى إفريقيا، فى أسيوط، فى قلب الصعيد، مصر الوسطى، فى ميدان التحرير، صميم قلب القاهرة وبسرعة جدا، كانوا آلافا، من خمسة عشر إلى عشرين ألفا، تحاصرهم نطاقات عديدة من شرطة مكافحة الشغب. أمام مبنى الجامعة العربية الأبيض، تندفع شاحنة مدرعة، وقد تعلق بحاجزها الخلفى جماعة من المتظاهرين فى محاولة لإيقافها «مبارك ، السعودية ليست بعيدة»!

يعلو هتاف الناس فى إلماح إلى زين العابدين بن على الهارب إلى جدة. بالنسبة إلى العشرين مليونا من السكان الذين يقطنون فى العاصمة المصرية، يمكن أن يبدو هذا التجمع هزيلا، إلا أنه كان استثنائيا، أكثر التجمعات التى عرفتها القاهرة أهمية، منذ عام ٢٠٠٣، والمظاهرات المناهضة للحرب فى

العراق. الحشد متباين، أساتذة جامعة، طلاب، ربات بيوت، إسلاميون طوال اللحى، إننا خريجون، وعاطلون، نحن شباب وبلا مستقبل. لا حرية سياسية، لا حرية اقتصادية. ماذا نفعل إذا ؟ هل نشعل النار فى أنفسنا؟ «يختلج صوت شاب فى دخان الغازات الخانقة. مدافع المياه تطلق خراطيمها، قنابل مسيلة للدموع، جماهير تلوح بقبضاتها. مشاهد نادرا ما ترى مثلها فى مصر، حيث أهمد، قانون الطوارئ السارى منذ أكثر من ثلاثين عاما، رغبات وأشواق شعب يروعه القمع. آلاف من رجال الشرطة يحاولون سد المنافذ إلى الشوارع الكبيرة فى وسط المدينة.

ليلة الأمس، بدا حبيب العادلى، وزير الداخلية الرهيب متوعدا. كل عمل مناف للقانون أو يتسم بالعنف سيتم ردعه بمنتهى الصرامة. ثم يواصل موقعاً كلماته، إن منظمى حركات الرفض هذه « مغيبون» ميدان التحرير، شابة صغيرة، تضرب الأرض بقدمها فى نفاد صبر وقد حملت هاتفها فى يدها، الشبكات الرئيسية للهواتف المحمولة مقطوعة، لمنع المتظاهرين من التواصل والاستعلام عن حجم المظاهرات ومدى اتساع رقعتها، عن طريق تويتر أو فيسبوك، وسيلتا الحشد والاستعلام اللتان صارتا أساسيتين بالنسبة إلى النشطاء المصريين. « الدولة خائفة» الفتاة متأكدة من ذلك. وراحت تعدد إجراءات التهدئة التى أعلنت عنها الحكومة خلال الأسبوع المنصرم: خفض أسعار السلع الضرورية، خلق فرص عمل للشباب الخريجين، منح علاوات للموظفين. البعض يهتف صارخا: «مبارك ، بن على قد رحل والدور عليك غدا !» سيول من الغازات المسيلة للدموع تنهمر على رؤوس المتظاهرين، فى السويس لقى ثلاثة من المتظاهرين مصرعهم قتلا، المدينة الساحلية تضطرم، مشاهد من حرب عصابات مدنية.

فى أنحاء مصر، أسفر اليوم عن أربعة من القتلى على الأقل وعدة مئات من الجرحى.

الأربعاء ٢٦ يناير

فى مكتبه بالقاهرة، كان هشام قاسم الصحفى مستغرقا فى التفكير، أدهشته مظاهرة الأمس ومدى اتساعها، ترى هل كانت رياح تونس قد بدأت فى الهبوب على القاهرة؟ «إن مصر ليست تونس، لا على المستوى الجغرافى ولا السكانى ولا السياسى» يقول هذا المناضل الدائم لمنظمات المجتمع المدنى. المستوى التعليمى أدنى، الوعى السياسى أقل نضجًا. لقد أرسى قانون الطوارئ فى الشعب حالةً من الخضوع.

الحكومة، عن نفسها، بدت واضحة: إنها لن تتساهل «بعد الآن عن أى عمل من أعمال الاستفزاز والتحريض، تجمع معارض، مسيرة، أو مظاهرة» عبثا تقول.

سماء القاهرة رمادية، بيضاء تقريباً. تتخللها سحابة من الدخان الأسود الكثيف: أمام نقابة الصحفيين، يشعل المتظاهرون النار فى إطارات السيارات. قوات النظام تتشدد اليوم فى لهجتها. مئات من المتظاهرين، يجوبون الأرصفة، معربين عن غضبهم، ينتمى الكثير منهم إلى الطبقة المتوسطة، فى الغالب من الخريجين، أحيانا بلا عمل، أو مثقفون، قليل ممن ينتمون إلى الأوساط الأقل حظا، ليس هناك سياسيون. ليلة البارحة، ألقى وزير الداخلية بمسئولية التجاوزات التى وقعت على الإخوان المسلمين، لكن الإخوان فى القاهرة، كانوا غائبين عن المشهد بشكل يدعو للاستغراب. فى ميدان التحرير، كانت شرطة مكافحة الشغب تنتشر بشكل واسع، يسيطر شرطيون فى ملابس مدنية على مداخل المترو، يعترضون سبيل المارة الذين يسيرون فى جماعات. البلطجية، رجال النظام المأجورون، مخربو المظاهرات، كانوا يتجمعون فى الجوار، ممكن تمييزهم، معروفون من ملابسهم وعصيهم.

على بعد نحو مئة كيلو متر إلى الشرق من القاهرة، كانت السويس تبكى قتلاها، فى غضب. وقعت صدامات عنيفة عقب جنازات المتظاهرين الذين لقوا حتفهم ليلة الأمس على يد رجال الشرطة. الصحفيون الذين يحاولون الدخول

إلى المدينة، يتم منعهم، مصر ينفد صبرها وتضرب رجلها الأرض فى غضب، بحلول المساء توقف تويتر.

الخميس: ٢٧ يناير

الوقت؛ منتصف النهار. الحدث: الاحتفال برحيل حسنى مبارك، وصلت الرسالة عن طريق الفيسبوك، كان الآلاف قد صوتوا معلنين عن حضورهم، وعلى الرغم من أنها كانت محجوبة نظريا، ويتعذر الوصول إليها منذ يومين تقريباً، فإن شبكات التواصل الاجتماعى قد استمرت فى أداء مهامها بمساعدة المواقع العاكسة ومعابر الانترنت، على الشبكة العنكبوتية دارت لعبة قط وفأر هائلة مع السلطات.

فى أحد مقاهى حى المهندسين الفخمة، كان فؤاد يضحك من أعماقه، ويضع مع صديقه عمرو، ٢١ سنة، بعض التدابير من أجل إحباط خطط الشرطة. إنه متأكد من أنها ستبذل أقصى ما فى وسعها لتمنع مظاهرة الغد. هل تعطل تويتر؟ رسائل بلاك بيرى ما زالت تمر، كانا غائصين فى أعماق أريكة مقهى Star bucks يسترجع الشابان فى انبهار وبأعين مشدوهة وقائع مظاهرة يوم الثلاثاء، أولى المظاهرات فى حياتهما، مثلما يروى الناس حكايات الحرب، وعندما يأتى ذكر المناوشات مع الشرطة، قنابل الدخان والغازات المسيلة للدموع، كان فؤاد و عمرو يشتعلان حماسا. ثلاثون عاما من مبارك، كفانا هذا، لقد مل الجميع هؤلاء الذين يمكثون فى بيوتهم يمثلون جزءا من المشكلة. لأن النظام يظن أننا غير موجودين، إلا أننا فى حقيقة الأمر كثر. عمرو يدرك أنه واحد من المحظوظين، فلديه وظيفة، يملك النقود، يمتلك سيارة. إلا أننى لا أعيش فى هذا العالم بمفردى، الناس من حولى لا يتمكنون من الحصول على حقوقهم، إننى لم أختر مبارك، لم يختره أحد فى الواقع، لقد كان معينا . عمرو لم يبلغ الثلاثين من عمره، مثله مثل ثلثى الشعب المصرى، ولم يعرف فى حياته رئيسا آخر غير حسنى مبارك، وعلى جهاز البلاك بيرى، المزروع فى كفه، كان الرجل ينقر فى سرعة مدهشة، ما يتوقعه بالنسبة إلى الغد.

الجمعة ٢٨ يناير موقعة ذات الجسور

ميدان الجيزة، ظهيرة يوم الجمعة، منذ عدة دقائق ارتفع هدير فى سماء القاهرة. كان المؤذنون، بالآلاف، يدعون المؤمنين إلى الصلاة. فى الميدان، كان رجال الأمن المركزى ينتشرون بأعداد كبيرة، يعتمرون خوذاتهم، ويمسكون بالدروع فى أيديهم. محاطا بنطاق من الحراس الشخصيين المرتجلين، يشقون له طريقا حتى مدخل مسجد مجمع الاستقامة، يتقدم رجل يضع نظارة سوداء الإطار، جامد الملامح، عابسا، تمتد إليه الميكروفونات غير أن محمد البرادعى لا ينطق بكلمة. كان المدير السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية، والحائز على جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٥، قد عاد ليلة الأمس إلى الوطن، لكن ذلك الحشد الصغير من المناضلين المؤيدين الذين كانوا قد انتظروه منذ عام مضى، لدى عودته إثر انتهاء مدة عمله بالوكالة، كانوا قد بدءوا فى الشعور بالسأم من الغيابات الطويلة لمن تعتبره الصحافة الدولية فرس الرهان فى السياسة المصرية. منذ نهاية الصباح، يشعر الجميع بأن هذا النهار سيكون حاسماً.

الإنترنت معطل، الرسائل النصية القصيرة، لم تعد تنتقل هى الأخرى، فجأة، انقطعت شبكات الهواتف المحمولة، انقضت الصلاة.

انهمر مطر من قنابل الغاز المسيل للدموع على رؤوس بضع المئات من المتظاهرين الذين كانوا يسدون مفارق الطرق حينها.

مدافع المياه تدخل الخدمة. يندفع الناس من كل الشوارع المتاخمة، نسوة عجائز، مراهقون، يلتحمون بالمتظاهرين. وفى الوقت نفسه، تشتعل بقية أحياء المدينة، بقية القطر كله. فى الإسكندرية، السويس، أسوان، المنصورة، تم ردع التجمعات المناهضة لمبارك بمنتهى القسوة والعنف من قبل قوات الشرطة. من السماء، ترى العاصمة المصرية وقد غابت خلف سحابة بيضاء شاسعة من الغازات الخانقة. فى الجيزة، انقطعت خطوط الهواتف الأرضية، هنا، ما زال الجميع غير مدركين، أن مصر بكاملها قد أخذت فى الانفجار، ترجها هزة

مزلزلة، ما زالت غير قادرة على تصور عواقبها إلى الآن، فوق جسور القاهرة، بالقرب من ميدان التحرير، الذى يسعى المتظاهرون إلى الوصول إليه. تقطع الشرطة الطريق، فى البدء، الرصاصات المطاطية، ثم طلقات الخرطوش ثم تأتى الطلقات الحية. فوق كوبرى ٦ أكتوبر، يسقط فؤاد وقد ملأت طلقات الخرطوش ساقه بالثقوب.

عشرات الآلاف من المصريين يوجدون فى الشوارع، إلا أن غالبية الثمانين مليونا من المصريين كانوا يختفون فى بيوتهم.

قبيل المغرب، بينما يمر شريط إخبارى على شاشات التليفزيون الوطنى، منبها عن خطاب مهم لحسنى مبارك، ومعلنا عن فرض حظر التجول من الساعة السادسة مساءً إلى السابعة صباحا، فى كثير من البيوت المصرية، أخذت خطوط التليفونات الأرضية فى الدق، على الطرف الآخر من الخط، كانت نفس الأصوات المرتجفة، نفس الكلمات: الدبابات نزلت إلى الشوارع. الجيش، هذه المؤسسة المبجلة والمرهوبة فى آن واحد، قد بدأ التدخل. تتقدم العربات المدرعة، تتخذ مواقعها، غير أنها لا تتدخل. فى نفس الوقت كانت الشرطة تتبخر. على كورنيش النيل، يظهر دخان أسود، وفجأة تحمر فى سماء بلا نجوم ألسنة اللهب: المقر العام للحزب الوطنى الديمقراطى التابع لحسنى مبارك يحترق. فى الشوارع يزداد العنف ويتسع مداه. البلد تهدر، مصر ترتج غضبا.

منتصف الليل، بعد ست ساعات من الانتظار، يظهر حسنى مبارك على شاشة التليفزيون، للمرة الأولى منذ بداية الانتفاضة، شاحب الوجه، منفصلا تماما عن الواقع، يتحدث الرئيس إلى شعبه، ويعلن استقالة الحكومة. فى واشنطن، يرفع باراك أوباما سماعة التليفون ويتصل بمبارك، ناصحا إياه بتنفيذ وعوده بشأن الديمقراطية، وبشأن الإصلاحات الاقتصادية والسياسية. فى الخارج تعيش القاهرة ساعات من النار، كما لم تعرفها منذ حريق المدينة إبان المناوشات الغاضبة (١٩٥٢) يجرى الحديث عن عشرات من القتلى، وربما أكثر.

السبت ٢٩ يناير

فى شارع قصر العينى، ذلك الطريق الواسع المفضى إلى ميدان التحرير، حل صمت ثقيل محل الضجة المعهودة. سيارات متفحمة تغرق فى مياه سوداء لزجة وكثيفة، يخرج القاهريون وقد خدر أعصابهم عنف ليلة البارحة، عند مدخل ميدان التحرير، تسد الطريق دبابة كتب على جانبها، الذى له لون الرمل، فى عجلة « مبارك ، اخرج من هنا «ارحل. ! فى التحرير، ميدان وسط القاهرة، عقدة المرور الجهنمية، حيث تتزاحم فى العادة عشرات الآلاف من السيارات، تتوافد الجماهير. كان هناك مقاتلو الليل، شباب مدنى تحمل وجوههم بالفعل آثار الصراع، الكوفية ملتفة حول العنق، استعدادا لتغطية الفم بها، وفى حقائب الظهر، توجد زجاجات المياه، الخل الأبيض، ناجع فى مواجهة الغازات المسيلة للدموع، التى تطلقها يوميا مئات القنابل، إلى جانب أعمدة المظاهرات الثابتة، نشطاء تقليديون، إسلاميون، يساريون، قدامى الناصريين الوطنيين، مناضلون شرفاء ومتجردون، مدافعون متحمسون عن حرية التعبير، ينضم تيار جديد من الناس. مصريون عاديون. موظفون، عاطلون، أشخاص بسطاء، منهكون، يعيشون حياة أطفأ بهجتها فقدان الأمل. بعد أن شاهدوا، غير مصدقين، وطوال أسبوعين، تونس تشتعل بالثورة على شاشة الجزيرة، كانوا فى هذا اليوم يتوافدون بعشرات الآلاف إلى ميدان التحرير. يموت الكلام المعتاد، فى سيل الكلمات، فى سيول الأوجاع، تتكرر كلمات الخبز، العمل، العلاج، التعليم، المواطنة، الكرامة. هذه الكلمات الجديدة تجعلهم يرتجفون عندما ينطقون بها. فى الإسكندرية، كانوا كذلك بعشرات الآلاف، فى كل مدن مصر، يخرج الناس إلى الميادين. فى هذا اليوم، فى بنى سويف، على أبواب مصر الوسطى قتلت الشرطة سبعة عشر متظاهرا.

مدافع موجهة ناحية الجدران، الجيش، يراقب الوضع، الجماهير تعانق الجنود، يحملون إليهم الحلوى ويقدمون لهم السجائر، يقفون إلى جوارهم لالتقاط الصور، أوقات غير مألوفة، تراوح بين الانقباض والفرح. فى ميدان

التحرير تطغى هتافات المطالبة برحيل مبارك على دوى الرصاص: على بعد مائتى متر من هذه الجماهير غير المكترثة، يهاجم بعض النشطاء مبنى وزارة الداخلية، التى تجسد كل صنوف التعسف والظلم، كل أشكال الفساد وصور التعذيب. إنها منذ وقت طويل، كانت بؤرة غضب المصريين الذين روعتهم تلك السطوة الغاشمة المشتركة لأمن الدولة والأمن المركزى، اللذين يمثلان ذراعى وزارة تحظى بالسيادة المطلقة وتتمتع بقوة أكثر من مليون رجل تحت إمرة حبيب العادلى المكروه.

لقد كانوا بضع عشرات فى مواجهة الوحش المفترس. شباب تختفى ملامحهم خلف الكوفيات. فى الثالثة من بعد الظهر، يتردد فى شارع الفلكى صدى الطلقات الأولى، تسقط أجساد على الأرض.

التليفزيون الرسمى الذى كان يواصل بث مسلسلات وأفلام وثائقية عن عالم الحيوان، يقطع برامجه: للمرة الأولى منذ وصوله إلى سدة الحكم فى أكتوبر ١٩٨١، حسنى مبارك يتخذ نائبا له، عمر سليمان، رئيس المخابرات العتيد، ظل الرئيس، الذى يوليه ثقة مطلقة ودائمة منذ أن أنقذ حياته فى عام ١٩٩٥، أثناء محاولة اغتياله فى أديس أبابا بإثيوبيا، أما منصب رئيس الوزراء فقد آل إلى أحمد شفيق، المنتمى هو الآخر إلى طائفة العسكريين، الذى ظهر اسمه مؤخرا، مثل عمر سليمان، من ضمن الخلفاء المحتملين للرئيس.

فى وسط الجماهير، بميدان التحرير، يقف محمود، محاسب على المعاش، تكسو وجهه ملامح الغضب نحن لا نريد مزيدا من العسكر بعد اليوم، إن هذا الوضع يستمر منذ١٩٥٢، والبلد يغرق فى كل يوم أكثر من سابقه ,إننا ثمانون مليوناً من المدنيين ألا يوجد من بيننا من يقدرون على أن يحلوا محلهم ؟ وفى السماء كانت شفرات مراوح طائرات الهليكوبتر تدور، تصيب المدينة بالدوار والصمم من جراء رقصة الفالس المحيرة التى تؤديها بلا توقف.

الأحد ٣٠ يناير

لجانب طويل من الليل، استمر التراشق بالنيران، وفى ساعات الفجر الأولى، تصاعد الرمى، هنا وهناك، أمام وزارة الداخلية، مفسحا الطريق لنحو ثلاثين عربة، غادرت المبنى مندفعة كالإعصار كانت الوزارة، أيقونة جهاز الشرطة القمعى، قد سقطت لتوها.

منذ يومين تقريبا، أصبحت مراكز الشرطة خالية تماما. فى ليلة الجمعة تمت مهاجمة أكثر من خمسة عشر مركزا فى القاهرة وحدها، وتم اجتياحها، ونهبها، وإحراقها بواسطة الغوغاء وأصحاب السوابق. كما أكد رجال الشرطة أنفسهم، وذلك بقصد إتلاف ملفاتهم، ونشر الفوضى. فى حى جاردن سيتى كان مركز الشرطة مشرع الأبواب، تصفر فيه الريح، المكاتب تم اجتياحها وتدميرها، أكوام من الأوراق تتطاير عبر الدهاليز، فى الطابق تحت الأرضى كانت الأبواب ذات القضبان المعدنية تطل على زنازين خاوية متسخة أين هم إذًا ؟ لقد روعوا هذا البلد ثلاثين عاما، وها هم يختفون. يقول أحد سكان الجوار فى تقزز: «فى الليلة الماضية، بناء على تنبيهات التليفزيون، نزل الرجال إلى الشوارع لحماية المنازل. مئات الخارجين عن القانون يهربون من السجون فى كل أنحاء القطر، شوهدت عصابات من الرجال، عيون باردة كالزجاج ووجوه تغطيها الندوب، مزودين أحيانا بأسلحة يقال إنها مسروقة من مراكز الشرطة. لجان الدفاع الشعبى تتخذ مواقعها فى كل الأحياء: تحت أنوار مصابيح الشوارع المصفرة، يقضى الرجال الليل، بالقرب من نيران أعدت على عجل من الأغصان وفروع الأشجار، عصى، جنازير، زجاجات مولوتوف، هراوات، سكاكين، سيوف وأسلحة نارية. مصر تخرج ترسانتها، البسيطة والمروعة.

فى الوقت نفسه، فى ميدان التحرير، يبدأ الحشد فى التزايد أمام مبنى الإذاعة و التليفزيون القريب جدا، علماء الأزهر، المرجعية الأساسية للإسلام السنى، بعمائمهم البيضاء و الحمراء يؤدون صلاة الغائب على المائة و الست ضحايا الذين أُعلِن عن مقتلهم رسميا منذ بدء الانتفاضة. قبل بداية حظر

التجول بساعة، عوت السماء فوق القاهرة، طائرتان حربيتان تحومان فوق المدينة و توشكان أن تلامسا أسطح بيوت العاصمة. رسالة هادرة ، تصيب بالصمم، ربما كانت موجهة إلى إرهاب من سيتجرأ على خرق حظر التجول، المقرر فى الرابعة من بعد الظهر. لكن لا طائرات الفانتوم ١٦و لا استعراض طائرات الهليكويتر استطاعت أن توقف الجماهير الزاحفة إلى ميدان التحرير. فى واشنطن يطالب باراك أوباما بـ « انتقال سلمى منظم إلى حكومة تستجيب إلى آمال الشعب المصرى» .فى الساعة السابعة يصل محمد البرادعى، المعارض، إلى ميدان التحرير.. إن عصرا جديدا يبدأ فى مصر.. إن ما شرعنا فيه لا يمكن له أن يعود إلى الخلف بعد الآن» .

الإثنين ٣١ يناير

هناك رايات، و منصة. لافتات وأعلام. هناك حشد من الناس، باستمرار هناك حشد من الناس. أسبوع من الانتفاضة، و تغيرت ملامح التحرير. منذ سبعة أيام ، كان هذا الميدان الشاسع يرتج على إيقاع محركات السيارات، منذ الآن، صار فى قبضة الشعب. من هنا يُرى هيكل مقر الحزب الوطنى الديمقراطى، حزب الرئيس مبارك و قد سوّده الرماد ، شبح كئيب يجثم على الأفق.

إلى الشمال، أسفل قبة المتحف المصرى الضاربة إلى الاحمرار، اصطف بعض الناس، لحماية المبنى من اللصوص. يؤكد المجلس الأعلى للآثار أن بعض اللصوص قد تسللوا، فى يوم ٢٧ عبر السقف إلى داخل المتحف؛ مستولين على كثير من القطع الفرعونية، مبعثرين و متلفين أخريات. كنوز توت عنخ آمون، بالطابق الأول، لم يمسها السوء.

فى الجنوب، تحيط بالميدان واجهة المجمع المقعرة، متاهة الإدارة المركزية، إلى جانبه مسجد عمر مكرم، حيث يتوضأ آلاف الأشخاص كل يوم، قبل أن يركعوا و يسجدوا خمس مرات، فى اتجاه الكعبة بمكة.

إلى الغرب، تقوم بناية بيضاء ضيقة، تعلوها ساعة كبيرة، مقر الجامعة العربية. من مكتبه العالى، ثمة رجل يراقب الميدان باهتمام. عمرو موسى، أمين عام جامعة الدول العربية صاحب الشعبية الجارفة، كان قد صرح، منذ عام مضى، بأنه قد تأثر كثيرا بنداءات المصريين، الذين كانوا يرون فيه خليفة مأمولا لحسنى مبارك. فى بداية المساء، دعا عمرو موسى إلى انتقال سلمى للسلطة فى مصر .

فى فترة بعد الظهر، أعلن التليفزيون عن تشكيل حكومة جديدة. أخرج أحمد شفيق العديد من وزرائه، غير أن أول من سقط كان: حبيب العادلى، وزير الداخلية الذى يكرهه المتظاهرون. الذى استُبدل بأحد لواءات الشرطة، محمود وجدى.

فى الصباح كانت صحيفة Haaretz اليومية الإسرائيلية، تؤكد أن إسرائيل قد طالبت الولايات المتحدة و الكثير من دول الاتحاد الأوروبى بأن تساند، من أجل صالح الغرب و كل بلاد الشرق الأوسط، «استقرار نظام حسنى مبارك . فى المساء نفسه، و خلال مؤتمر صحفى، أعرب رئيس الوزراء الإسرائيلى، بنيامين نتنياهو عن أفكاره بوضوح: « من الحقيقى أن الإسلام المتطرف لم يكن المتسبب فى حالة عدم الاستقرار. و بكل تأكيد لم تكن الحال كذلك فى تونس و لا أعتقد أن تكون فى مصر، غير أن من الحقيقى أيضا، فى ظل حالة الفوضى، أن حركة إسلامية منظمة يمكنها السيطرة على الدولة. حدث ذلك فى إيران، و فى أماكن أخرى. منذ بداية هذه الاضطرابات لم يتوقف النظام عن الإشارة إلى الإخوان المسلمين، الذين ما زلنا لا نراهم كثيرا مع ذلك فى المتظاهرين. جماهير مبتهجة، فى السابعة مساءً أذاع التليفزيون الرسمى بلاغا: الجيش، لن يستخدم القوة ضد المتظاهرين، و يقر بالحقوق «المشروعة» للشعب.

جمهورية التحرير، سعيدة ، تتنفس الصعداء.

الرجال من جهة اليمين، النساء من اليسار. فى مدخل الميدان، يتابع الجنود، جالسين فوق مدرعاتهم ، لفافات التبغ بين أصابعهم ، سيل الجماهير التى تتوافد بلا انقطاع، جاءوا من كل أنحاء مصر، من أعمق أعماق الدلتا، بعضهم من سيناء ، فضلاً عن أصحاب البشرة السمراء، القادمين من وراء أسوان. يذهبون إلى ميدان التحرير مثلما يصعد آخرون إلى السماء، أملا فى حياة أفضل . قوى المعارضة و شباب حركة ٦ إبريل، تدعو الناس إلى أن يتوجهوا بأعداد غفيرة إلى الميادين الواسعة بالقاهرة .

إن من يحب مصر، ولو أقل القليل، فعليه أن يدرك أن رحيله صار حتميا. نحن اليوم مليون إنسان و إذا لم يرحل فسوف نكون مليونين، ثلاثة، ثمانين مليونا فى الشوارع يوم الجمعة، كى نهديه إلى طريق الجحيم ! دمية مشنوقة تحمل وجه الرئيس ، تتدلى أسفل أحد أعمدة الإنارة التى تأخذ شكل حرف Tرجل يهتف و جماهير تردد خلفه.

على مدى البصر، هناك رؤوس سافرة أو محجبة، لكهول أو لشباب. تعلوها عمامات شيوخ الأزهر، حمراء و بيضاء، أو معُصبة بشرائط تحمل ألوان العلم الوطنى أسود، أبيض، أحمر. سيل متدفق تتماوج فوق سطحه لافتات مكتوبة بجميع اللغات « Game Over » انتهت اللعبة، « Va t'en »اغرب عن وجوهنا. من يد إلى يد، تنتقل قائمة بأرقام مجانية. الأرقام الموجودة على تويتر و جوجل، تم وضعها تحت تصرف المصريين للتغلب على الرقابة التى فرضها قطع الانترنت منذ يوم الجمعة . وسط الزحام ، يقوم بعض الشباب، يحملون المكانس و الأكياس البلاستيكية، بتنظيف المكان . نساء يقدمن الخبز و الماء للجميع. الواحدة بعد الظهر، رجل ضاحك، يلصق أذنه إلى هاتفه المحمول، ينقل إلى من يقفون بجواره ما يسمعه التليفزيون الحكومى يقول إن عدد المتظاهرين فى الميدان حوالى خمسة آلاف شخص من حوله اجتاحت الجماهير الساحة الشاسعة. تعلن قناة الجزيرة عن وجود مليونى شخص. الحقيقة غائبة. غير أنها

ليست على القناة الفضائية القطرية، التى تندد بها الحكومة المصرية، والتى كانت مرآة مكبرة لحركة تمرد، كانت تستمد قوتها من هذه القناة المتضامنة معها. منذ يومين منعت قناة الجزيرة من البث على الأقمار الصناعية المصرية. التليفزيون الحكومى، مطيع للأوامر طاعة عمياء، يتبنى نظرية المؤامرة. تمر الرسائل: شباب التحرير زمرة من المتهتكين، مدمنى مخدرات، لا بل حتى جواسيس يعملون لحساب إسرائيل أو إيران، حسبما تختار. فى الخفاء ، يتصاعد قلق واسع الانتشار: تجرى مصادرة أجهزة اتصال الصحفيين الأجانب المتوافدين على مطار القاهرة. وزارة الإعلام تشير إلى الأيدى الخفية. ميدان التحرير، أحد الجنود ينصح صحفيا بأن يتغيب يومين عن الميدان.

فى الإسكندرية ، السويس ، كل المدن الكبرى فى مصر، تخرج الجماهير زاحفةً، معلنةً عن غضبها، متغنيةً بأمانيها. فى هذا اليوم، الأول من فبراير، يعبر الجميع عن شعورهم باستعادة الكرامة. يُقّبل رجل جواز سفره: للمرة الأولى فى حياتى، أفخر بكونى مصريا. « بعد سريان حظر التجول بوقت طويل، يبدأ الناس فى مغادرة المكان ، يرشدهم إلى المخارج جنود مبتسمون».

فى العاشرة مساءً، عندما توجه حسنى مبارك إلى الأمة، مصبوغ الشعر، أسود غطيس، شمعى السحنة ، كانت مصر تحبس أنفاسها، غير أنه، بعيدا عن التفكير فى الرحيل، اكتفى بإعلان أنه لا ينتوى أن يرشح نفسه لفترة ولاية سادسة، فى الانتخابات المقررة فى سبتمبر، وأنه سوف يكرس الشهور الأخيرة المتبقية من فترة رئاسته الحالية للإجراءات اللازمة من أجل انتقال سلمى للسلطات .«على مصر أن تختار بين الفوضى والاستقرار «يقول مبارك» لقد عشت على أرض هذا الوطن ، حاربت من أجله وعلى أرضه أموت وسوف يحكم التاريخ لى أو على. فى البيوت يبدأ البعض فى البكاء، متأثرين بمنظر هذا الرجل كبير السن، البطل العسكرى. الرأى العام يتأرجح، لقد قضيت زمنا طويلا فى خدمة مصر وشعبها، ثم يردف ، إننى لم أسع مطلقا إلى سلطة أو جاه».

الأربعاء ٢ فبراير موقعة الجمل

مساء البارحة، شوهدوا على كورنيش النيل، جماعات مع الرجال، تتغنى بإنجازات الرئيس. فى ميدان مصطفى محمود، حى المهندسين، تجمع الآلاف للاحتجاج على هذه الثورة ، غير العادلة تجاه رجل» أتاح للبلد أن تحيا فى سلام لمدة ثلاثين عاما. «يشيدون بمآثر» أبو الأمة «صارخين» مصر ليست التحرير. «نحن ثمانون مليونا» يضغطون على مخارج ألفاظهم أمام الصحفيين. فى ميدان مصطفى محمود ، نساء، رجال، حشد مختلط، غاضب لكنه سلمى. بالقرب من مدخل ميدان التحرير، فى مقابل ذلك، كانت الصورة مختلفة، إلى جوار المتظاهرين المؤيدين لمبارك، رجال مسلحون بالهراوات.

لقد خرج البلطجية، مجموعات من الأشقياء، أصحاب السوابق، فتوات الأحياء الفقيرة ، يتم تأجيرهم باليومية للقيام بالأعمال القذرة . قمصان رخيصة من الأقمشة الصناعية تخرج من السراويل، نبابيت، أشباح مألوفة الظهور فى المظاهرات، تقوم منذ سنوات، بمضايقة المعارضين والاعتداء عليهم. عند الظهيرة هاجموا المتظاهرين. أحجار، طعنات، طلقات، العنف غير معقول. انضم إليهم أصحاب الجمال ومؤجرو الخيول فى الأهرامات، الذين دخلوا الميدان بدورهم على ظهور دوابهم. انقضوا على المتجمعين فى الميدان، مثيرين الرعب والفوضى والارتباك. احتجب الميدان، الذى تحول إلى ساحة قتال، تحت وابل الأحجار. من أعالى بنايات ميدان عبد المنعم رياض؛ رصد بعض الناس وصول عربات نصف نقل عبر الجسور، محملة بالأحجار.

فى التليفزيون الرسمى، يتحول الخطاب الوطنى المتطرف إلى خطاب يحث على كراهية الأجانب. يعامل الصحفيين منهم على أنهم جواسيس يعملون لحساب « قوة معادية» إسرائيل على رأس القائمة. الفنادق المحيطة بالميدان، حيث ينزل المئات منهم ، تحولت إلى مصائد لهم، طاقم العاملين فى فندق هيلتون رمسيس، انقلب من البشاشة والود إلى التجاهل والبرود. على الباب، لم يعد أحد يستطيع الدخول إلا إذا بدا غير مشكوك فيه ماعدا الجيش، الذى

داهم المكان لمصادرة معدات القنوات التليفزيونية التى كانت كاميراتها مصوبة باتجاه الميدان. معدات الاتصال بالأقمار الصناعية الخاصة بمراسلى الإذاعات تلقى نفس المصير. بالقرب من السوق تعرض فريق القناة الثانية الفرنسية للاعتداء، تحطمت الكاميرا، فرار يائس إلى الفندق. فريق آخر اعترضه بلطجية مسلحون واستولوا على سيارته، اصطدم بأحد الحواجز، إطلاق نار، طعنات، مرة بالسكين فى رأس أحدهم ، أو بسنجة فى ذراع آخر. تلقى أحد الصحفيين طعنة بالخنجر. فى محيط التحرير، تتزايد الاعتقالات.

فى الميدان، ينظم الثوار صفوفهم بقدر ما يستطيعون. خوذة دراجة نارية، مصفاة معدنية فوق الرأس، زجاجات المياه البلاستيكية الفارغة المربوطة بالعُصابات: كل يحمى نفسه بوسائله البسيطة المتاحة. فى الصف الأول، يظهر الإخوان المسلمون، الذين كانوا متحفظين نسبيا منذ اندلاع الثورة. إنهم منضبطون، منظمون، قادرون على التخطيط. وبشكل واضح كان بعضهم متمرسا بالقتال. كانوا يتقدمون الآخرين، كان الإخوان هم من حمى الثورة فى ذلك اليوم، «يقول أحد العلمانيين فى مرارة لاضطراره للاعتراف بدور«أصحاب اللحى»: « بدونهم، ربما استطاع أنصار مبارك إخلاء الميدان».

فى الميدان، أسفر اليوم عن ثمانية من القتلى، على الأقل وتسعمائة وخمسة عشر جريحا. هكذا أعلن وزير الصحة. مصر تهتز، من جديد.

الخميس ٣ فبراير

ليلة الأمس، عادت أجهزة استقبال الشبكة العنكبوتية إلى الوميض مرة أخرى، للمرة الأولى منذ أسبوع، الانترنت فى الخدمة. وتتفس كثير من المصريين الصعداء. أخيرا إشارة إيجابية، هكذا ظنوا ، منهكين من جراء عشرة أيام من العراك، الضيق، الانتظار سدى ، الآمال الخائبة، متوترين، يدفعهم للجنون ذلك العواء الذى لا ينقطع لطائرات الهليكوبتر فوق سماء القاهرة، فى الليل يتواصل دوى الطلقات هنا وهناك ، فى كل الأحياء، لا يتحدث الناس سوى عن عمليات

السرقة والنهب، عن مئات المساجين «الهاربين» من سجونهم فى الأيام الأولى من الانتفاضة. Navi Pillay سكرتيرة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، كانت لاذعة فى تصريحاتها، يبدو أن أحد الدوافع الرئيسية للفوضى كان من فعل أجهزة الأمن والمخابرات . وتمادت مردفة فى برود « هذه الأجهزة (...) التى قامت بحماية النظام الاستبدادى فى مصر، خلال الثلاثين عاماً الماضية عليها الآن أن تتوقف عن زعزعة سلطة الدولة التى من المفروض أن تكون فى خدمتها»..

فى الميدان، تواصلت أعمال العنف حتى الفجر. سقط العديد من المتظاهرين قتلى برصاص القناصة ، قبل أن يتوقف الأمر بتدخل الجيش، فى الساعات الأولى من النهار. كان الليل جهنمياً. يتساءل المصريون: من الذى دفع للبلطجية، الشائعات تتهم سدنة الحزب الوطنى، صفوت الشريف، أمينه العام على رأس القائمة، ورجال أعمال مقربين من النظام حزب الرئيس المطلق السلطات يضم مليونين ونصف المليون من الأعضاء بعضهم عن قناعة، وأكثرهم بدافع الانتهازية: كان من الصعب عمل أى شىء فى مصر دون دعم الحزب الوطنى الذى سوف يفقد كل شىء فى هذا الحدث الذى صار يأخذ شيئًا فشيئًا شكل الثورة.

فى التليفزيون، تضاعف الحكومة الجيدة كلية من التصريحات الداعية إلى التهدئة. يقدم رئيس الوزراء، أحمد شفيق، اعتذاره عن أعمال العنف التى جرت فى البارحة. نائب الرئيس، عمر سليمان، يؤكد أن جمال مبارك لن يكون مرشحا لخلافة والده، تعرض شبكة ABC الأمريكية حوارا دار خلف الكاميرات بين حسنى مبارك والصحفى كريستيان أمانبور . كان الرئيس العجوز قد أكد خلاله أنه قد ضاق ذرعا بما يجرى. لكنى، إذا رحلت اليوم فسوف تعم الفوضى.

فى الميدان تستمر الجماهير فى هتافها: ارحل ! ، إلا أن الجو العام كان ثقيلاً، خائفًا، حزينا، انهزاميًا. يدعو المعارضون الى مظاهرة ضخمة فى الغد، من أجل الاحتفال بيوم «الرحيل»

لا يصدق أحد ذلك

الجمعة ٤ فبراير

كنا نادراً ما نراهم، وهاهم يخرجون. فى تلك الجمعة، إلى ميدان التحرير، وسط حوالى مائة ألف شخص يهتفون، من الآن فصاعداً سوف يتواجدون بكثافة. رجال ملتحون ونسوة يضعن النقاب. إنهم لم يجاهروا بذلك، غير أن الإخوان المسلمين يدركون أنهم يمتلكون بين أيديهم، منذ الآن، نصيبًا من مصير هذه الثورة. بالأمس كان عمر سليمان، المكلف من قبل مبارك بإقامة حوار مع المعارضة، قد مد يده إلى الجماعة، أثناء مقابلة نقلها التليفزيون المصرى» إنهم يترددون، قال سليمان. غير أن المشاركة فى الحوار من صالحهم، إنه يمثل فرصة ثمينة بالنسبة إليهم. « دعوة لها وقع التهديد. تصدر من الرجل الذى لم يتوقف عن قمع الجماعة، طوال عشرين عاما.

فى الصباح ، جاءت الرسالة بصورة أوضح: عند الفجر، اقتحم رجال البوليس السياسى باب إخوان أون لاين، موقع الانترنت المؤثر لجماعة الإخوان، معتقلين بعض المحررين ، مصادرين بعض الأقراص المدمجة. بعد الظهر جاء الرد، المرشد العام للجماعة، محمد بديع، يعلن عبر قناة الجزيرة أنه يقبل الحوار مع كل من يريد الإصلاح فى البلاد، بعد رحيل هذا الرجل الظالم، الفاسد، المستبد. «وأكد أن الإخوان المسلمين لن يقدموا مرشحا فى الانتخابات الرئاسية. وعد موجه، بالتأكيد، لطمأنة الجميع.

فى شوارع الإسكندرية، كان الإسلاميون كذلك هم الأكثر عددا، ضمن عشرات الآلاف من المتظاهرين. وعندما دارت معارك فى القاهرة، ميدان طلعت حرب، ضد أنصار حسنى مبارك، كان الإخوان، من جديد، يتقدمون الصف الأول، إلى جوار شباب المعارضة. فى نفس الوقت كانت السلطات الإيرانية تدعو إلى ثورة إسلامية فى مصر، تستلهم تلك التى أطاحت بالشاه فى عام ١٩٧٩.

«إنهم مصريون، مثلنا من أهل هذا البلد. يبدأ الناس فى الميدان فى سماع هذه العبارة. فتيات يرتدين « الـ تى شرت» الضيق إلى جوار نسوة يتدثرن بخُمُرهن السوداء السابغة ، يرفعن نفس اللافتات. ما من شعارات إسلامية «نحن نريد جميعاً نفس الشيء: تطهير مصر من طاغيتها، ومن الفساد.

البعض، يلتهب حماسة، على علم بما جرى: أعلنت وسائل الإعلام الرسمية عن منع بعض رجال الإعمال وبعض الوزراء القدامى من مغادرة البلاد وتجميد أرصدتهم البنكية. فى السماء لا تزال طائرات الهليكوبتر تحوم باستمرار.

السبت ٥ فبراير

على مدخل ميدان التحرير، قامت حواجز الأسلاك الشائكة، هياكل العربات المحترقة، أكوام من الأحجار. مشهد صار منذ الآن مألوفا، بينما لم يكن من الممكن تصوره منذ عشرة أيام خلت. أطلقت حرية الكلام فى مصر، ومعها أيضا انطلق العنف. غير أن حسنى مبارك مازال هنا وكذلك النظام الذى يُندد به المتظاهرون بكل حماسة. لن يكون الإعلان عن استقالة المكتب التنفيذى للحزب الوطنى بكامل أعضائه، وعلى رأسهم جمال مبارك ابن الرئيس، هو ما يغير من الأمر شيئا. يعلق المصريون على الخبر فى فرح متغطرس. وإن لم يخُل من ضجر. كل يوم يحمل (سيناريو) مختلفًا، ترهقهم الأحداث التى تتداعى بلا نهاية. وما الذى تريده واشنطن ؟ أمريكا، التى يرفض المصريون، المناهضون للاستعمار بكل قوة، أى تدخل منها تبقى رغم هذا لاعبا لا يمكن إغفاله أو تفاديه فى هذا الزلزال الكبير الذى هز العالم العربى. الولايات المتحدة التى يظهر أنها قد شرعت فى التخلى عن الرئيس، أعلنت، عبر مبعوث أوباما إلى القاهرة، فرانك وينسو، سياسى مخضرم فى شئون الشرق الأوسط وصديق شخصى للرئيس المصرى، أن حسنى مبارك يجب أن يشرف على عملية انتقال السلطة. ما الذى يدور فى دهاليز البيت الأبيض ؟ تساءل الناس فى حينها.

بدا أن الفخ التشريعى قد انطبق. وفقا للدستور، فإن رحيل الرئيس مبارك يستلزم إجراء الانتخابات خلال مهلة لا تتجاوز الشهرين. والحال أن التعديلات الدستورية التى تم إمرارها عنوة فى عام ٢٠٠٧، قد أغلقت الأبواب، عن طريق ،آلية ماكرة تستوجب الحصول على توقيعات النواب المُنتخَبين، بالنسبة إلى من يريد أن يتقدم كمرشح مستقل. وهكذا، على بعد عدة مئات من الأمتار، كانت قبة البرلمان تبدو هازئة بالمتظاهرين: أكثر من ٩٠٪ من مقاعد البرلمان، يسيطر عليها الحزب الوطنى، الذى تضاعف نهمه أثناء الانتخابات البرلمانية التى جرى تزويرها بشكل واسع، بحسب ما يقول المراقبون المستقلون. فى ذلك الوقت، كان المرشح الذى تحميه السلطة، فقط من يستطيع ترشيح نفسه فى مواجهة الحزب الوطنى. عالقة فى الفخ المنصوب، لم يكن أمام المعارضة خيار آخر سوى التفاوض مع النظام على أساس المقترحات التى قدمها عمر سليمان يوم الثلاثاء.

لم يعد بإمكان المصريين تحمل المزيد. بالنهار، تمضى الحياة بالحركة البطيئة؛ مدارس وجامعات مغلقة، مصانع متوقفة تماما. فى الليل، رجال، منهكون، إلى أقصى الحدود، يواصلون الطواف بالشوارع. هنا وهناك، يُحكى عن أعمال سلب قام بها اللصوص. على كورنيش النيل، شمال ميدان التحرير، صار ما كان بالأمس مركز أركاديا التجارى ، مكعبا مهشم الزجاج، يكسوه سواد الرماد ، المحلات التجارية خربة، منهوبة.

فى الشوارع ، تتردد نفس العبارة ، باستمرار ، «يجب أن يتوقف هذا بسرعة».

الأحد ٦ فبراير

لن يتحركوا من هنا، ومادام لم يرحل، فلن يرحلوا عن المكان. أما هو، حسنى مبارك ، الذى وضع الناس على صورته شاربا هتلريا ، فكان يتعرض للسب و الإهانة من جماهير التحرير، رسموه على شكل بقرة، وكان من قبل يطلق عليه اسم «البقرة الضاحكة» ينطقون اسمه بازدراء، يلعنونه، يرسلونه إلى الجحيم. أما خارج ميدان التحرير، فمن ناحية أخرى، هناك من يرون، على العكس، أنه

ليس من اللائق أن يعامل شخص مثل الرئيس بمثل هذه المعاملة. ويرون أن الضغوط الدولية أمر غير مقبول. يجب أن يترك له الوقت حتى يرحل، كما يأمل. بعد ستة شهور، لقد أعلن ذلك. إنه لن يترشح مرة أخرى، هذا أكيد. إذا، ماذا يريد الناس فى التحرير أكثر من هذا ؟ مبارك سوف يرحل بعد ستة أشهر، وابنه انتهى أمره هو الآخر. إن ذلك فى حد ذاته انتصار كبير، قطاع كبير من المصريين كان يرى ذلك.

عمر سليمان، نائب الرئيس يبدأ مشاورته مع قوى المعارضة. وللمرة الأولى مع الإخوان المسلمين، الذين أصبحوا بذلك قوة سياسية معترفا بها من قبل الدولة. تغمر الجماعة بهجة يشوبها الحذر.

كان شباب الثوار قد شكلوا ائتلافا عشية اندلاع الثورة. غير أنهم لم يعلنوا عن قيامه إلا اليوم؛ يضم هذا الائتلاف أعضاء حركة ٦ أبريل، حركة الحرية والعدالة. بل أيضا شباب الإخوان المسلمين، شباب الجبهة الوطنية، أنصار محمد البرادعى. كانت مطالبهم واضحة، حسنى مبارك يجب أن يرحل. حالة الطوارئ المفروضة والسارية منذ ثلاثين عاما، يجب أن ترفع. يجب حل البرلمان، تشكيل حكومة وحدة وطنية من أجل إجراء إصلاح دستورى بأسرع ما يمكن. يجب أن تعود الدولة إلى العمل. لقد غادر السائحون. يسعى المستثمرون الأجانب إلى لملمة أصولهم. البورصة مغلقة باستمرار. يقال إن رؤوس أموال ضخمة قد حولت إلى خارج البلاد فى الساعات الأولى للانتفاضة. كان كل شىء يعانى وقتها الشلل. فى ذلك اليوم، أعادت البنوك فتح أبوابها، لكن الجميع يتلكئون، يتمهلون، على أمل أن ينتهى هذا الوضع.

الإثنين ٧ فبراير

انقضى النهار، طويلا كنهر النيل. قضاه الناس فى الانتظار، قضوه يائسين. مازال التحرير مزارا صاخبا ، يتوافد إليه الناس.

كما لو كنا نأتى لقياس نبض مريض، للاطمئنان على صحته. أو كما نأتى كى نحصل على جرعة من الأمل..لأن مصر، خارج الميدان، كانت تترنح. فوق الميدان كانت رياح التمرد تهب باستمرار.

جنبا إلى جنب، يتواصل كل من كان من غير الممكن أن يجرى بينهم حديث من قبل. الملتحون مع المشاغبين المتمردين الرافضين للحجاب. الشباب مع الشيوخ. الأغنياء والفقراء. لكن التحرير لا يعبر عن مصر بأكملها. فكثير من المصريين، فى بيوتهم، تخيفهم الثورة، مسمرين أمام شاشات التليفزيون.

بالنسبة إلى من يستقبل القنوات الفضائية، كان الموعد ثابتا لا يتغير: برنامج منى الشاذلى الحوارى، على قناة دريم الخاصة، كان مؤشر قياس حركة التمرد. فى ذلك المساء، أمام المذيعة، كان هناك رجل، شاب، يدعى وائل غنيم: فتى لامع، واحد من أولاد الزمالك، أحد أحياء القاهرة الراقية، دراسات رفيعة المستوى، عائلة كريمة ميسورة، يتحدث عدة لغات، نابغة. فى الثلاثين من عمره كان يشغل منصب مدير تسويق شركة جوجل فى منطقة الشرق الأوسط بكاملها. منذ عدة ساعات فقط ، أطلق سراح وائل. باعتباره واحدا من الداعين إلى التظاهر فى يوم ٢٥ يناير، ألقى القبض عليه فى يوم الجمعة ٢٨ يناير، قبل أن تسقط مصر فى قلب هذه الفوضى، بواسطة أربعة رجال ألقوا به معصوب العينين فى داخل إحدى السيارات. وأطلق سراحه فى ذلك الاثنين، بعد عشرة أيام من الاحتجاز مطلق السرية. فى عزلته المفروضة قسرا ، لم يكن وائل يدرى أن البلد كله قد ثار، وأن حرية التعبير قد أطلقت، أن مئات الآلاف من المصريين قد احتلوا الشوارع عنوة ، مطالبين حتى برحيل مبارك.

أمام ملايين المشاهدين، بلا تكلف، صرح وائل بأنه مؤسس صفحة «كلنا خالد سعيد» على الفيسبوك. تحدث عن شعوره بالألم، أثناء احتجازه، لأنه قد اتهم بالخيانة، و بالعمل لحساب مصالح أجنبية، اتهام سهل بالنسبة إلى وائل، المتزوج من أمريكية. يتحدث عن حبه لوطنه، يحكى عما قام به، بكلماته البسيطة الواضحة، أطاح بنظريات المؤامرة التقليدية التى ترددها، منذ عشرة أيام، أجهزة

الإعلام الرسمية. أتى الوقت الذى يعامل فيه أصحاب النوايا الطيبة كالخونة. لو كنت خائنا، لظللت جالسا على حافة بركة السباحة فى منزلى فى «دبى» يردف وائل موقعاً كلماته:

«لقد خرج من يطلقون عليهم شباب الفيسبوك بعشرات الآلاف فى يوم 25 يناير، أخبروهم !»

بعد ذلك، عندما مرت على الشاشة صور عشرات الشباب الذين سقطوا برصاص الشرطة أو بأيدى البلطجية، عندما تم الانقضاض على ميدان التحرير فى ٢ فبراير ، انفجر وائل باكيا: لم يكن ذلك خطأنا، إنه خطأ هؤلاء المعاندين الذين يتشبثون بالسلطة. «أجهش وائل بالبكاء وغادر المكان».

وأمام شاشات التليفزيون المصريون صامتون متحجرون، يعقد الحدث ألسنتهم.

الثلاثاء ٨ فبراير

رتل طويل منتظم ينساب ، ابتداءً من أسدى قصر النيل البرونزيين، حتى أسوار حصن سفارة الولايات المتحدة فى جاردن سيتى. يتوافد الناس حاملين أكياسا بلاستيكية، تموين اليوم من الطعام والشراب. لم يسبق لهم القدوم إلى التحرير من قبل. لم يتظاهروا مرةً فى حياتهم. إنهم هنا، مع أسرهم. مندهشون من جرأتهم، مذهولون من أن يروا أنفسهم بهذا الكم. لقد رأيت ذلك الفتى، وائل غنيم، يبكى فى التليفزيون ليلة الأمس، قلت لنفسى: لقد كنت جبانا يقول أحدهم متحشرجا: من الممكن أن نسميهم بطن مصر الرخوة هؤلاء الذين يؤمنون بالأفكار دون أن يتمكنوا من التغلب على خوفهم و قدرتهم. لا يتحدث الجميع سوى عن حلقة الأمس وعن تلك الشجاعة المفاجئة التى تحركهم وتملك عليهم قلوبهم. فى هذا اليوم الذى تغدق فيه شمس جديدة لون الذهب، كانوا هنا، بأعداد هائلة، وربما حاسمة أكثر عددا من الأسبوع الماضى، يتقدمون صوب ساحة الميدان الشاسعة. فى الوسط شباب يحملون المكانس وأكياس النفايات،

ينظفون المكان أولا بأول من البقايا والأوراق المتسخة، يمر الآخرون يقدمون إلى الجميع التمر والحلوى، ما يعين على قضاء النهار، يبتسم الجميع، يتعارفون.

فى سرة الميدان، يتجمع فنانون، سينمائيون، ممثلون، كُتاب مأخوذين بمصر التى تشق طريقها الآن من مظاهر الإخاء التى تتجلى فى الميدان، حيث يتقاطر المسيحيون والمسلمون معا تحت لافتات يتعانق فيها الهلال مع الصليب؛ حيث يرمق الشيوخ الشباب بنظرة إعجاب جديدة. تلمع فيها عيون المحجبات وغير المحجبات بنفس النظرة. اعتقدنا أن الأنفاس كادت تنقطع، وأن ثورة الغضب ربما سكنت، الثورة انطفأت. غير أن مصر، فى ذلك اليوم، ودون أن تدرى، حتى هذه اللحظة ، كانت قد اندفعت لتوها من الناحية الأخرى من الجبل، بفضل دموع شباب سالت فى ليلة ما على شاشات التليفزيون.

الأربعاء ٩ فبراير

فوق جسر قصر النيل، الذى تسده السيارات المضطرة إلى عبور النيل، لتفادى الحواجز المقامة أمام مبنى الإذاعة والتليفزيون يتناثر باعة الصحف، مشغولين ببيع جرائدهم، التى تحمل على صفحاتها الأولى نفس المانشيت «الحوار أو الانقلاب».

مساء الأمس، استدعى عمر سليمان، رجل مصر القوى الجديد، رؤساء تحرير الصحف الرسمية والخاصة. فى قاعة الاجتماعات التزم الجميع صمتا حذرا. وإن كان الجميع يعرف الرجل، فإن قلة نادرة منهم كانت قد تمكنت من الاقتراب منه حتى ذلك الحين، نظرا لأن رئيس جهاز المخابرات السابق كان يحرص على الابتعاد عن الصحافة، شديد التحفظ والرصانة، لم يوافق الرجل على إجراء مقابلته الصحفية الأولى إلا الأسبوع الماضى.

إن الرجل الماثل أمامهم، الذين يخشون جانبه، هو من يمسك فى هذه اللحظة بمقاليد السلطة فى مصر، لهجته التى تجمع بين التسلط والترهيب كانت قاطعة. نافيا أى رحيل محتمل للرئيس مبارك، ألقى سليمان بما فى جعبته من

أوراق: إذا رفضت المعارضة التحاور، فلن يتبقى أمامنا إلا خيار واحد، الفوضى أو الانقلاب. كان عمر سليمان يدرك أن الإجراءات التى أعلن عنها فى هذه الأيام الأخيرة بكثير من الصخب، لم تثر إلا القليل من الحماس. زيادة رواتب الموظفين والعاملين بالدولة بنسبة ١٥٪ ابتداء من أول إبريل!! ليست سوى انتهازية خالصة ، يغمغم الشارع. حلبات النقاش التى اشتعلت حول إشراف السلطة القضائية على الانتخابات، إطلاق سراح السجناء السياسيين، أو تحرير وسائل الإعلام !! غير كافية على أقل تقدير. عمر سليمان رجل عليم ببواطن الأمور: إنه يدرك مدى غضب الناس إلا أن هذا العسكرى القديم يعتقد أنه ليس هناك سوى طريقة واحدة لإعادة المصريين إلى جادة الصواب، تلك الطريقة القديمة الناجعة، المجربة بنجاح منذ أكثر من نصف قرن، الخوف.

ما هو الخيار إذا، الفوضى أم الانقلاب. فى صباح ذلك الأربعاء كانت هاتان الكلمتان تحتلان صدارة كل الجرائد انقلاب عسكرى ؟ ماذا يعنى ؟ هل هو تهديد ؟ انظروا كم يبدو هؤلاء الجنود طيبين ! الجيش والشعب ليسا سوى كيان واحد ! بالقرب من البرلمان، الذى أقام المتظاهرون أمامه خيامهم، منذ ذلك اليوم ، ينفجر محمد ضاحكا. إلى جواره صارخا فى مكبر الصوت، كان هناك رجل يخطب فى الجماهير: لا مبارك ، ولا سليمان ولا شفيق ! «زخافة العسكر ثلاثية الأحصنة، الرئيس ، نائب الرئيس، رئيس الوزراء، التى تمسك بالسلطة، مطالبة بالخروج على وقع الأغانى». الجيش هنا لحفظ الأمن، لا نريده فى السلطة. ما يجب تغييره هو النظام إذا بقى سليمان فلن يتغير شىء يقول الرجل. غير أنه على يقين بأن الجيش ، حتى وإن علت نبرة البعض، لن ينقلب ضد هذا الشعب، الذى يشاركه الحياة منذ خمسة عشر يوما فى كيمياء عجيبة قوامها البساطة، سلامة النية، والهيبة التى تراعى واجبات الاحترام.

على الرصيف، رجل فى زيه الكاكى «يراقب تحركات المتظاهرين. هادئ. طلق الأسارير».

الخميس ١٠ فبراير.. غضبة الأحذية

كان للتحرير فى ذلك اليوم من شهر فبراير، رائحة الربيع فى كاليفورنيا، عبق الأجواء الشرقية. الخيام، أكياس النوم، الشعارات « السلطة للشعب » الرسوم والكتابات المتعجلة على الحوائط، المجموعات المتحلقة حول الجيتار وشعارات ثلاثة، الأولاد والبنات الذين يتلاقون، يتعارفون فى اختلاط نادرا ما رأيناه . تدفعهم تلك الريح الجديدة التى تهب على مصر. كان التحرير مهرجانا مجانيا «Wood Stock» على النيل؛ غير أنه كان فخا فى نفس الوقت.

بالنسبة إلى المُحلل Issandr El Amrani صاحب مدونة المستعرب فإن اللحظة تبدو داعية إلى القلق. سوف يتوجب على الشباب أن يجدوا شيئا ما لكى يستعيدوا المبادرة . لأنه، إذا كانت الجماهير ، التى تأثرت بدموع وائل غنيم ، قد جاءت إلى الميدان، فإن المعارضة، بجغرافيتها غير الواضحة، تشعر بأن عليها أن تجد شيئا آخر. والتواجد خارج الميدان، الذى يمثل قوة جذب لا يمكن مقاومتها، فخ جهنمى ، فيه تحاول السلطة أن تستوعب هذه الغضبة، أن تستنزفها، أن تتركها تشنق نفسها لتختنق ذاتيا.

منذ يومين كانت بقية مصر قد عاودت التزلزل، بواكير هزة أرضية. الغضب الاجتماعى الذى شعرنا بتصاعده ، يمتزج الآن بالمطالبات الديمقراطية. ببطء، تبدو مصر وقد شرعت فى التصدع. أول نذر الاحتكاك المنذرة بالشر كان بالخارجة، هذه الواحة الواقعة فى صحراء الوادى الجديد، بصعيد مصر، حيث سقط على الأقل ثلاثة من المتظاهرين قتلى تحت وابل من نيران الشرطة.

بعدها، لم تعد مقرات الحزب الوطنى، مكتب النائب العام، قسم الشرطة هناك سوى أطلال. ليلة الأمس، فى بورسعيد، اجتاح نحو ثلاثة آلاف من سكان العشوائيات مديرية الأمن. العشوائيات، تلك الأحياء المشوهة، غير المعترف بها، مدن الصفيح المخجلة لدرجة النطق بأسمائها فى ازدراء مهين، والتى نمت بشكل فوضوى لتمتص النازحين من الأرياف ونواتج الانفجار السكانى. سكان

العشوائيات مثلهم مثل أهل الصعيد ومصر الوسطى يتقاسمون الإحساس نفسه بخيبة الرجاء تجاه السياسة والسياسيين. مهمشون، منسيون من نظام شديد المركزية ، تحكمه الوساطة والمحسوبية، شعر هؤلاء الناس بتزايد حرمانهم خلال السنوات الأخيرة . بينما كانت المؤشرات الاقتصادية ، المبشرة دائماً ، تظهر نموا نشطا يقترب من ٦٪ على الرغم من الأزمة، كان هؤلاء الذين يمثلون السواد الأعظم من الأربعين بالمائة من المصريين الذين يعيشون على نحو يورو ونصف اليورو فى اليوم تقريبا، تبعا لإحصائيات البنك الدولى، وخلال الأشهر الأخيرة لم يؤد ما عانوه فى بعض أيامها من نقص الخبز والدقيق فى مناطق سكناهم إلا إلى تأجج مشاعرهم وتبلبل أفكارهم.

فى القاهرة، فوق القضبان المكسوة بالشحم، على الإسفلت الضارب إلى السواد، يجلس أكثر من ألفى عامل من عمال السكك الحديدية الغاضبين، رافضين أن يغادروا أماكنهم ، مانعين القطارات من الوصول إلى المحطة المركزية. يحتجون على رواتبهم بالغة الضآلة، وصعوبة الظروف التى يعملون فيها وعلى التضخم، الذى يسبب الدوار، هذه العشرة بالمائة زيادة فى أجورهم التى تقود إلى اشتعال الأسعار، تجعل كيلو جرامًا من اللحم حلماً بعيد المنال وكل شىء بالنسبة إليهم باهظ الثمن. على الضفة الأخرى من النيل، تحت أشجار الإثل فى حى الزمالك، يتظاهر موظفو هيئة الآثار بدورهم.

ثم أكثر من ألف من عمال مصانع الحديد والصلب فى بورسعيد. بعدها أيضاً ثلاثة آلاف من العمال المكلفين بأعمال الصيانة فى قناة السويس. هنا وهناك ، عدة آلاف من موظفى وعمال قطاع البترول يضيفون همهمات تذمرهم إلى صيحات غضب سائقى النقل العام بالقاهرة، الذين رفضوا تشغيل مركباتهم. لدينا أيضا هذه الخمسة آلاف من موظفى القطاع الطبى، أطباء، ممرضين أو طلاب بمستشفى قصر العينى، الذين يسيرون كتفا إلى كتف متجهين إلى ميدان التحرير. القائمة التى لا تنتهى، لا تتوقف عن الازدياد. وتتحول الأنظار إلى المحلة الكبرى، فى قلب دلتا النيل، معقل مصانع النسيج، التى ترك غضب

عشرات الآلاف من عمالهم، فى إبريل ٢٠٠٨، أثره فى النفوس، الذى ينذر بأن ينفجر من جديد. منذ يومين، وصلت أمواج غضب التحرير إلى كل أرياف مصر. من طنطا إلى أسيوط، بدأت مصر النائية فى الصراخ، يرتد وجع صوتها على كورنيش الإسكندرية حيث لم تتوقف حركات الاحتجاج منذ أسبوعين.

غير أن كاميرات تليفزيونات العالم بأسره، كانت تواصل توجيه عدساتها إلى التحرير. الميدان الذى يغنى، ويرقص، يبكى ويحلم بالأمانى.

الساعة الخامسة من بعد الظهر، كان الميدان يكتظ بالناس يضج بالشائعات. عندما اخترق الجماهير، فجأة، شبح مزين الأكتاف واقترب من المنصة المنصوبة على الرصيف منذ أسبوعين بالقرب من مدخل شارع طلعت حرب. اللواء حسن الروينى، القائد العسكرى لمنطقة القاهرة، يتحدث إلى المتظاهرين. كل طلباتكم سوف تُجاب اليوم ؛ تلقت الجماهير الخبر على أنه إشارة واضحة: بعد ذلك بقليل، يعرض التليفزيون المصرى صورة لحشد متراص من الأكتاف المرصعة بالنجوم فى اجتماع (يبدو وكأنه لمنشقين). مصر تتعرف على المجلس الأعلى لقواتها المسلحة. اجتماع مغلق، يبدو بوضوح أنه بغرض التشاور، يشعر كل المصريين بأنه سوف يكون حاسما فى مسار الأمة. كان من المفترض أن يكون مبارك ، القائد الأعلى للقوات المسلحة على رأس هذا الاجتماع، غير أنه كان غائبا عنه فى ذلك الأربعاء، حل محله المشير محمد حسين طنطاوى، وزير الدفاع، غير القابل للعزل. هذا المجلس، الذى أعلن أنه سوف يكون فى حالة انعقاد دائم، أكد بوضوح أنه يدعم المطالب المشروعة للشعب المصرى . فى التحرير تتصاعد رعشة الفرح: إشارة ثانية. لقد تم تنحية الرئيس. من الجهة الأخرى من العالم ، فى واشنطن، ليون بانيتا، مدير المخابرات المركزية الأمريكية، يتحدث أمام الكونجرس عن احتمال كبير لأن يستقيل الرئيس مبارك فى ذلك اليوم. بعدها بقليل، باراك أوباما، يهدى التحية إلى التاريخ الذى يُكتب الآن . على موجات إذاعة BBC أحمد شفيق، رئيس الوزراء، فى دور العرّاف، يترك الانطباع هو الآخر، بأن الرئيس سوف يترك السلطة، مؤكدا أن الموقف سوف

يتضح فى القريب العاجل. إثر هذه الخطوة، كان حسام بدراوى، الأمين العام الجديد تماما للحزب الوطنى ، أحد الإصلاحيين ، والمعروف بعلاقاته الطيبة مع أوساط المعارضة، قد أعلن بدوره أن الرئيس من الممكن أن يستجيب لمطالب الشعب».

التحرير يرتعش.. يغمره الفرح.

العاشرة والنصف مساءً، تتزايد أعداد الناس، يستعدون للاحتفال بالخبر السعيد. منذ ساعات، كان أنس الفقى، وزير الإعلام قد نفى بشكل قاطع ما يقال حول استقالة الرئيس، غير أن أحدا فى ميدان التحرير لا يريد أن يسمعه ويصدقه. هناك كثير جدا من الإشارات الإيجابية. سوف يرحل. من المؤكد أنه سوف يرحل. قشعريرة عامة تسرى فى ظهور الناس، تشدها، أعين محمومة، الرئيس سوف يتحدث.

على الشاشة العملاقة، بعيونه المنتفخة، بحكم السن، بوجهه الذى صار كريها ملعونا، ظهر الرئيس.

مقطب الوجه، بادى التأثر، أعلن حسنى مبارك أنه ينقل صلاحياته إلى نائبه عمر سليمان. وأنه سوف يبقى.

ارحل طويلة، مدوية، صراخ الجماهير يطغى على ما تبقى من خطاب الرئيس ، الذى توجه بحديثه إلى المتظاهرين كأب يتحدث إلى أبنائه .«مبارك الذى يؤكد أن دماء شهدائكم لن تضيع سدى. الذى يقول إنه قد وضع برنامجا لانتقال سلمى سوف يمتد حتى شهر سبتمبر نهاية فترة ولايته. مبارك الذى يكرر أنه لن يترشح مرة أخرى وأنه يتعهد بحماية الدستور للمحافظة على مصالح الشعب. الذى يرفض رفع حالة الطوارئ، مادامت الأمور لم تعد إلى الهدوء والاستقرار». مبارك الذى جازف بحياته فى ساحة القتال من أجل صالح الوطن ، يعبر عن أمله فى أن يدفن فى تراب مصر. إننى لن أقبل أبدا أى تدخلات خارجية يقول مبارك بصوت عال، رداً بشكل غير مباشر على النداءات

المطالبة بالتغيير الذى تكررت عدة مرات، خصوصًا من قبل الإدارة الأمريكية. انفجرت قصيدة ملحمية من السباب والهجاء والاحتقار، بحر متماوج من الأحذية، تشهرها، تلوح بها قبضات غاضبة ، يغمر الميدان. البركان يتميز غيظا.

الجمعة ١١ فبراير

التحرير يعانى من آثار ليلة الأمس. ثمانية عشر يوما وهو ينتظر، ثمانية عشر يوما يتمنى ، وهو يقاتل . ثمانية عشر يوما منذ سقوط أول الشهداء. هؤلاء الشباب الذين تزين صورهم الرايات التى تخفق فوق الميدان. هذه الصبية، بخصلات شعرها المتماوجة الجزلانة، التى تبتسم للعدسات بعيونها الواسعة المحملقة. هذا الشاب المبتهج ذو الكنزة الحمراء، ذلك الذى يبدو كمراهق برئ ، يحدق متسائلا أمام المصور، كلهم ماتوا فى الأيام الأولى من الثورة.

سقطوا صرعى برصاص الشرطة. دهستهم المدرعات. خنقتهم الغازات. فى ذلك الصباح من يوم الجمعة الذى يأمل الميدان أن يكون يوم «حسم» كان الميدان على وشك الانفجار. عقب خطاب مبارك ، ثارت الجماهير غاضبةً . حانقة بجنون على الرئيس الذى يتشبث بكرسيه فى يأس وعلى اللواء عمر سليمان أيضا.

ليلة الأمس، قبيل منتصف الليل، كان نائب الرئيس الذى تولى ابتداء من ذلك الوقت مقاليد الأمور، بملامحه المقطبة وشعره المشدود إلى الخلف، قد أصدر أوامره إلى الشباب بأن يعودوا إلى أعمالهم، وطلب منهم الا يشاهدوا القنوات الفضائية بعد ذلك، إيماءً منه إلى قناة الجزيرة، المتهمة بتشويه الحقائق. «استمعوا إلى ما تمليه عليكم ضمائركم» هكذا قال لهم.

كما هو الحال فى كل أيام الجمعة، عند الظهيرة، تنحنى الظهور فى ميدان التحرير لأداء صلاة الجمعة. تتجه القلوب إلى الله. لا يسألونه سوى شىء واحد: أن يرحل مبارك. من حولهم، باحترام كبير، يتدافع المسيحيون لحمايتهم. كما أقيمت قداسات فى الميدان قام المسلمون بتأمينها، وكذلك عقدت إحدى

الزيجات، لم يعد هناك مسيحى ومسلم، لم يعد هناك فرق، كلنا مصريون. كلنا ضحايا هذا النظام. كلنا نريد مستقبلا أفضل لأطفالنا. كان الرجل الذى قال هذا ملتحيا، وكان يمسك بيده يدًا موشومة على باطن معصمها صليب يميل لونه إلى الزرقة. يد أحد الأقباط. قبيل أن يتردد صوت الآذان، النداء إلى الصلاة، صدرت إشارة من الجيش، عبر الجيش عن تواجده. بلاغ عبر التليفزيون قال فيه الجيش: إنه الضامن لإجراء الإصلاحات، واعدا بانتخابات حرة نزيهة في شهر سبتمبر. أمام القصر الرئاسى، فى مصر الجديدة، يقترب عدة آلاف من المتظاهرين.

منذ البارحة، عززت الدبابات من وجودها. غير بعيد، أمام المنصة التى اغتُيل فيها الرئيس السادات، أمام نصب الجندى المجهول، تمركزت نحو أربعين مدرعة.

وتجرى الشائعة. سوف يرحل الرئيس. طائرا إلى شرم الشيخ، فى جنوب سيناء، فى هذه الفيلا الكبيرة، المختفية خلف أشجار الجهنمية ، حيث يحب أن يقيم عادة لفترات مختلفة طوال السنة. تصحبه زوجته سوزان، نجلاه علاء وجمال وأسرتهما. تدق التليفونات بجنون، لاأحد يستطيع أن يجزم بحقيقة الخبر، ينسل النهار فى سويعات مضطربة محمومة، فى آمال سرعان ما تخبو. فى السادسة بعد الظهر، تنفرج شاشات التليفزيون المصرى، من جديد، عن وجه عمر سليمان المقطب الحزين:

«بسم الله الرحمن الرحيم» ـ رمادى الشارب، شاحب اللون قائما أمام الميكروفون، بدأ الرجل فى الحديث ـ «نظرا للظروف الصعبة التى يمر بها الوطن قرر الرئيس محمد حسنى مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد» .

ثلاثون ثانية، لم يستغرق الخطاب سوى ثلاثين ثانية تراءت مصر خلالها غير مصدقة لما يجرى. ثلاثون ثانية كانت كافية لتتحول القاهرة إلى محيط هادر من

الأعلام، أمواج متلاطمة من الأسود و الأبيض والأحمر تتضارب فوق المدينة. ثلاثون ثانية لتنفتح أخيرا عيون السد أمام ثلاثين عاما من الأماني المخنوقة، ثلاثين عاما من الاستبداد، ثلاثين عاما طويلة كأنها الأبد. في كل أنحاء مصر، من رمال الواحات إلى الحقول الخضراء في الدلتا، من تراب الأحياء الفقيرة إلى أبهة الصالونات الراقية، يرتفع هتاف يفوق التصور «تحيا مصر، تحيا مصر !» . مصر تغني، تصرخ، ترقص تثمل بحرية ربما تبدو موغلة في الأوهام، وهي التي حرمت منها زمنا طويلا للغاية.

لم تعد الشوارع سوى صرخة واحدة: « لقد انتصر الشعب، انتهى الأمر (خلاص)!» لقد رحل الرئيس..

فجر التغيير

الشعب يريد إسقاط النظام

موجة من موجات القاع، غير مرئية، غير متوقعة، تلك التى اجتاحت فى طريقها كل شىء. بركان الثورة الذى هز مصر فى الخامس والعشرين من يناير فاجأ أعظم المحللين.

فى منتصف يناير، بينما تونس تشتعل، تحولت الأنظار إلى القاهرة، لكن دونما قلق مبالغ فيه. الكل يردد بعناد وإصرار نفس الكلام المخادع وكأنه قانون: مصر ليست تونس، مبارك ليس ابن على.

بالتأكيد، هناك هذه الأربعون بالمائة من المصريين الذين يلامسون حد الفقر من هذه الخمسين بالمائة من الشباب العاطلين، خصوصًا من حاملى الشهادات العلمية. هذا النظام القائم على الفساد، والمحسوبية، والظلم .

الإثراء الظالم لشلة رجال الأعمال، بينما تعانى أمة بكاملها. انعدام الثقة فى مؤسسات الدولة وقوانينها. البحث عن هوية أمة، تمتعت بالمجد فى سابق عهدها، اليوم محل سخرية بقية العالم العربى. هذا الرئيس الممسك بزمام السلطة منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، والذى يتشبث بها، والذى يعد ابنه كى يخلفه. وهذه الكتلة الحرجة، الخمسة وستون بالمائة من المصريين الذين لم تتخط أعمارهم الثلاثين عاما، يشعرون بالمرارة، والغضب، ومنهكون، ومستنزفون من قبل الأوان.

«إنها مصر»، تتفق ردود البسطاء، الذين يندهشون من أن أرض النيل لم تكن قد اهتزت بالفعل.

لزمن طويل، تعلق كل شيء في مصر بكلمة واحده. معلهش. لفظة أساسية في كلام المصريين، مرادف، في الوقت نفسه لمعانٍ مثل « لا تحزن » «ليس الأمر بهذه الخطورة»، «حظ أوفر في المرة القادمة»، «لا بأس»، مختومة بالقدرية، قابلة للاستخدام في كل الأغراض، أكثرها تفاهة مثل أكثرها أهمية، متناثرة في كل الحوارات.

مع هذا، كان الكل هنا.

دون أن يجرؤ أحد على أن يصدق ما يجري.

وكلهم، أو تقريبا كلهم، مازالوا هنا.

القاهرة.. ديسمبر ٢٠١٠

كان الهواء، ثقيلا، لزجا، ملوثا، مشبعا بدُخان المحركات المائل للزرقة المنبعث من أبخرة البنزين. على طريق الكورنيش الممتد بمحاذاة مياه النيل الداكنة، بالخمسة في آن واحد، كانت السيارات تمارس سباقات التعرج، تتوقف، تتصادم، وتنطلق من جديد، في عرض أكروبات جُهنمي.

إنها السادسة مساءً تقريبا. يعود القاهريون الذين خرجوا من أعمالهم لقضاء حوائجهم إلى منازلهم. يسقط المغيب على العاصمة المصرية، كأنه غبار رمادي. قامت المحلات من قبل بتلميع واجهاتها الزجاجية، تتلألأ بوتيكات بيع التليفونات المحمولة بعروض الترويج. تتابع ورش إصلاح إطارات السيارات، الصيدليات وتوكيلات السيارات. على الأرصفة تتلاقى الأشباح، جلابية أو بنطلونًا، في رقصة بالية عصبية.

مرتان في كل يوم، خلف عجلة قيادة سيارتها الكورية الصغيرة، تصعد دينا وتهبط هذا اللسان الأسفلتي الطويل الذي يعبره المشاة، مضحين بأرواحهم، في

خطوات متسابقة، يتعارجون بين السيارات حتى يتمكنوا من الوصول إلى الرصيف المقابل « هيه، لتفكر مرتين، مجرد يوم آخر لى و لك فى الجنة... » يخشش راديو السيارة. على محطة نجوم FM واحدة من أوليات محطات الإذاعة المصرية الخاصة، يذاع مزيج لأغنية «فيل كولنيز» الشهيرة، تمر المقاطع العربية متهكمة من الانفجار السكانى والبطالة ....

«بعد قليل سوف نصبح مائة مليون، هل تتخيل قليلا كيف ستكون هذه الجنة».

دينا تدندن ممسكة بعجلة القيادة .

تحت القلوب المصنوعة من القطيفة، المكدسة على رف السيارة الخلفى، كانت دينا قد ألقت بحقيبة يدها على المقعد.

فى عام ١٩٨٢، ولدت دينا، وفى العام الذى سبقه جرى اغتيال أنور السادات على يد فدائى إسلامى، وحل محله نائبه حسنى مبارك.

مثل أكثر من نصف المصريين، لم تعرف دينا أى رئيس آخر على الإطلاق، غير هذا الرئيس، الذى يطل على الناس من اللوحات واللافتات الهائلة المثبتة على جوانب كل الطرق فى مصر، فى شبابه الأبدى، بشعره الأسود ونظارات الطيارين الشمسية.

«هيه .. فلتفكر مرتين ...».

تراكم الأرقام يصيب المرء بالدوار. عندما ولدت دينا، كان هناك أربعة وأربعون مليونا من السكان فى مصر، بعدها بـ ٣٠ عامًا، فى ٢٠١٠، صاروا الضعف تقريبا، أربعة وثمانين مليونا وفى ٢٠٥٠، سوف يكون هناك مائة وخمسون مليون نسمة، بمعدل مواليد عاد مرة أخرى إلى التزايد. تضم العاصمة وحدها الآن مابين خمسة عشر وثمانية عشر مليونا من السكان وربما عشرين مليونا، لا يدرى أحد.

يتكدس بقية المصريين فى تلك الخمسة بالمائة من الأراضى الصالحة للسكن والزراعة. شريط طويل ولكنه ضيق من الأراضى التى تمتد بطول النيل ثم ينفتح فى دلتاه. هنا حيث ينهش التمدين المتسارع الأراضى النادرة القابلة للزراعة. الخطر السكانى: هذه هى الآفة التى تنخر فى مصر. مبارك يكرر هذا دائما أمام شعبه. دون أن يلزم الدولة مع ذلك بسياسة حقيقية للتخطيط السكانى، كانت سوف تصطدم، فى جميع الأحوال، بالاعتبارات الدينية.

أمام محطة خدمة السيارات التى تميز مفارق الطرق باتجاه أحد الطرق الدائرية،التى من المفترض أن تقلل من اختناق حركة المرور بالعاصمة، كانت السيارات تراوح أماكنها تحت أصوات أبواق السيارات الحانقة، عربة محملة بالبرتقال. يجرها حمار معوج الأرجل، تترجرج ببطء ناحية الطريق السريع.

هذا الصباح، عندما وصلت إلى مقر شركة التصدير والاستيراد التى تعمل بها كمحاسبة، كانت دينا قد ألقت بالكاد نظرة على الجريدة الموضوعة بالقرب من مكتب عاملة التليفون. «خمسون ألف وظيفة، سيتم توفيرها من أجل شباب الخريجين»، الوعد الحكومى الموجود على الصفحة الأولى من جريدة الأهرام، جريدة يومية مصرية رصينة ومحترمة، لم يستطع حتى أن يلفت انتباهها

هل لا تزال تقرأ الصحف ؟

فى الحقيقة لا، ليس لديها الوقت. ولا الرغبة. فى المساء، فى نهاية الأسبوع، تكون أمام التليفزيون. قناة الجزيرة من أجل متابعة الأخبار، وقناة دريم، على وجه الخصوص، لمشاهدة الأفلام، الكليبات الموسيقية، حلقات مسلسل Desperate Housewives ربات بيوت يائسات وبعض المسلسلات الدينية.

السياسة ؟ ترفع دينا حاجبيها بشىء من اللامبالاة، بشىء من القدرية، بشىء من السخرية تقسم بأنها لا تعرف عنها الكثير.

وهؤلاء الموجودون فى الحكم، حتى إذا لم يكونوا مثاليين فهم يعرفون بالتأكيد أفضل منها.

ثم، ماذا تريد يا أخى ؟ ما البديل عن هذا ؟

انحراف مفاجئ لتفادى السيدة ذات الخمار الأزرق التى تقدمت إلى وسط الطريق، ممسكة بيد ابنها.

آه تلك السيارات ... منذ نحو عشر سنوات لم تكن بهذا القدر. لكن بفضل تخفيض الضرائب على السيارات المستوردة ، ووصول الطرازات الآسيوية معقولة الأسعار وزيادة البيع بالتقسيط تشجيعا للاستهلاك؛ تزايدت أعداد السيارات فجأة بشكل هائل. والسيارات العتيقة المتحشرجة، بمقابض أبوابها المحطمة والمحاطة بأسلاك الحديد والمعالجة بالمواد اللاصقة، بدأت فى الاختفاء، هنا وهناك، توجد بعض سيارات «نصر» القديمة، النموذج المحلى من فيات ١٢٨ لا تزال شاهدةً على آخر إنتاج محلى للسيارات فى مصر. عهد قديم صار منذ الآن أثراً بعد عين.

نظرة خاطفة على دورية الشرطة للتأكد من عدم وجود أى شرطى قد يحرر لها مخالفة. تخفض صوت مذياع السيارة حتى تجيب عن هاتفها المحمول الذى يواصل الرنين. جزء من أغنية المطربة (lady Gaga وهى مغنية بوب أمريكية معاصرة ـ المترجم) حتى تسترد لياقتها قبل أن تسترخى أخيرا فى المنزل، وجبة سريعة أمام التليفزيون، أعدتها الأم، بعض الخضراوات المطهوة بالفرن، شىء من المكرونة ولحم الدجاج.

فى عمر الثلاثين، عندما يكون المرء أعزب فى مصر، فإنه يعيش دائما فى مسكن والديه.

دينا، كانت تود أن تتزوج. لكن الفتى الذى كان يروقها لم يقنع والديها تماما. كانا متحفظين أمام موارده المالية المحدودة. بالتأكيد كان شخصا لطيفا، نعم، كان حسن التربية، نعم ، لكن هل كان قادرا بالفعل على الوفاء بالشروط الموضوعة للزواج، مسكن الزوجية الذى يجب شراؤه، تأثيثه، تجهيزه ؟عائق مادى غالبا ما يتدخل فيؤخر من سن الزواج، بالنسبة إلى الشباب فى أوساط الرجال، فى

الأماكن الحضرية، ليس من النادر الانتظار حتى سن الثلاثين، بل أكثر من ذلك. حتى يمكنهم التزوج فى نهاية الأمر. مسيرة نضال، قد تشهد أحيانا زواجا يتم إجهاضه بسبب هوائى القنوات الفضائية أو جهاز حاسب آلى فى جهاز العروس.

الحال، أن دينا قد استسلمت، واستمرت تحلم بملاقاة توءم الروح، مثلها مثل الكثير من الشباب المصريين، على صفحات فيسبوك أو غيرها من صفحات الانترنت ، مع دوامها ، من وقت لآخر، على مقابلة راغبى الزواج الذين تَجدّ خالاتها وعماتها أوصديقات أمها فى تقديمهم إليها. دون الحديث عن صديقاتها الشخصيات، اللاتى تزوجن كلهن منذ زمن بعيد. ولو أنه فى سن الثلاثين؛ يهمس لها البعض، ليس من الجيد بالنسبة إلى المرأة أن تبقى وحيدة بلا زواج ....

شقيقها البكر، ياسر قد تزوج. وولدت له ثلاثة من العفاريت المبتهجة الضاحكة التى أدخلهم هذا المهندس الذى يعمل فى إحدى شركات البترول، التعليم الخاص. أما المدارس العامة، بفترتى الدراسة فيها، صباحا ومساءً، لتعويض نقص الأماكن ، بمدرسيها هزيلى المرتبات ، بمناهجها المتسرعة، فلا يريد ياسر حتى مجرد الحديث عنها حسنا، إنه يفضل أن يستنزف أمواله. حوالى عشرة آلاف يورو تلتهمها سنويا تكاليف مدارس الصغار. عندما يربح المرء ألفًا وثلاثمائة يورو شهريا ـ يعترف ياسر بأنه راتب ممتاز لا يتبقى فى نهاية الأمر شىء يذُكر. على كل حال، ليس ما يكفى لشراء الشقة التى يحلم بها، قريبة من المدينة، فى واحدة من تلك المنتجعات التابعة لها من ذوات الأسماء الخلابة بالم هيلز، دريم بارك، مع الحديقة الصغيرة الملحقة بها أسفل المسكن.

ما شاء الله، والحمد لله، فللعائلة بعض الإيرادات الأخرى، بفضل ريع الأرض التى تمتلكها فى بنى سويف، بيت مصر الريفى، التى تبعد حوالى مائة كيلو متر من العاصمة على مشارف الصعيد.

غير أن ياسر عندما صار فى الخامسة والثلاثين من عمره، كان قد تخلى مؤقتا عن معظم أحلامه. ربما تبقى منها حلم واحد، أن يحصل على توكيل

إحدى سلاسل بيع الأطعمة السريعة الكبرى، أن يبيع شطائر الهامبرجر على بوابة إحدى الجامعات الخاصة « أن تحصل على النقود ، هناك ، حيثما توجد، أفضل لك من التململ ومراوحة المكان فى سلك وظيفى يبدو مسدود الأفق لأنك لا تملك الواسطة».

الواسطة. السلاح الخفى الذى لا يمكن الاستغناء عنه فى نفس الوقت. الحصول على وظيفة ؟ واسطة. إجراء إدارى عاجل ؟ الواسطة أيضا. هل تريد تسجيل اسم ابنك فى مدرسة خاصة ؟ الواسطة دائما. القائمة طويلة .. طويلة بقدر طول قائمة قرينها الآخر، البقشيش. من عدة قروش إلى آلاف الجنيهات، فى كل مكان، عكاز اقتصاد ينتقل من النظام السوفيتى (الاشتراكى) إلى نظام السوق، مكمل حتمى لرواتب لا علاقة لها بحقيقة الأسعار . فى خريف ٢٠٠٥، صوت البرلمان لصالح زيادة الحد الأدنى للأجور، المتوقف عند حد خمسة وثلاثين جنيها شهريا ، بالكاد خمسة يورو، منذ خمسة وعشرين عاما. غير أن الحكومة، متخوفة من وقع مثل هذا الإجراء على الوظائف العامة المكتظة، كانت قد رفضت أن تتخطى حاجز الأربعمائة جنيه، أعلى من حد الفقر بالكاد ، فى نفس الوقت كان ثمن الكيلوجرام من لحم الدجاج يفوق الأربعين جنيها، أما لحم البقر فيساوى الضعف تقريبا.

فى الحقيقة، لم يكن هناك ما يبعث على الأحلام. مع هذا ، كانت الصحف، بطول أعمدتها، تقول إن اقتصاد البلاد يتعافى، يمضى قدما، وعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية، التى عصفت بكوكب الأرض، واستنزفت كثير من الكيانات الاقتصادية العظمى، فإن المؤشرات المصرية، وحدها، لم تتجاوز الخطوط الحمراء، معدل النمو الذى كان يقترب من الثمانية بالمائة، قبل أزمة الكبار، ظل إيجابيا إلى حد بعيد، ما يقارب الستة بالمائة فى نهاية عام ٢٠١٠، مطمئنا إلى صلابة الاقتصاد المصرى، بعد تقهقره الصعب فى بداية الألفية الثالثة كان الرئيس حسنى مبارك قد اعتمد، خلال خطابه الافتتاحى أمام البرلمان الجديد، على عودة سريعة لمعدل النمو الاقتصادى خلال فترة ما قبل الأزمة، خصوصًا

بفضل زيادة الاستثمارات الأجنبية. توقعات وصفها الخبراء بالمتفائلة. غير أن ذلك كان أمرا لابد منه ، لأن الاقتصاد المصرى قد أظهر أنه غير قادر على خلق ما يكفى من فرص العمل، إذا كان معدل النمو يقل عن ستة بالمائة، لامتصاص العدد المتزايد بلا توقف للقادمين الجدد إلى سوق العمل. تبعا لـ campas الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء، فإن سبعة وأربعين بالمائة من السكان، مابين ٢٠ إلى ٢٤ سنة يعانون من البطالة، دينا تعرف عن هذا الأمر شيئا. فعند تخرجها فى الجامعة ظلت بلا عمل لمدة سنتين.

مثل دينا، كان غالبية المصريين لا يرون آثار هذه الانفراجة الاقتصادية؛ على الرغم من أن الحزب الوطنى الديمقراطى التابع لحسنى مبارك ، كان ومنذ عدة سنوات، يؤكد أنه قد جعل من إعادة توزيع ثمار التنمية أولويته المطلقة. لكن، حسبما يرى البنك الدولى، فلا يزال من الواجب علينا أن ننتظر زمنا طويلا، وربما جيلاً بأكمله، حتى يشعر أكثر المصريين فقرا بمزايا ذلك.

فى أكتوبر ٢٠١٠، تعليقا على تقرير اقتصادى متملق للغاية لـ Standard Chartered Bank يضع مصر ضمن نمور الشرق الأوسط الاقتصادية ، قالت الصحافية هبة صالح بمرارة : « إننا لا نطعم الناس بالمؤشرات الاقتصادية.» ، لأن عجز الموازنة العامة، والبطالة، والتضخم الرهيب .. كلها ظلت على حالها.

التضخم ... وتلك الأسعار التى لا تكف عن التحليق، منذ عام ٢٠٠٧، رقصة الفالس الدائمة التى تقوم بها بطاقات الأسعار . فى يوم الجمعة عندما تجتمع أسرة ياسر ودينا بكامل هيئتها ، يَنصب عليه سخطها، ارتفاع أسعار الحليب أو الطماطم المجنونة كما كانت صحافة القاهرة تصفها خلال صيف ٢٠١٠، مذهولة وهى ترى سعر الكيلو جرام يتخطى حاجز العشرة جنيهات ، الباهظ جداً ، بينما كانت تساوى ربع هذا الثمن من قبل عدة سنوات قليلة.

فى عام ٢٠٠٨، كان الخبز المُدعم، المكون الرئيسى فى طعام الفقراء، قد تعرض للنقص فى الأسواق، نتيجة الارتفاع الشديد فى الأسعار العالمية للمواد

الزراعية، بل أيضا ضحية للمضاربين، الذين كانوا يفضلون إعادة بيع الدقيق فى السوق السوداء بأسعار مرتفعة.

موجة من الذعر تنتاب مصر، يسقط خمسة عشر شخصا على الأقل قتلى من جراء التزاحم أمام الأفران. صدمة عنيفة، ضربة موجعة فى هذا البلد الذى يسمى الخبز « عيشا» أى حياة، والذى مازال يحمل ذكرى انتفاضة الخبز العنيفة فى عام ١٩٧٧ . كانت الاستعانة بالجيش ومخابزه، هى ما وضعت، وحدها، حدا لهذه الأزمة، غير أن صورة الحكومة قد خرجت منها أكثر قتامة واهتزازا مما كانت.

فى منزل دينا، عندما تمتد الصحون، المتحلقة حول المائدة، نحو إناء الملوخية الذى يتصاعد منه البخار ، ذلك الحساء التقليدى الدبق الأخضر، المُطعم بالثوم، يعلق الجميع على الأحداث الراهنة فى حدة وجفاء يندد الجميع بسيطرة « شلة الفاسدين» يعربون عن سخطهم من انقطاعات المياه المستمرة فى بعض الأحياء الفقيرة حتى يتم رى مسطحات الخضرة فى ملاعب الجولف القريبة، وعن عدم رضاهم عن التدليس لصالح رجال الأعمال المقربين من النظام، الذين منحتهم الحكومة مساحات شاسعة من الأراضى بأسعار زهيدة ليقيموا عليها منتجعات فاخرة، بينما يتكدس المزيد من المصريين فيما يشبه مدائن الصفيح.

ومع هذا، فعندما تدور دفة النقاش نحو الرئيس، فإن والد دينا، لا يلبث، بإشارة من يده المرفوعة، أن يعيد الحديث إلى سابق مجراه.

- حسنى مبارك، يعنى، على أى حال، ليس مثلهم، بفضله، لم ندخل حربا منذ ثلاثين عاما، إنكم لا تدركون معنى هذا، المحافظة على سلامة الوطن أمر لا يقدر بثمن.

تحت المائدة ، يؤرجح رامز ساقيه، إنه يسمع نفس هذا الحديث فى منزله أيضا. آه من السياسة ... الشىء الوحيد الذى يشغل هذا الشاب السكندرى ذو

الاثنين والعشرين ربيعا، هو شهادته الدراسية التى سوف يحصل عليها فى غضون الأشهر القليلة القادمة. المفتاح السحرى الذى ينتظره ليقوم بتدريس اللغة الفرنسية فى إحدى المدارس الخاصة. واحد من أقرب أصدقائه يقوم بهذا فعلا، وهذا ما يضمن، حسب ما يقول الصديق، أن يحصل على ألفين أو ثلاثة آلاف جنيها فى كل شهر، وظيفة رائعة، بلا شك، حتى وإن كان لابد من الواسطة، كما هو الحال فى أى مجال آخر، حتى يكون له الحظ فى أن ينالها. الواسطة، لا يعرف رامز طريقا لها، غير أنه لا ييأس. نظرا لأن له مشروعاته الخاصة: سوف يتزوج، بمجرد أن يحصل على الوظيفة، سوف ينجب أطفالا، لقد وضع خططه بالفعل؛ سوف يكون له ثلاثة من الأطفال على الأقل.

- سيكون من الواجب أن يساعدنى أحد، عندما يحين موعد التقاعد.

منذ عدة أسابيع، جالسا على حافة الأريكة، ذات المساند الذهبية حائلة اللون التى تتصدر الصالون العائلى، كان لرامز نقاش مع والده، المتقاعد بعد انتهاء عمله فى إحدى شركات التأمين الصغيرة.

لقد كنت أربح نقودا أقل منك، لكن قدرتى الشرائية كانت أكبر، خصوصا، أننى عندما كنت فى مثل عمرك يا بنى، كنت أحظى براحة البال، لم أكن أخشى ما يمكن أن يحمله المستقبل.

توقف الرجل العجوز عن الحديث، ثم أردف، بصوت متهدج قليلا:

من الصعب علينا كآباء أن نعترف بأن أبناءنا سوف يعيشون حياة أكثر عناءً من حياتنا ، بينما كنا قد بذلنا كل ما فى وسعنا حتى يحدث العكس.

أحياناً تأخذ الأحلام برامز ، بمجرد الحصول على شىء من النقود، سوف يذهب إلى شرم الشيخ. الشواطئ. الفتيات، لقد سمع ذلك من محمد، جار والديه فى الإسكندرية، الذى سافر إلى شرم حتى يكسب عيشه هناك ، خلف أحد المكاتب ، فى أحد الفنادق الكبرى. يتساءل رامز: ألم يكن من الأولى أن يختار مجال السياحة بدلا من التدريس ؟ السياحة، قيمة مؤكدة ومستقبل مضمون. هكذا يعتقد.

فى الغرب، كما يعلم رامز، يعرف الجميع مدينة شرم الشيخ. لكن فى مصر، فإن أحدا لا يذهب إليها. أو على الأقل ليس الكثير من الناس. فضلاً عن أن تكون لهم إمكانية القيام بذلك. باهظة جداً بالنسبة إلى معظم المصريين، إلا إن كانوا من أهل الصفوة. ثم إن هناك نقاط التفتيش، منتشرة على طول الطريق، أماكن التحقق من الهوية ، حيث يتعطل الأجانب قليلا، بينما يتم التمعن فى أوراق المصريين و اعتصارهم بين أيدى ضباط الشرطة، الجاثمين تحت مظلاتهم ، ينضحون عرقا تحت لهيب القيظ. يكفى أن تكون قد تواجدت يوما ما فى المكان الخطأ، فى الوقت الخطأ حتى يجرى تفتيشك ثم تسجيلك من قبل أمن الدولة وتطرد من جنة شرم الشيخ.

الجماهير غفيرة، متراصة، متلاصقة على أرصفة المشارب، ملتصقون بواجهات المحلات الزجاجية، مزروعون بعضهم إلى جوار البعض فى خط يبدو بلا نهاية.

روس، إيطاليون ، بولنديون ،إنجليز ، فرنسيون ....

أوربا مصغرة تسير جنبا إلى جنب، أوروبا محترقة الأكتاف بفعل الشمس، مزدانة بوشوم الحناء. فى مارينا شرم الشيخ، فى ذلك المساء من شهر مايو، كانت الموسيقى شديدة الصخب، تكاد تصيب بالصمم. لقد أبطأ المصريون كثيرا فى الوصول إلى تلك الجنة البحرية ، التى تملؤها اليوم المبانى الخرسانية لتلك المجمعات الفندقية الشاسعة. وظلت سيناء التى أعادتها إسرائيل إلى مصر بعد معاهدة كامب ديفيد، لفترة طويلة أرضا عذراء، أو هكذا كانت تقريبا. أما فورة الرواج السياحى الكبير فقد حدثت فى منتصف التسعينيات.

فى ذلك الحين، بينما كان إرهاب الجماعات الإسلامية يجتاح الجزء القارئ من مصر، ظلت سيناء بمنأى عن ذلك. كانت القيعان البحرية، المحفوظة من هجمات السياح التترية، استثنائية الجمال. مابين السويس وشرم الشيخ، على

طرف شبه الجزيرة الصحراوية، يستعرض البحر، الذى يمكن رؤيته عبر الطريق الساحلى، انعكاسات تركوازية وبنفسجية، على خلفية من الجبال المدرجة الحمراء. بعد ذلك بخمسة عشر عاما، صارت سيناء واحدة من أهم المقاصد السياحية؛ وأكثرها قيمة فى العالم. نجاح كبير ينسب إلى حسنى مبارك، الذى كرر فى شرم الشيخ تجربة مدينة Can Cun المكسيكية: بمضاعفة أعداد مؤتمرات القمة المقامة على أرضها ، سواء التى كانت تتناول قضايا السلام أو مكافحة الإرهاب ، داعيا إلى جواره أهم شخصيات هذا العالم، من بيل كلينتون إلى كوفى عنان. واتخذ مبارك لنفسه من أحد أجمل خلجان هذه المحطة البحرية ، واحداً من منتجعاته الأثيرة. ولا عزاء أمام الخرسانات التى تجتاح الساحل كيفما اتفق أو للإفقار المروع فى كائنات البيئة البحرية من نباتات وحيوانات وشعب مرجانية ، الوجه المظلم لهذا النجاح السياحى غير العادى.

فى قاعة استقبال واحد من المجمعات الفندقية العديدة فى شرم الشيخ، يدور محمد حول نفسه، ابتسامة سرمدية معلقة على شفتيه، يمد يده بإيصال، يحدق بشاشة الحجوزات، يصور جوازات السفر، يستجيب لكل طلبات النزلاء، يتبادل فكاهة مع مصطاف هولندى، يصرخ على أحد الموظفين. فى الثلاثين من عمره، يتقاضى محمد مائة وخمسين يورو شهريا. أحيانا تكون ساعات العمل، الطويلة جداً، مرهقة، فيتصاعد فى جوفه الأسى.

- إننى أتحدث أربع لغات بطلاقة. حصلت على ماجستير فى التنمية السياحية، أقوم يوميا بتأمين راحة عدة مئات من النزلاء، الذين ينفقون فى أسبوع واحد ما أجنيه فى عدة شهور. لكن بلا واسطة، من المستحيل أن تتطور الأمور نحو راتب محترم يمكنى من مواجهة الحياة بلا قلق.

صاعداً الممشى الذى يفضى إلى المبنى الرئيسى، المغطى بأشجار الجهنمية، كان محمد يلتفت، يدور برأسه، يتحقق من أن أحدا من مسئولى الفندق لا يتسكع فى الجوار. عقد العمل ينص، وبأحرف سوداء كبيرة على أنه: ممنوع عليه إبداء الشكوى أو إظهار التأفف لدى النزلاء أو تشويه صورة مصر فى أعينهم.

فى مدينة الإسكندرية، مسقط رأسه، ترك محمد خطيبته. شابة من نفس الحى، موظفة بقطاع البنوك، هنا فى شرم الشيخ، ليس لديها الكثير من الحظ فى الحصول على عمل مماثل. بناء عليه، يواصل محمد حياته وحيدا حتى يتمكن من ادخار ما يكفى من النقود لشراء شقة، وأن يزودها بالأثاث وبالأجهزة الكهربائية، مرحلة إجبارية عليه أن يقطعها إذا كان ينوى إتمام زواجه.

لكن بعد ذلك، سوف يكون عليه أن يغادر شرم الشيخ.

- حتى لو كانت خطيبتى غير مقيدة بعملها ، فلن تكون هنا على طبيعتها ، هنا مع هؤلاء السائحين والبكينى ، و.... الخمور.

بحركة ساهية، التقط محمد غصنا مزهرا، فوشيا صارخة اللون.

- وإن رزقنا بأطفال .... ، إننى لا أريد لهم أن يكبروا وسط مناظر خادعة، كما هو الحال هنا، كل هذا محض زيف، حلم مصنوع من أجل السائحين، سهرات النوادى الليلية، الاحتفالات .... يجب ألا تعتقد أن هذه هى مصر.

صمت

الحياة الحقيقية، حياته، ليست وردية بهذا الشكل. إنها .. رمادية.

رمادية حياته، رمادية كعوادم السيارات. محمد لم يعد يحتمل هذه الغازات. إنه يعيش فى بشتيل. لكى يصل إليها ابتداءً من وسط القاهرة، على أن يواصل أكثر من ساعة، فى مشوارين داخل ميكروباصات مكتظة. فى نهاية الخط، تنتظر التكاتك .... ، تلك الدراجات المزودة بمحركات، المستوردة من الهند والتى اجتاحت الريف المصرى خلال السنوات الماضية. عشرون دقيقة فى المقعد الخلفى من هذه المركبات التى تحمل ثلاثة من الأشخاص، تتقاذفه مطبات الشوارع غير الممهدة ، بعد ذلك شىء من السير على الأقدام، قبل أن يصل إلى البيت.

هذا المكان يسمى «عشوائى» حى غير مخطط. وفق ما يرى السياسيون، حتى لا نرتطم بالحقيقة، شىء مابين مدينة الصفيح، والقرية المهجع. فى هذه البنايات التى تنتصب منها أسياخ حديد التسليح، المشيدة دونما تراخيص، بلا وجه حق فوق الأراضى الزراعية، تبدو الثقوب فى واجهاتها المبنية بقوالب الطوب الأحمر. الشوارع ضيقة، تسمح بالكاد بمرور سيارة واحدة أو عربة توزيع أنابيب البوتاجاز. على الأرض تجرى قناة للصرف، تلقى بمياهها المتسخة، بعد مسافة قصيرة، فى الترعة المجاورة.

سواء كان هناك على مشارف القاهرة، أو فى بعض قرى دلتا النيل، فإن الماء الجارى، على أى حال، يعتبر سلعة نادرة.

تبعا لإحصائية عام ٢٠٠٦، فإن ٦٥٪ فقط من البيوت تحوى صنبورا، رقم ينخفض كثيرا فى المناطق الريفية. هناك لا يستطيع السكان الاعتماد إلا على توزيع المياه الذى تؤمنه من حين لآخر عربات صهاريج نقل المياه ، مياه الترع أو الآبار الآسنة، غالباً ما تكون مصابة بالعدوى من جراء تلوث طبقة المياه الجوفية. دوسنتاريا، تيفويد، بلهارسيا أو التهاب الكبدى، كما يرى الجغرافى حبيب عايب، فإن العواقب وخيمة: «أكثر من ربع حالات وفيات الأطفال تسببها بشكل مباشر المياه الملوثة»

ـ الحمد لله ! ، أطفالى على خير ما يرام ، زوجتى تتمتع بصحة طيبة ، لدى عمل ، لدى سقف آوى إليه.

رفع محمد راحتيه إلى السماء ، شكرا ، كما لو كان يتعوذ من الأعين الشريرة.

ثلاثون عاما بالكاد، وهاهو ذا المعلم الشاب يشعر، كما يقول، بخيبة أمل. مع أن محمدا قطع شوطا طويلا بعيدا عن مسقط رأسه.

فى قريته الصغيرة جدا فى صعيد مصر، ليس هناك الكثير ممن حصلوا مثله على شهادة عليا، من بين أشقائه وشقيقاته الخمس، كان محمد هو الوحيد الذى التحق بالجامعة ، أشقاؤه ، الأصغر منه سناً، ظلوا فى القرية يزرعون القمح

والخضار على بعض الأفدنة التى ورثوها عن أبيهم. البنات، تزوجن من أبناء عمومتهن. أما محمد فقد واصل حتى الثانوية العامة، المدرسة فى الصباح والحقل فى المساء، ثم أكمل دراسة اللغة. اليوم، يقوم بالتدريس فى إحدى المدارس العامة. راتبه يعادل الأربعين يورو، يكمله محمد من خلال الدروس الخصوصية ، التى يقدمها فى المساء للتلاميذ الذين يمتلك ذووهم القدرة على الدفع، وأحيانا يقوم بذلك فى نفس الفصل الذى يعمل به، وتقريبا مع نفس العدد من الأطفال على المقاعد فى أيام الدراسة العادية.

محنة أسرية، هذه الدروس الخصوصية. فى كثير من المدارس، لا يقوم المدرسون حتى بتدريس مناهجهم. فى ظل هذه الظروف، يكون من المستحيل أن تجتاز امتحانات نهاية العام دون أن تمد يدك إلى جيبك. تلك الامتحانات القائمة تماما على الحفظ عن ظهر قلب. منذ عدة سنوات، حاولت الحكومة، على استحياء، الحد من هذه الظاهرة؛ وضعت خطة لزيادة تدريجية فى رواتب المعلمين، بشرط تخليهم عن الدروس الخصوصية. أجرى محمد حساباته: فى نهاية الأمر ، كان سوف يحصل على حوالى ثمانين يورو شهريا. النظام الحالى يجلب له ضعف ذلك.

كان ذلك قليلاً، لكنه أفضل، أفضل بكثير من القرية. فى مسكنه الصغير، وضع محمد حاسبا آليا، يتصل بالنت عن طريق أرقام الزيرو .. سبعة، تلك الأرقام التى تسمح لأى من كان بالاتصال دوليا، ابتداءً من أى خط تليفون أرضى، دون دفع الاشتراك، وبسعر مكالمة محلية. مؤخراً، زود محمد كل الحجرات بمراوح كهربائية. محمد، كان أول من استطاع شراء ثلاجة فى عائلته. حلمه ؟ أن يحمل أهله كلهم، يوما ما للسباحة على شواطئ الإسكندرية، تضربهم الأمواج. ذكرى شهر العسل، تأثير البحر الساحر.

فى انتظار الإسكندرية، مرتين فى كل عام، تكون زيارة حديقة الحيوان بالقاهرة، بذور عباد الشمس المملحة، يلوكونها أمام أقفاص الأسود، والعودة مرورا بالواجهات المضيئة لمحلات وسط البلد.

من جديد، تخفف دينا سرعتها، عالقة فى الزحام. فى الميكروباص المجاور، يلقى الركاب المكدسون نظرات متعبة عبر زجاج النوافذ. على حافة الطريق، تقوم بناية بيضاء. أمامها. لافتة هائلة. وجوه أطفال مشرقة، عيون تتلألأ بالشمس. أسفل الصورة، شعار، «حتى تطمئن على مستقبل أولادك».

بعد ذلك بشهر، فى ذات المكان، لن يكون هناك سوى الرماد. أطلال تؤجج النار فيها رياح ثورة. غير أنه خلال شهر ديسمبر هذا، كان مقر الحزب الوطنى الديمقراطى لا يزال واحدا من رموز السلطة فى مصر. بدونه لا يحدث شىء. بدونه لا يمكن أن يحدث شىء. يسيطر بمفرده على الحياة السياسية فى مصر، منذ ثلاثين عاما. الأحزاب الأخرى تعيش حالة احتضار. جماعة الإخوان المسلمين، غير معترف بها، أما ما يطيب لمحمد، دينا، محمود، وكل الشباب فى مصر، أن يعتقدوا فى وجوده، فهو غير موجود. ليس بعد.

فى ذلك المساء، فى انتظار الحفل الموسيقى بساقية الصاوى، فى حى الزمالك الراقى، كانت دينا جالسةً على أحد المقاعد إلى جوار صديقتها خديجة وشقيقها الأصغر، نور. هو الآخر، تغيظه أحوال البلد ، يتذمر من هذا النظام، يبتهل من أجل الحصول على تأشيرة، حتى يرحل خارج مصر، يجد عملا.

- أريد أن أعيش حياةً غير هذه، يقول نور، عيناه تسبحان فى الغيوم، أريد أن تكون لى أمنيات ورغبات، أن أشعر بأن الأحلام مازالت ممكنة. هنا. يخاف الناس أن يتحركوا من أماكنهم، حتى وإن كانوا لا يخاطرون بأى شىء لو فعلوا.

- وإلى أين سوف تذهب، يا حبيبى، إلى السعودية ؟ أم إلى أوربا ؟. بالنسبة إلى الأوائل ، فأنت متحرر بأكثر مما يجب ، كما أنك مسلم بأكثر مما يجب أيضا بالنسبة إلى الآخرين.

- أريد أن تتغير الأمور. هنا. أريد أن يحدث شىء جديد.

لم يعد لنور أحلام كبيرة. كان يكن إعجابًا كبيرا لمحمد البرادعى، جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٥، الذى وقف فى مواجهة إدارة بوش حيال قضية أسلحة الدمار

الشامل العراقية، والتى لم يتم العثور عليها مطلقا. والذى أمد الشباب المصرى المحبط بقوة دفع جديدة، عندما تحول إلى معارض صلب لنظام حسنى مبارك وإلى داعية إلى إقامة الديمقراطية وتحقيق العدالة الاجتماعية. مثله مثل آلاف المصريين، كان نور قد ذهب للترحيب بمحمد البرادعى، لدى عودته إلى مصر، فى فبراير ٢٠١٠، إلا أن الرجل يصيبه اليوم بخيبة الرجاء، لا يتواجد هنا أبدا. دائما فى رحلاته إلى الخارج، دون أن يفهم أحد ما هى استراتيجيته. هل يريد أن يقود حركة معارضة ؟ إلى أى حد مستعد هو للالتزام بها ؟ فى وقت ما، كان نور متعلقا به. ثم تخلى عنه، كما تخلى عن كل شىء، ما الفائدة ....

دينا، نفسها، لم تصوت قط بل إنها لم تر أحدا من معارفها، يعود متفاخرا وقد انغمست سبابته فى الحبر، دليلا على قيامه بواجبه الانتخابى. أمر يجاوز حدود العقل فى بلد يتباهى بوجود أقدم برلمانات العالم العربى على أرضه.

دينا، مثل الآخرين تشعر بالضجر، لم تعد تتعلل بالأوهام.

منذ عدة أسابيع، دعُى واحد وأربعون مليونا من المصريين إلى صناديق الاقتراع، من أجل الانتخابات التشريعية. المناخ العام ثقيل، مرهق، تخنقه القيود المفروضة على وسائل الإعلام المستقلة والقمع الموجه ضد الإخوان المسلمين، جماعة المعارضة الأساسية فى البرلمان، التى فازت بنحو عشرين بالمائة من مقاعده. لا أحد تساوره الريبة فيما ستؤول إليه نتيجة الانتخابات: فى عام ٢٠٠٧، تم تعديل الدستور لإلغاء الإشراف القضائى الذى كان يمثل حماية هزيلة ضد التزوير.

عشية الانتخابات، لا يكلف قادة الحزب الوطنى أنفسهم حتى بالمحافظة على المظاهر: يتنبئون بتراجع شديد للإخوان المسلمين وتقدم المعارضة العلمانية، رغم أن الجميع يعرف أنها سوف تكون رمزية. الأمر واضح بالنسبة إلى المصريين: الليبراليون وقوى اليسار، الذين رفضوا مقاطعة الانتخابات، كما دعاهم محمد البرادعى إلى ذلك، يمثلون غطاءً ديمقراطيا للنظام، غطاء لائقًا ومقبولاً، قبل الانتخابات الرئاسية المقرر عقدها فى سبتمبر ٢٠١١، والتى لم يعلن مبارك،

وحتى الآن، إن كان سيخوض غمارها من أجل ولاية رئاسية سادسة، من عدمه، مثيرا بذلك غضب وتساؤلات مواطنيه.

غير أن هذا السيناريو المعد جيدا سوف يتجاوز حدوده الحزب الوطنى الذى يقدم قرابة ثمانمائة مرشح للتنافس على خمسمائة وثمانية مقاعد، وسوف يحقق منذ الجولة الأولى اجتياحا كاسحا. تدخلات وتهديدات الدوائر الأمنية، الوساطة والمحسوبية بلا حدود وأيضا، حسب ما يقول المراقبون، التزوير المنهج تقريباً، عن طريق شراء أصوات الناخبين فى مراكز الاقتراع، لم يترك للمعارضة أى فرصة. المعارضة التى تقلصت إلى خمسة مقاعد وبضع عشرات من حالات الإعادة. أعلنت عن انسحابها بين الجولتين، تعبيرا عن استنكارها لهذه «المسخرة»

منفردين بالساحة، فاز أعضاء الحزب الوطنى وأهل ثقته فى نهاية الأمر بثلاثة وتسعين بالمائة من مقاعد البرلمان.

سير الانتخابات، أظهر أن تسعة أعشار المصريين الذين لم يبرحوا أماكنهم ليقوموا بالتصويت، كانوا على حق.

تنازلا وتسليما بل أيضا لأن كل شىء، بداية من التسجيل فى قوائم الناخبين، حتى الدخول إلى مكاتب الاقتراع فى يوم الانتخابات، كان قد أعد لصرف وإثناء من لا يملك دافعا قويا.

لن يكون شقيق دينا هو من يقول بعكس ذلك. فى عام ٢٠٠٥، مدفوعا بمناخ فترة ما قبل الانتخابات، الأكثر حرية، ذلك الانطباع الشائع بأن شيئا ما يمكن أن يحدث، كان ياسر قد قرر، للمرة الأولى فى حياته، القيام بواجبه كمواطن.

من هذه التجربة، لم يجن ياسر سوى المرارة والغضب.

لمرات عديدة، تردد ياسر على قسم شرطة الحى حتى يسجل اسمه فى قوائم الناخبين. أوراق ناقصة، وثائق لا يمكن العثور عليها، مسوغات جديدة.

يحاولون إصابتى باليأس، قال ياسر لأخته، كما لو كان فى إصرارى على التصويت أمرا يبعث على ريبتهم.

كانت عدة أسابيع قد مرت، قبل أن يحصل ياسر، لفرط ما قدم من تضحيات، على بطاقته الثمينة فى نهاية الأمر.

فى يوم الانتخابات، استأذن ياسر حتى يحصل على عطلة من عمله. كان نهارا بديعا مشرقا، تكتنفه الوعود والآمال. توجه ياسر إلى مكتب الاقتراع الذى حُدد له، مدرسة عامة تغطى أسوارها رسوم فرعونية. خلال أكثر من ساعة، كان ياسر يمر من مكتب إلى آخر، يتفحص السجلات، يسأل الموظفين المساعدين.

- آسف يا سيدى ، ليس هنا ...

حاول ياسر مرة أخرى، انتقل إلى مراكز اقتراع أخرى فى الحى. ثم تخلى عن الأمر، استسلم؛ أقسم أنه لن يعيد الكرة مرة أخرى أبدا.

فى الانتخابات البرلمانية عام ٢٠١٠، بمنتهى الحكمة، بقى ياسر فى منزله، مثله مثل كل شباب جيله تقريبا.

بعد شهرين فقط من ذلك، ابتداءً من ٢٥ يناير، سوف يخرج ياسر، دينا، رامز ومحمود.

من أجل المشاركة فى الثورة.

جيل الفيسبوك

Monsosh Rt @ 3 arabawy

البوليس يحاصر المتظاهرين

دعم ـ التحرير ـ ٢٥ ـ مصر

المفارقة الساخرة لا تخفى على أحد. فى بلد الهيروغليفية، كان الرمز، الإشارة المتفق عليها، هو ما أطاح بالفرعون.

أسلحتها تتكون من سبعة حروف .Twitter أو من ثمانية. Face book مناضلون يحملون أسماء .alaa @Ghonim @ travel w @يكتشف العالم وجودهم فى ٢٥يناير. غير أنهم ومنذ سنوات قليلة، كانوا بضع مئات، رسل من الفضاء الإلكترونى، يتناوبون، عبر الإنترنت، نقل أشكال غضب الشبيبة المصرية، آمالها فى تحقيق الديمقراطية، نفاد صبرها مع هذا النظام.

يتراسلون بالإنجليزية، بالعربية. ثانية بعد أخرى، ينقل هؤلاء المحررون العصريون إلى العالم، كل ما يدور فى مصر. كعالم مواز، يتجاوز وسائل الإعلام، التى تبث باستمرار نفس الصورة عن مصر.

عندما يهبط الليل، يمكننا أن نصادفهم على مقاهى وسط البلد. الحى الأثير لدى واحد من مرشديهم، الكاتب علاء الأسوانى، أحد أوائل من قاموا بتعرية غلظة النظام فى روايته الرائجة جدا «عمارة يعقوبيان» . فى هذه الرواية ، يصف الأسوانى وسط البلد الذى شيدته «النخبة القديمة فى مصر (...) ليكون الحى الأوربى فى مصر، بتميز كبير، حتى إن المرء يمكن أن يجد شوارع تشبه شوارعه فى كل العواصم الأوربية تقريبا، نفس الطراز المعمارى، نفس الآثار التى يتركها مرور الزمن. حتى فترة الستينيات، كان وسط البلد قد استمر فى الاحتفاظ بطبيعته الأوربية تماما».

بعدها بعدة سنوات، تغير وسط البلد، على الرغم من ذلك الاشتياق الحزين إلى تلك الحقبة، التى كانت القاهرة، ترى فيها نفسها « باريس» أخرى على ضفاف النيل. على الأرض، يضيع البصر وسط مبالغات الواجهات الزجاجية، مئات من محلات الأحذية، الملابس، البنوك. فى كل ساعات النهار، تكتظ الأرصفة بالعابرين، عليك أن تقفز فوق بائعى الصحف، أن تعّرج من سيرك وسط باعة الجوارب ، التجار المتجولين والمتسكعين. فى ميدان طلعت حرب، يستبد الغيظ بالسيارات، التى عليها أن تحترم إشارات المرور التى تم وضعها مؤخرا فى الشوارع. شرطى ينهر بائع شاى متجول. مجموعات صغيرة من السائحين، دليل القاهرة فى اليد، تتجول فى حذر، النظرات معلقة فى الهواء تجاه الواجهات الهوسمانية المذهلة (نسبة إلى هوسمان ـ المهندس الفرنسى الشهير ـ المترجم).

عليك أن تستدير ناحية اليمين، أن تتسلل خلف حوائط بورصة القاهرة، التى أعيد طلاؤها، حتى تحط رحالك فى هذا الشارع المرصوف بأحجار البازلت، حيث يخرج أصحاب المقاهى، حين يجن الليل، مقاعدهم البلاستيكية. هنا، فى هذا الجو المشبع بدخان الأراجيل، غالبا ما يتلاقى الجمع. هنا نرى وائل عباس، مالكوم، رامى رؤوف، شاهيناز عبد السلام، المعروفة أكثر باسم موقعها « واحدة مصرية» أو أحمد ماهر،منسق حركة ٦ إبريل هنا أيضا تلك التى يعرفها تويتر باسمها الحركى، @ Gsquare 86. عيون واسعة، شديدة الاتساع، سوداء، صافية، محملقة، مستعدة لان تصف للعالم من حولها، رجال الشرطة فى المظاهرات، ما تسمعه وتفهمه فى كل يوم. صحافة المواطنين. فى عالم الحقيقة، فإن @ Gsquare 86 تدعى جيجى إبراهيم، فى يدها جهاز بلاك بيرى، تنقر عليه باستمرار، كأنه، طبيعة ثانية لها، كل ما تراه فى مائة وأربعين حرفا. صيغة تويتر. فى الرابعة والعشرين من عمرها، نشأت فى الولايات المتحدة الأمريكية، عادت إلى مصر منذ عامين، عندما اشتعلت ثورة ٢٥ يناير، كانت هذه الشابة الحاصلة على شهادة عليا فى العلوم السياسية، المنحدرة من أصول اشتراكية

ثورية، قد صارت رمزا وشعارا للشبيبة المصرية، ولعبت دور المحرض والمحرك فى حركة التمرد، من خلال بثها للأخبار والمعلومات فى وقت حدوثها.

كل هؤلاء لا يهابون شيئا، أو لا يكادون. ثوار على شاكلة تشى جيفارا، مناضلون بجنون فى سبيل الحرية، جيل الانترنت، جيل الآفاق المفتوحة، المستعد لمواجهة السجون، وتلقى ضربات أمن الدولة بدلاً من السكوت .

قبل تويتر و فيسبوك، فى بداية الألفينيات، فى الوقت الذى اكتشفت فيه أوروبا الشبكة بكل بطء المبتدئين، كانوا هم قد رفعوا راية الثورة الرقمية. مصر، التى ظلت زمناً طويلاً، فى نقطة السكون، من طريق تطورها التكنولوجى، تمكنت من أن تبدأ وبسرعة جداً الدخول فى عصر تقنيات المعلومات الحديثة. خطوة جريئة يجب أن تنسب إلى أحمد نظيف، وزير الاتصالات القديم، قبل أن يصير رئيساً لوزراء مبارك فى عام ٢٠٠٤ الذى وجه إليه الشكر فى ثالث أيام الثورة.

عندما آلت إليه حقيبة وزارة الاتصالات فى عام ١٩٩٩، كان هذا التكنوقراط القح ، ينتمى إلى جيل وزراء الصيحة الجديدة فى مصر. موهوب علميا، دراسات بالخارج، مظهر رجل أعمال، عنيد، صاحب رؤية، قرر هذا الرجل أن يبذل كل ما لديه حتى يجعل من بلاده واحدة من البلدان الرواد عالميا فى مجال جذب الاستثمار الخارجى واللامركزية، عن طريق المؤسسات التابعة لبعض إدارتها، إدارة ما بعد البيع مثلاً، فى بلاد تكون الرواتب فيها أقل ارتفاعا. خلال بضع سنوات، عرف الإنترنت تقدما مذهلا. فى عام ٢٠٠٩، تبعا لإحصاءات الاتحاد الدولى للاتصالات، كانت مصر تضم حوالى عشرين بالمائة من المشتركين المنتظمين بالإنترنت. بمفردها ، كانت تحوى ربع رواد الإنترنت فى العالم العربى، قطاع كبير منهم لم يكن يهتم إلا بشىء واحد: السياسة.

للمرة الأولى، يجد الشباب المصرى، المحبط، منغص العيش، المكمم، متنفسا، منفذا. لم تفكر السلطات، للعجب، فى إخضاعه للمراقبة من المنبع. من وقت إلى آخر، كانت بعض المواقع الإسلامية، بشكل عام، تُعطل بصورة مؤقتة. لكن نادرا

جدا ما تعطلت مواقع المدونين. وعلى نحو أقل المدونات التى تستخدم الانجليزية. إنها لا تشكل خطرا، ممكن السيطرة عليها، نتاج عمل مجموعات صغيرة من الشباب المترف، الذى يكفيه الضرب على أطراف الأصابع، حتى يعود إلى رشده. هذا ـ ربما ـ ما كانت تظنه حينها سلطات أمن الدولة، التى تبنت أسلوب العقاب الشديد اللاحق، المستند إلى ما تسفر عنه التجربة، وذلك باعتقال المزعجين.

علاء عبد الفتاح، واحد من رواد جيل المدونين، خصلات شعر جعد أملس لمقاتل لاتينى ثائر، خدود ناتئة لمراهق شب عن الطوق، ... علاء هو ملك التحريض. مفتون بتكنولوجيا المعلومات، قوى الحجة، شديد الإحساس بذاته، لديه رغبة جامحة فى تدميرها حتى يرى بلاده وقد تغيرت فى نهاية المطاف. سليل اثنين من مناضلى اليسار المصرى، كان لدى الفتى المشاغب من يستند إليه. تعرف على زوجته منال فى أحد معسكرات الشباب الاشتراكى الصيفية، كانت حينها طفلة. منذ نهاية التسعينيات، كان علاء قد صار أحد الرواد فى مجال مواقع الاتصال الاجتماعى. أنشأ موقع manalaa الذى يكتب فيه بالإنجليزية والعربية، إنجاز حقيقى لرجل الانترنت القوى. كان هذا الموقع، الذى حظى بتكريم رابطة «صحفيون بلا حدود» هو حجر الأساس فى عالم حركة التدوين المصرية: مجمعا لشراذم المدونين، موفرا لهم موقع استضافة مجانيًا، أو مواقع آمنة للنقاشات الخاصة. فرض نفسه من حينها، كأداة لا غنى عنها، بالنسبة إلي هذا الجيل الذى يشعر بالضياع، المختنق بالحضور الطاغى لأنبياء الحركة الناصرية القدامى، المتشبثين بالأنياب والأظافر، بوضعهم شبه الحصرى باعتبارهم «النخبة المثقفة العربية».

فى عام ٢٠٠٥، مع اقتراب الانتخابات البرلمانية، تحول موقع manalaa.net وصار مركز تجمع، قاعدة سياسية حقيقية؛ يدعو من خلاله علاء المشاركين إلى تجميع القوائم الانتخابية، حتى يسهل للشباب الراغبين فى الإدلاء بأصواتهم، تسجيل أسمائهم بها، بعدها، أعد برنامجا للتظاهرات، مقترحا شعاراتها ورايتها وكذلك استراتجيات لإخراج المعارضة المصرية من عقمها العصيب. وسيلة

تكنولوجية متقدمة تتمتع بجرأة كاسحة: على موقعه، وضع علاء رسما يمثل إصبعا وسطى تنتصب باتجاه صورة لحسنى مبارك، دعابة تليق بطلاب المرحلة الثانوية، لكنها على ضفاف النيل، كانت تمثل تحديا واستفزازاً انتحارياً.

بعدها بقليل، جولة قصيرة فى زنزانة السجن: فى شهر مايو ٢٠٠٦، ألقى القبض على علاء أثناء إحدى تظاهرات التضامن مع المنادين للإصلاح فى مصر. فى الشهر الذى سبقه، كان هناك نحو أربعمائة من النشطاء الذين تم اقتيادهم إلى السجون. أما فى ذلك اليوم، فقد كانوا مجموعة هزيلة من بضع عشرات من الأشخاص الذين تجمعوا للمطالبة بالتغيير. فى مواجهتهم مئات من رجال الشرطة، متمترسين خلف دروعهم، يقطعون الطريق، مصيبين وسط القاهرة بالشلل. حدد مسئولو أمن الدولة شخص علاء عبد الفتاح فى وسط المتظاهرين. «لقد كانوا يريدونه، هو بالذات، لأن موقعه، قد صار سلاحا موجها ضد النظام» ، قال حينها واحد من الشهود.

وائل عباس، عراب آخر لجيل الفيسبوك هذا. على موقعه على الانترنت، كان وائل هو الأول الذى تجاوز فى عام ٢٠٠٧، خطا أحمر وذلك من خلال عرضه لشريط فيديو شديد القسوة، يستعرض عملية تعذيب يتعرض لها عماد الكبير، أحد سائقى الميكروباص، الذى تم هتك عرضه، بإدخال عصى فى مؤخرته، فى أحد أقسام الشرطة. كانت الفضيحة مدوية، لدرجة أنها أجبرت الحكومة المصرية على القيام بسابقة إلقاء القبض على الضباط الذين تم التعرف عليهم من خلال الصور. وائل يقوم أيضا بنشر أفلام، تم تسجيلها بواسطة الهواتف المحمولة، لأشكال العنف الذى أقدم عليه بلطجية النظام ضد المتظاهرين، الصحفيين تحت سمع وبصر الشرطة. يجمع كل الوثائق، الصور، والأدلة الممكنة على تجاوزات النظام وغلظته. يقول وائل إنه كان مطاردا باستمرار وأنه قد فقد عمله وتعرض للاعتقال والاعتداء بشكل مستمر. موقعه، الذى يعد الأكثر شعبية، يسجل يوميا مئات الآلاف من الزيارات. فى عام ٢٠٠٨، تقديرا لشجاعته، حصل وائل على جائزة منظمة Human Rights Watch .

لقد كانت هذه السنة مفصلية فى حياة حركة التدوين المصرية، وكذلك روّاد مواقع الاتصال الاجتماعى: الاحتجاج الاجتماعى يتعاظم. ارتفاع أسعار المنتجات الغذائية يصيب الناس بالدوار، التضخم يتفاقم بسرعة. وفى غياب بنية نقابية قوية، كانت الإضرابات التى تندلع فى العديد من المصانع فى مصر، لا تؤدى إلى حركة شلل واسعة. غير أن النظام يساوره القلق حيال تأثير الانترنت. تشتد أعمال الرقابة: فى مقاهى السيبر، يجب، منذ الآن فصاعدا، إبراز أوراق الهوية الشخصية. المشارب المشتركة فى النت، التى كانت تقدم لروادها دخولا مجانيا على الانترنت، غيرت من سياستها فجأةً. يجب شراء بطاقات مدفوعة سلفاً. أو تسجيل أسمائهم فى بعض المواقع، على أن يكون للشخص رقم هاتف محمول، ترسل عليه شفرات الدخول. فى مقر أمن الدولة، تم تشكيل فريق عمل خاص. مهمته: رصد ومراقبة كل مواقع المعارضة على الشبكة العنكبوتية. كان الفريق يختار أهدافه، كالمدون محمد الشرقاوى مثلا. الذى ألقى القبض عليه عام ٢٠٠٦، أثناء إحدى المظاهرات، والذى صرح عقب خروجه من محبسه بأنه قد تعرض للاغتصاب و الاعتداء البدنى من قبل مستجوبيه. أو كريم عامر، الذى حُكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بتهمة «سب الرئيس» وكذلك بسنة إضافية أخرى بتهمة «التحريض على ازدراء الإسلام» . نُسب إلى كريم قيامه بالتشهير على موقعه الاجتماعى، بالتجاوزات الاستبدادية للحكومة، وتوجيه النقد إلى أرفع المؤسسات الدينية بالبلاد. فى عام ٢٠٠٩، أدرجت منظمة «صحفيون بلا حدود» مصر، نمر الثورة الرقمية فى الشرق الأوسط، ضمن قائمة الدول المعادية للانترنت. قائمة تعسة، تتجاور فيها مصر مع بيرمانيا والصين.

سدى ما تقوم به الحكومة، لم يصمت نشطاء التدوين المصريون بسبب ذلك. بل طوروا من استخدامهم للشبكات الافتراضية، التى تحولت فى نفس الوقت إلى أسلحة ودروع. فى ذات صباح، عندما لمحت المدونة داليا زيادة، مجموعة من الرجال، يتسكعون أسفل البناية التى تعمل بها، أحست من هيئتهم، أنهم هنا من أجلها، رجال أمن الدولة، الذين تصفهم على موقعها بأنهم محترفو القمع والترويع، الذين يستخدمهم النظام لحماية نفسه.

أبطأت داليا من خطواتها، عبرت الشارع ثم غيبها مدخل البناية المقابلة، وبالتفصيل روت داليا المشهد على تويتر و فيسبوك. « بمجرد أن وصل الخبر إلى علم السفارة الأمريكية، قامت بالتدخل وكان على قوات الأمن أن تغادر المكان على الفور، لقد كانوا يشعرون بالضيق الشديد...» هذا ما قالته دينا فى سعادة إلى ممثلى الصحافة فيما بعد. من جانب آخر، شعر النشطاء بالأسف لما جرى، غير أنهم سرعان ما أدركوا أن السلطات كانت أكثر حساسية تجاه الضغوط الأجنبية ، عنها تجاه كل ما يمكن أن يأتيها من ضغوط الداخل.

حتى لو كان أمن الدولة قد بدأ فى الاعتداء على المدونين، فقد كان لا يزال بعيدا عن تصور إلى أى مدى سوف يكون الفيسبوك والشبكات الاجتماعية ـ التى أدمنها الآن عدة ملايين من المصريين ـ من أهم المشاركين فى سقوط نظام حسنى مبارك. وذلك عن طريق مجموعة من الشباب النشطاء، التى سوف يدخل أسمها الغامض، فى ٢٥ يناير فى قلب التاريخ المصرى: حركة ٦ أبريل.

مارس ٢٠٠٨

مصر تزمجر غاضبة

أمام المخابز التى لا تبيع سوى الخبز المدعم، يصطف البعض منذ الفجر. فى الماضى، لم يكن يشترى هذا النوع من الخبز إلا أفقر الناس. يصنع هذا الخبز من أردأ أنواع الطحين، المخلوط أحيانا بالنخالة، التى تصلح فقط لإطعام الدواجن التى تربيها النسوة فوق أسطح بيوت القاهرة. غير أن أسعار الدقيق قد تضاعفت إلى ثلاثة أمثالها تقريبا منذ أن بدأت الأسعار العالمية للقمح صعودها المدوخ، فى صيف ٢٠٠٧، مع كل صباح، لا تتوقف أعداد الجماهير المتزاحمة أمام المخابز المدعومة عن التزايد. هنا تتجسد الفاقة والحاجة ومعها التدافع والشجارات، التى تتزايد أكثر فأكثر، والتى خلفت بالفعل حوالى خمس عشرة ضحية. بالنسبة إلى المصريين، لم يكن فى موت هؤلاء ما يمثل أى غرابة. إنهم يوقظون ذكرى انتفاضة الخبز فى عام ١٩٧٧، التى اندلعت عندما فكرت الحكومة فى إلغاء هذا الدعم، مقموعة بالدم، أسفرت انتفاضة الجوع هذه عن

أكثر من سبعين ضحية. منذ ذلك الحين حافظت الحكومات المصرية بكل حرص على استمرار دعم الخبز، المسكن الاجتماعى الأخير. بأقل من واحد على مائة من اليورو للرغيف ، يظل الخبز المدعم أرخص عشر مرات من الخبز العادى.

فى كل أنحاء العالم، كان ارتفاع سعر المواد الأولية يثير القلق. وتتفشى هذه الموجة العصبية عبر البلاد النامية. فى القاهرة، فى دكانه البائس، بأرضيته التى لا يقوم بكنسها، لا يحتاج محمد أشرف لبذل أى مجهود حتى يجتذب الزبائن، الذين لا يصدهم منظر البراد القديم المتداعى، الذى يتم إصلاحه بالشرائط اللاصقة، والذى يحاول المحافظة على برودة الزبادى وعلب الجبن المطبوخ. لافتة المحل «مواد غذائية مدعومة من الحكومة» كانت كافية لأن تجعل منه أحد أكثر المحلات رواجا فى الحى. عند محمود أشرف، يباع كيلو الأرز بنحو ثلاثة أعشار اليورو، لدى الآخرين يكون السعر هو الضعف على الأقل، السكر، الزيت، السمن، كل شىء أرخص بمقدار النصف.

منذ عام، عندما اشتعلت موجة الغلاء، شهد أشرف زيادة كبيرة فى أعداد زبائنه: موظفون، مستخدمون صغار، حرفيون، لم يعد أفقر الناس فقط هم من يتخطون عتبة دكانه. على الأرفف، لا توجد سوى بضائع الدرجة الثانية، غير أن أحدا لا يحاول أن يبدو ذواقة ويبدى تأففه. تركة النظام السوفيتى الذى أقامه عبد الناصر، كان دعم المواد الغذائية يمثل هوة عميقة بالنسبة إلى الحكومة التى كرست له فى ذلك العام مبلغ ثمانية وثمانية من عشرة مليار يورو. لكن، حتى إذا كان هذا الدعم باهظ الكلفة، فإن هذا المسكن الاجتماعى ـ الحكومة تعى ذلك جيدا ـ يبدو أساسيا فى أوقات الأزمة.

أكثر الناس احتياجا لديهم الحق فى الحصول على بطاقات التموين، التى تتيح لهم، شهريا، الحصول على مقادير محدودة من الزيت، السكر، الأرز بأسعار رمزية. هذه البطاقات التى أعيد العمل بها فى عام ٢٠٠٤ ـ على العكس من وجهة نظر البنك الدولى، الذى كان يشجع مصر على التخلى عن سياسة الدعم ـ تخدم نحو أربعين مليون نسمة، نصف عدد السكان. لكن مع بداية عام ٢٠٠٨،

وفى مواجهة تصاعد الغضب الشعبى، أعلنت الحكومة أن خمسة عشر مليونا آخرين من المصريين سوف يستفيدون منها.

قبل ذلك بستة أشهر، عصفت اضطرابات هائلة بصناعة النسيج فى دلتا النيل. فى المحلة الكبرى، كانت غضبة سبعة وعشرين ألف عامل، فى حالة تمرد لأنهم لم يحصلوا على العلاوات التى وعدتهم بها الحكومة، قد ألقت ضوءا ساطعاً على ما يعانيه العمال. كان هؤلاء الرجال، من أمثال ياسر محمود الذى يعمل هناك منذ سبعة عشر عاما، يضجون بالشكوى، يعبرون عن نفاد صبرهم وسط بالات القطن مبقورة البطون. «كيف يمكن العيش إننى لا أربح إلا ثمانية وثمانين قرشا فى الساعة ! «ما يجاوز بالكاد عشر اليورو. وفقا لهذا الأجر، على أن أعمل لمدة أربع ساعات حتى أتمكن من شراء كيلو جرام من الطماطم، خمسة أيام لقاء كيلو جرام من اللحم.

منذ عام مضى، عندما علم أحمد ماهر، مهندس فى السابعة والعشرين من عمره، و إحدى صديقاته، إسراء عبد الفتاح، موظفة لامعة فى مجال الموارد البشرية ومن نفس عمره ، أن عمال المحلة يستعدون للقيام بإضراب آخر فى يوم٢٦ إبريل عام ٢٠٠٨، للاحتجاج على رواتبهم البائسة وعلى الارتفاع الجنونى المتصاعد فى الأسعار. كانا قد قررا المشاركة و تساءلا فيما بينهما: كيف يمكن مساعدة العمال فى إيصال أصواتهم . أحمد وإسراء اللذان تعارفا منذ عامين، كانا من مؤيدى حزب الغد، حزب ليبرالى صغير، أنشأه أيمن نور عام ٢٠٠٤، الذى كان قد احتل المركز الثانى فى انتخابات عام ٢٠٠٥، الرئاسية. كلاهما من المتعلمين، المتصلين بالإنترنت، مثل كل شباب الطبقة المتوسطة التى ينتميان إليها. لم يكونا أيضاً من أولاد الذوات بل. مصريان ميسورا الحال فقط. فى مساء ٢٣ مارس من ذاك الربيع، قرر أحمد وإسراء إطلاق دعوة لحث الناس على تأييد مطالب عمال المحلة. على أى حال، ألم تكن أمنية كل إنسان هى راتبًا أفضل، أسعارًا مستقرة، حياة كريمة، لائقة ؟

خلف حاسبها الآلى، كانت إسراء الشابة التى تعيش حياة هادئة والتى لم تكن قد شاركت من قبل مطلقا فى أية مظاهرة، تكتب بضعة سطور. رسالة إلى البحر، تلك التى ترسلها على الصفحة التى أنشأتها لتوها مع أحمد على «الفيسبوك» لا عمل، لا جامعة، لا مدارس، لا مشتروات (...) نحتاج إلى العدالة فقط. عدالة. ناجزة مناسبة نحتاج إلى أجور، إلى أن نجد عملاً، إلى تعليم لأطفالنا، إلى وسائل مواصلات آدمية، نحتاج إلى مستشفيات، نحتاج إلى أدوية، نحتاج إلى حرية وكرامة (...) . لا للبلطجية، لا للقضايا الملفقة، لا للغلاء، لا للمحسوبية، لا للتعذيب فى أقسام الشرطة، لا للفساد. لا للرشوة، لا للاعتقالات التعسفية (...) اطلبوا من عائلاتكم ومن أصدقائكم أن يضربوا يوم ٦ أبريل .. »

إرسال

ثلاثمائة دعوة تم إرسالها. دونما أمل

لكن فى اليوم التالى، كان ثلاثة آلاف شخص قد أعربوا عن موافقتهم على دعوة الإضراب العام هذه. كالفيروس، كان كل يوم جديد يحمل نصيبه ممن أصابتهم عدوى التأييد. إسراء مثلها مثل أحمد أدهشتها المفاجأة. غير أنهما كانا يدركان أن: مابين ضغطة زر، تشير إلى الموافقة على فكرة ما، وبين المشاركة الفعلية فى تنفيذها، هناك سمة عالم بأكمله، عالم من الخوف، عالم من الخضوع والقنوع والتسليم، عالم من الإيمان بالقضاء والقدر. إن مصر كما يتندر المصريون أنفسهم هى أرض I -- B -- M التى تعنى إن شاء الله، بكرة، معلش. أرض الـ فى أى يوم ـ يمكن. »

يبدو أن عاصفة حقيقية كانت قد هبت لتوها على البلاد. احتمال قيام إضراب عام يثير المخاوف. سفراء الدول الغربية ينصحون رعاياهم بالبقاء فى منازلهم، يحذرون من إضرابات وشيكة.

فى صباح السادس من إبريل من عام ٢٠٠٨، عندما استيقظت القاهرة، كان الآلاف من رجال أمن الدولة، فى زى قوات مكافحة الشغب، قد انتشروا فى كل

المواقع الاستراتيجية، ميدان التحرير، الجامعة، وسط البلد. كثير من المؤسسات قامت بمنح عمالها وموظفيها عطلة فى هذا اليوم خشية وقوع تجاوزات.

كانت حركة المرور فى الشوارع أقل كثافة مما هو معتاد، غير أن الإضراب لم يحدث.

لكن فى المحلة الكبرى كان البركان قد هب بالفعل.

اندلعت بعض الإضرابات، مزقت الجماهير صورًا هائلة الحجم. لحسنى مبارك. مشهد سرعان ما نقلته قناة الجزيرة، مما أثار نقمة السلطات المصرية التى حاولت أن تفرض الرقابة على كل ما تم تصويره فى المحلة فى ذلك اليوم.

سدى ما تحاول: على الانترنت كانت غضبة المحلة تُحلق من موقع إلى آخر. أسفر التمرد ، الذى تم قمعه بمنتهى العنف، عن ثلاثة من القتلى وبضع عشرات من الجرحى على الأقل .

فى اليوم نفسه، اعتُقلت إسراء عبد الفتاح وفى غضون أيام، كان وجهها المستدير الذى يحيط به حجاب بألوان الباستيل، قد صار أيقونة لمجموعة جديدة تكونت على الانترنت، مطالبة بإطلاق سراحها. شاردة النظرات، بادية الفزع، أعلنت إسراء ندمها، قالت إنها لم تعد راغبة فى الاهتمام بأمور السياسة. غير أنها، على الأقل، لم تكن تعنى ذلك بالفعل.

أحمد ماهر، سيجرى إزعاجه هو الآخر. اعتقال واستجواب بشكل دائم ومنتظم، إلا أنه لن يستسلم أبدا: حركة ٦ إبريل لن تتوقف. فى كل عام، سوف تجدد دعوتها، محرض دائم على ثورة هادرة، لكنها مازلت فى طور الكمون، ولسوف تنفجر فى يناير ٢٠١١، نشوانة بعطر الياسمين الآتى من تونس، عطر يحمل وعودا بالحرية.

يطلق على ما يجرى الآن «حالة يقظة». فى كثير من السفارات الغربية فى القاهرة، يبدأ الإعداد لها: طلب من بعض الباحثين والدبلوماسيين الاهتمام بالمدونين عن كثب، هؤلاء النشطاء الشباب الذين نتحدث عنهم كثيرا دون أن

نعرف جيدا من يكونون. الغربيون، الذين رأوا فيهم فى بداية الأمر، جماعة من المشاغبين، الشجعان بلا شك، لكنهم لا يمثلون خطرا، صاروا، شيئا فشيئا، يدركون مدى تأثيرهم وأهميتهم. مدوناتهم، التى علم البعض بشأنها، تسبر غور حركة المعارضة. وتجرى قراءة أوسعها انتشارا ونفوذا فى كل صباح، مثلها مثل الصحف، يتم تحليلها. توبع المدونون عن قرب، طلب من بعضهم عرض أفكارهم فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

غير أن النشطاء، ظلوا فى غاية الحذر، تجاه مسألة المعونات الخارجية. إنهم يدكون أن نظام مبارك يستخدم هذه الحجة دائما للنيل من مصداقية نشاط منظمات حقوق الإنسان، التى تستفيد من تمويلات أوروبية وأمريكية، فى نظر رأى عام مصرى شديد الاعتزاز بوطنيته. لكن الشباب المصريين كانوا يدركون أيضا أنهم سوف يستطيعون بصعوبة التوصل إلى أهدافهم، دون أن تتغير رؤية الغربيين، بدلا من السياسية التى يتبعونها تجاه نظام يراه هؤلاء الآخرون شريكا تجاريا مهما وقطبا من أقطاب الاستقرار فى الشرق الأوسط ، خصوصا تجاه إسرائيل.

أحمد صالح واحد من أوائل الذين تم الالتفات إليهم.

بحلله الرصينة، ومظهر الطهر المثالى الذى يبدو عليه، لا يقدم أحمد صالح كثيرا صورة المناضل الثورى كما يحلم بها هؤلاء الشباب الذين يعلقون على جدران حجراتهم صور تشى جيفارا الرومانسية بنظرته الحاسمة.

فى ديسمبر عام ٢٠٠٨، سافر هذا الشاب الذى شارك فى تأسيس حركة ٦ إبريل إلى نيويورك لحضور اجتماعات الحركات الشبابية . هناك ، استغل أحمد صالح الفرصة لكى يقابل بعض المسئولين فى الإدارة الحكومية وفى الكونجرس ، بفضل توسط عالم الاجتماع السياسى المصرى / الأمريكى سعد الدين إبراهيم ، الذى لجأ إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد أن قضى عدة سنوات فى السجون المصرية . حينها عرض صالح ما يرمى إليه على مسمع جمهور تساوره

الريبة » تهيئة الأرض للإطاحة بنظام مبارك ولإقامة حكومة ديمقراطية فى مصر عام ٢٠١١».

- لقد توجب علىّ بذل جهود كبيرة حتى أتمكن من إفهام الأمريكيين حقيقة الذى كان يجرى فى مصر . لقد طلبت منهم أن يكفوا عن دعم مبارك، وأن يقوموا بتجميد حساباته السرية فى الخارج، وألا يغضوا البصر بعد الآن عن انتهاكات حقوق الإنسان، وأن يتوقفوا عن بيع عتاد الردع، مثل قنابل الغاز المسيلة للدموع أو الأصفاد المستخدمة ضد المعارضين. وأن يتيحوا لنا إمكانية أن ننظم أنفسنا لإسقاط النظام دون مساعدة أحد، وأيضا، لأنه ليس من الوارد أن يكون هناك عراق آخر.

فى مواجهته لم تكن الردود دائما « دبلوماسية» هكذا يقول أحمد صالح. بعبارة أخرى لدى البعض: دفع قاس بعدم سماع الدعوة.

لدى عودتها إلى القاهرة، وصفت السفيرة الأمريكية مارجريت سكوبى هذا المشروع، فى برقيه أذاعتها ويكيليكس، بأنه «خيالى».

غير أن الاهتمام الأمريكى بالموضوع كان قد تنبه بصورة متزايدة، تم توجيه الدعوة إلى المعارضين لزيارة واشنطن من أجل المشاركة فى حلقات نقاش، فى لقاءات دولية. معظمهم كان يرفض العرض « أن أحدا لم يكن يريد أن تكون له علاقة بإدارة بوش ، لقد كان يمثل الشيطان»، يتذكر أحمد صالح.

غير أن حدثا قد غير أوراق اللعبة. انتخاب باراك أوباما، فى نهاية عام ٢٠٠٨، أدار رأس العالم، وجعل لأمريكا، الملعونة بالأمس، صورة أكثر قبولا لدى الناس.

نعم نستطيع

بالنسبة إلى شبيبة النيل، كان لانتصار باراك أوباما وقع الزلازل. تحول الشعار الداعى إلى الأمل إلى حقيقة.

فى جامعة القاهرة ، فى الرابع من يونيو ٢٠٠٩، الذى سبقته عدة أيام انهمك فيها الجميع فى إعادة الطلاء والتلميع والتنظيف. كان الأمن على أشده. بعد ستة شهور بالكاد من انتخابه، يأتى باراك أوباما كى يتوجه بالخطاب، للمرة الأولى، إلى العالم الإسلامى، الواقع فى قطيعة صريحة مع أمريكا منذ اعتداءات الحادى عشر من نوفمبر عام ٢٠٠١، وحرب العراق. من تحت قبة جامعة العاصمة المصرية الشهيرة، كان أوباما قد اختار أن يقوم بذلك. أمام حشد الحاضرين من الشخصيات التى كان حسنى مبارك غائبا عنها، لكنها ضمت أعضاء بارزين من شخوص المجتمع المدنى، مناضلين مدافعين عن الديمقراطية وكثيرا جدا من الشباب.

هؤلاء الشباب الذين قال الرئيس الأمريكى أمامهم، وبشكل رسمى: « لا تستطيع أية أمة أن تفرض على أخرى نظاما للحكم، غير أن هذا لا ينقص من التزامى تجاه الحكومات التى تعبر عن إرادة شعبها .(...) إن أمريكا لا تزعم أنها تعرف ما يصلح للعالم كله. غير أننى أعتقد، دونما أى تنازل ممكن، أن الناس تطمح إلى بعض الأشياء: أن تتاح لها إمكانية التعبير عن رأيها فى طريقة إدارة شئون الحكم، الثقة فى دولة القانون، وحكومة تضمن المساواة والعدالة للجميع، حكومة شفافة لا تقوم بسرقة شعبها، حرية اختيار أسلوب الحياة. إنها ليست مجرد أفكار أمريكية بل إنها من حقوق الإنسان، ولهذا السبب نقوم بدعمها فى كل مكان».

أسف النشطاء لأن الجوهرى من الخطاب كرس للقضايا الدينية. غير أن الرتاج كان قد انخلع وانفتح الباب. تزايد عدد عابرى الأطلنطى أكثر فأكثر. شاهيناز عبد السلام على سبيل المثال . واحدة من الرواد فى مجال التدوين فى مصر وإحدى عضوات حركة كفاية، توجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى مارس ٢٠١٠، بدعوة من منظمة . Freedom House قبل هذا بعدة أسابيع، كانت السفارة الأمريكية بالقاهرة قد تدخلت للإفراج عنها، كما كان الحال بالنسبة إلى بعض النشطاء الآخرين، الذين تم اعتقالهم لدى وصولهم إلى نجع حمادى،

بالقرب من الأقصر، حيث كانوا يرغبون فى الإعلان عن تضامنهم لعائلات ضحايا عملية إطلاق الرصاص على إحدى الكنائس القبطية، عشية عيد الميلاد عند طائفة الأرثوذكس.

فى واشنطن، تقابلت شاهيناز عبد السلام مع بعض النشطاء المصريين الآخرين، بينهم إسراء عبد الفتاح، التى كانت قد شاركت فى إطلاق الدعوة إلى الإضراب العام فى عام ٢٠٠٨.

فى حقائبهما ، كانت الشابتان قد أحضرتا ملفا ما، يضم هذا الملف سيرة حياة كل المناضلين من أجل الديمقراطية المحبوسين فى مصر. وقد قامتا بتوزيعه على كل من صادفتاه، نواب الكونجرس، مستشارى هيلارى كلينتون. كان لديهما اعتقاد راسخ: « أن الأمريكان باستطاعتهم أن يطالبوا بإطلاق سراح هؤلاء، فى كل مرة يلتقون فيها بمسئولين مصريين».

إلى كل من صادفته، كانت شاهيناز عبد السلام تحكى عن مصر، عن طفولتها كفتاة شبت فى الإسكندرية، عن سعيها الدائب إلى الحرية، العدالة الاجتماعية، نضالها المستمر من أجل حقوق الإنسان.

إنها تندد بتجاوزات النظام وتعسفه، تتحدث عن التعذيب، الفساد وتتوسل إلى مستمعيها أن يفتحوا عيونهم. وتشدد على ضرورة مشاركة الشباب فى المطالبة بالتغيير الذى ينادى به، على وجه الخصوص، محمد البرادعى، المدير السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية، الذى بدأ بالكاد فى الظهور بقوة كرسول معبر عن حالة غضب يبدو مشتتا، لدرجة أن الجماعة الدولية لا تأخذه بعين الاعتبار.

تمول الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى، عبر مؤسسات المجتمع المدنى NGO برنامجا لدعم الديمقراطية فى البلاد النامية، مثل مصر. عند التساؤل حول معرفة أية صورة يمكن أن تتخذها هذه المعونة، كان النشطاء المصريون واضحين تماما. إنهم لا يرغبون، على وجه الخصوص، فى مساعدة مالية مباشرة يمكن أن تستغلها السلطات ضدهم بتصويرهم كعملاء للخارج. فالذى

يمكن أن يساعدهم شيء مادى محدد، محسوس أكثر رشدا ورصانة، مثل شراء الحاسبات الآلية المحمولة، التى سوف تُستخدم بصفة خاصة، فى أواخر ٢٠١٠، فى تجميع أدلة وشواهد التزوير فى الانتخابات البرلمانية.

أثناء إقامتهم فى الولايات المتحدة، وجهت الدعوة إلى خبراء توجيه الرأى العام المصريين، من بين دعوات أخرى، لزيارة مقر شركة Google . وهنا وهناك قاموا بعقد لقاءات مع المتخصصين فى مجال المعلوماتية الذين شرحوا لهم كيفية التغلب على رقابة الشرطة على مواقع الإنترنت، كيفية المحافظة على سرية معلوماتهم وحمايتها.

تعرف بعضهم أخيرا على عمر عفيفى: أحد رجال الظل، لم يتم الإشارة كثيرا إلى اسمه أثناء ثورة ٢٥ يناير، التى كان، مع ذلك، واحدا من ملهميها.

رجل أصبح كتابه، الذى ظهر فى مارس ٢٠٠٨، كتاباً مقدسا لطليعة المناضلين المصريين. عنوانه، يدوى، مثل الصفعة: «علشان ما تتضربش على قفاك» الكتاب هجوم كاسح، يقوم فيه هذا الشرطى السابق، المنقلب على مؤسسة كانت انحرافاتها تصيبه بالرعب، بتحليل أساليب وزارة الداخلية. إنه يفك رموز التصرفات البوليسية، مع التأكيد أن ٨٥٪ من زملائه لا يوافقون على مثل هذه الممارسات، إلا أنهم لا يملكون خيارا آخر سوى الصمت، وإلا تعرضوا للنقل إلى المناطق النائية والمنسية فى مصر. إنه يقدم حلولا لتجنب التعرض للاعتقال، وفى حالة التوقيف ، يقدم الحجج القانونية التى يجب الاستناد إليها والتمسك بها. يشرح على وجه الخصوص كيف يمكن إزعاج ومباغتة النظام الأمنى. إرباك العدو بإظهار عدم قدرته على التمكن منك. الشروع فى مظاهرات متعددة فى المناطق السكنية المأهولة، حيث يكون تدخل الشرطة أكثر صعوبة وحساسية، بدلا من القيام بها فى مناطق التجمع المعروفة بداهةً. إجبار الشرطة على أن توزع اهتمامها على العديد من بؤر التوتر، وعدم التجمع فى نقطة واحدة إلا بعد ذلك.

ممنوع البيع؛ كان الكتاب متوافرا بالمجان على الإنترنت. يقوم محاربو الغد الإليكترونيون بتحميله والترويج له وإذاعته . كان عمر عفيفى قد لاذ بالفرار. وعندما اندلعت الثورة التونسية فى يناير ٢٠١١، كان الرجل يعيش فى منفاه فى الولايات المتحدة منذ قرابة العامين. من موقعه على الانترنت، من مسكنه الواقع فى Falls Church بولاية فيرجينيا الشمالية، كان عفيفى يعلق على الأحداث، مشجعاً حركة ٦ إبريل، شباب الحرية والعدالة، وكل جماعات المعارضة المصرية على التنسيق فيما بينهم، على أن ينتقلوا بأنفسهم من القول إلى الفعل.

بعض الشباب سوف ينفذون هذه النصائح ابتداءً من ٢٥ يناير.

بالنتيجة التى نعرفها جميعا.

عام ٢٠١٠، سوف يكون عاما حاسما، بشكل مضاعف، بالنسبة إلى موجهى الرأى العام المصريين.

فى ذلك اليوم السادس من شهر يونيو عام ٢٠١٠، كان الجو حارا، كما هو معتاد فى الإسكندرية. الهواء محمل بهذا الملح الذى ينخر، بلا رحمة، واجهات البنايات المتراصة على كورنيش الثغر. فى حى سيدى جابر الشعبى، جالسا فى أحد مقاهى النت (السايبر)، كان أحد الشباب ينقر على لوحة مفاتيح حاسبه الآلى. نحيل الجسم، عيون مراهقة، يبدو أصغر سنا من سنوات عمره الثمانية والعشرين. كان الليل قد أوغل كثيرا عندما دخل إلى المقهى اثنان من رجال الشرطة فى ثياب مدنية، توجه الرجلان ناحيته وشرعا فى استجوابه، ثم أخذا يدقان رأسه بعنف فى الطاولة.

تدخل حسن مصباح، صاحب المقهى، يجب الا يجرى شىء من هذا فى مقهاه. لا يرغب فى التورط فى أية مشاكل. مشدود اليدين إلى الظهر، جر الشرطيان عميله الشاب إلى الخارج. رأى حسن الرجلين يدفعانه إلى مدخل بناية مجاورة. ثم تملكه الرعب وهو يراهما يؤرجحانه بين الباب المعدنى، الحوائط. درجات السلم.

كانت الضربات تنهمر.

على أرضية مدخل العمارة، الباردة، المتسخة، لفظ خالد سعيد أنفاسه الأخيرة، كان هذا هو اسمه.

قصة، كان من الممكن أن تتوقف عند هذا الحد. تورط بوليسى، قضية اتخذت نهاية مؤسفة، ربما علقنا عليها بصوت خافت، يملؤه الشعور بالخزى والرعب من انتقام مرتقب.

غير أنها، على العكس من ذلك، سوف تكون الشرارة الحاسمة، المحتومة، التى سوف تؤدى إلى نهاية نظام حسنى مبارك.

لأن أسرة خالد سعيد، التى تم إخطارها، عندما تقدمت فى اليوم التالى لاستلام الجثة من المشرحة، لم يصرح لها بالدخول. وقيل لها إن خالدا قد مات مختنقا بابتلاعه لفافة من مخدر البانجو، فى محاولته لإخفائها عن الشرطيين.

إلا أن الأسرة كانت تدرك أن فى هذه الرواية ثمة ما يريب. لأن صاحب المقهى قد شاهد ما جرى، وآخرين أيضا، ممن كانوا يمرون بالشارع، فى هذه اللحظة.

وبدأ الجميع، سويا فى الحديث عما رأوه، بعدما صدمتهم الواقعة. المقربون من خالد يقولون إن الشاب قد حصل على شريط مصور، وأنه كان يستعد لبثه عبر موقعه الاليكترونى، فى هذا الشريط يظهر اثنان من رجال الشرطة متلبسين ببيع المخدرات. هل كان يدعى ذلك، هل كان يبتزهما أو يهددهما بالتشهير ؟ . الشرطة، تؤكد أن الشاب كان أحد الجانحين، وأنه كان مطلوبا لأنه تهرب من أداء الخدمة العسكرية، ولأنه متهم بحيازة سلاح.

شارك فى الجنازة نحو ألف شخص.

فى القاهرة، بادر مركز النديم، لاستعادة حقوق ضحايا التعذيب، بالعمل، بعدما أحيط علما. يُعد هذا المركز واحدا من منظمات المجتمع المدنى التى تعمل،

بلا توقف، على توثيق تجاوزات الشرطة، الاعتقالات، حالات المفقودين. بكل إصرار ودونما كلل، كان الباحثون والمحامون بمركز النديم، وكذلك رجال Human Rights Watch يقومون بالتحقيق. حصلوا على شهادة حسن مصباح وبعض سكان الحى الآخرين. كانت كل الروايات تتفق.

فى الوقت نفسه، بدأت صورة فوتوغرافية فى التداول والانتشار عبر الانترنت.

هذه الصورة التى لا يمكن احتمالها لوجه إنسانى مخلوع الفك، محطم الأسنان، مسحوق الأنف تحولت عيناه إلى ما يشبه فوهتين متورمتين زرقاوين، كانت صورة خالد سعيد، التى تم التقاطها فى مشرحة كوم الدكة بالإسكندرية.

من المدونات إلى صفحات فيسبوك، كانت الصورة المرعبة تنتشر. يتحول الهمس إلى ضجيج واسع. تحت الضغط؛ تأمر وزارة الداخلية باستخراج الجثة وتشريحها من جديد لتحديد أسباب الوفاة، أكدت هذه العملية نفس النتائج التى جاءت بتقرير الطب الشرعى الأول، وأشعلت غضب المعارضة ومنظمات المجتمع المدنى، التى استغلت هذه القضية للمطالبة بإنهاء العمل بقانون الطوارئ، حالة استثنائية تسرى منذ ثلاثين عاما وتم تجديدها حديثا.

لم يلزم الصحافة المستقلة سوى عدة أيام حتى تتدخل فى الأمر وتقوم هى الأخرى بنشر تلك الصورة المؤلمة إلى جوار صورة حقيقية لخالد مبتسما، مرتديا كنزه رمادية ذات غطاء للرأس، مضمّخ الشعر بالجيل. صورة ابن الجيران، الذى أدى مقتله إلى غضب مصر بكاملها، وللمرة الأولى تجاوز هذا الغضب دوائر المعارضة المألوفة.

مصر المتصلة بالفيسبوك لا تتحدث عن سواه. استبدل كثير من رواد الانترنت، على صفحاتهم، صورهم الخاصة بصورة هذا الشاب. شاركوا فى بث التعليقات الغاضبة، المتزايدة باطراد، التى يكتبها شخص مجهول فى الصفحة التى أنشأها مؤخرا؛ بسرعة أصبحت الصفحة « كلنا خالد سعيد» قاعدة ومنصة

للمعارضة. الكل يرسل إليها ويعرض فيها مشاهد التعذيب أو يعلق على حالات التجاوز والتعنت البوليسى. يتم فيها فضح النظام ومنها تنطلق الدعوة للتغيير. باستمرار واطراد، كانت الجماعة تنظم تجمعات آنية فى أماكن مختلفة من البلاد للتنديد بعنف الشرطة وسوء تعاملها مع المصريين. بنهاية عام ٢٠١٠، كانت الصفحة تضم أكثر من ثلاثمائة ألف مشارك. عندما اندلعت حركة التمرد التونسية، نشطت صفحة «كلنا خالد سعيد» داعية رياح الغضب كى تهب على مصر. ٢٥ يناير. يوم الاحتفال بعيد الشرطة. يوم تاريخى سوف تنقلب فيه الأوضاع فى مصر.

بعد ذلك بثلاثة أيام، تم اعتقال المشرف المجهول على الصفحة فى فجر جمعة الغضب، واحتُجز فى مكان سرى. كان اسمه وائل غنيم. ذلك الشخص الذى سوف تدفع دموعه الحزينة بالمصريين إلى الشوارع، للمطالبة برحيل حسنى مبارك.

نوفمبر ٢٠١٠

شرارة ثانية. قبل عدة أيام من الانتخابات البرلمانية، فى إحدى الفيلات عالية الأسوار، المزروعة فى جوف أحد شوارع حى المهندسين التجارى، كان حشد من الناس يموج بالحركة. مناصرو حقوق الإنسان، معارضون، أعضاء منظمات المجتمع المدنى يحاولون تنظيم جهودهم والتنسيق بينهم، يقومون بدعوة المواطنين إلى أن يحملوا إليهم كل التجاوزات التى سوف يكونون شهودا عليها فى يوم التصويت. يومًا تقدمه الصحافة الرسمية باعتباره «عرس الديمقراطية »، لا يهم أن تكون منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوق الإنسان المصرية قد استنكرت علناً ذلك الجو العام الفاسد، «التهديدات» التوتر. السلطات المصرية لا تستسيغ النقد إلا قليلا، وها هى ذى تتملص من ضغوط الإدارة الأمريكية التى كانت تطالب، القاهرة بلا جدوى بأن تقبل قدوم مراقبين دوليين. « سوف نثبت للعالم، أننا قادرون على إدارة العملية الانتخابية بطريقة نزيهة» هكذا قال أحمد نظيف،

رئيس الوزراء. أما وزير الداخلية حبيب العادلى، فقد أعاد لتوه التذكير «بأن المظاهرات ليست من آليات الحملة الانتخابية» ، مهدداً محذرا من أن الشرطة سوف تتعامل بكل الحسم اللازم « فى مواجهة كل من » يحاول المساس باستقرار البلاد أثناء الانتخابات.

هل ترفض الحكومة الرقابة على العملية الانتخابية لا بأس إذا: لقد قرر النشطاء أن يبتكروا شبكة المراقبة الخاصة بهم.

فى ركن إحدى قاعات الاجتماعات، تقوم شابة بالنقر على هاتفها. « يجب أن يساعدنا الناس، وأن يرسلوا إلينا عبر تويتر، بالبريد الإلكترونى كل ما يرونه. يجب عليهم أن يكونوا عيوننا، لأننا، معرفون بأكثر مما يجب، و لأننا لا نستطيع أن نفعل شيئا بمفردنا».

إسراء عبد الفتاح تعدل من وضع حجابها الأحمر، وتطلق ضحكة عصبية صغيرة. هذه المرأة الشابة التى كانت من وراء الدعوة إلى الإضراب يوم ٦ أبريل عام ٢٠٠٨، لم تستطع طويلاً أن تبر بوعدها، الذى انتزع منها أمام الكاميرات، بألا تتدخل ثانيةً فى السياسة. لم ينل العامان المنصرمان من تصميمها. بل على العكس. كانت إسراء تدرك أكثر من أى شخص آخر، مدى تأثير الإنترنت. بينما كانت هذه الانتخابات تقترب، أرادت إسراء استخدامه لتحريك مشاعر المصريين ولكى تجعل منهم حراس الديمقراطية ومراقبيها.

بدت الخطة صائبة.

فى الثامن والعشرين من نوفمبر ٢٠١٠، لم تكن الجولة الأولى من الانتخابات قد انتهت بعد، عندما رأينا رواد الانترنت يقومون بتحميل اليوتيوب، مقاطع فيديو، تم تصويرها بعناء، بواسطة الهواتف المحمولة، مراكز اقتراع مليئة ببطاقات تصويت تم ملؤها بالعشرات بواسطة مساعدى القضاة. وسائل الإعلام الدولية، التى علمت بذلك عن طريق تويتر، علقت على هذه المشاهد بشكل مستفيض. داعية البيت الأبيض إلى التدخل والإعراب عن «استنكاره».

فى هذا المساء، كانت إسراء ورفقاؤها يدركون أنهم قد ربحوا معركة صغيرة. من المحتمل أن تكون ثقيلة التبعات.

ـ عملاء أمن الدولة فى غاية الخشونة مع النشطاء ، كما تعلمون....

ترسم إسراء ابتسامة متكلفة.

ـ إنهم يحاولون التجسس علينا، معرفة ما الذى نعد له. ينشئون صفحات شخصية زائفة على فيسبوك حتى يعرفوا خططنا. يقومون باعتقال من ينزل إلى الشوارع، ويصادرون هواتفهم المحمولة ، بطاقاتهم الشخصية، يبرحونهم ضربا. لكن علينا أن نواصل السير إلى النهاية. كان التزوير فاضحا لدرجة أن المعارضة رفضت المشاركة فى الجولة الثانية من الانتخابات.

لجنة الانتخابات تؤكد أنها لم تتلق أية شكاوى أو أدلة. على صحة الوثائق التى قام النشطاء بجمعها. معترفة فى ذات الوقت بوقوع بعض الحوادث العابرة ، «غير المؤثرة على سير العملية الانتخابية فى مجموعها»؛ أبطلت اللجنة النتائج فى بعض مراكز الاقتراع .

كانت النتيجة كارثية: تمثلت الجولة الثانية من الانتخابات فى مواجهات بين مرشحين متنافسين ينتمون كلهم إلى الحزب الوطنى. كان الحزب فى سباقه المجنون نحو السلطة والمال، قد دفع فى واقع الأمر بالعديد من المرشحين للتنافس فى نفس الدائرة الانتخابية.

لاح الشقاق فى قلب الحزب الوطنى ذاته. فى الظاهر، تهكم أعضاؤه من انسحاب المعارضة، أما بعيدا عن العيون، فكانت بعض كوادره ترفع عيونها إلى السماء، معترفة بأن الأحداث قد تجاوزتهم. إنهم يقرون بأن هذا الوضع ينال من مصداقية صورة الحزب الوطنى لدى الناس ويعيد من جديد طرح مسألة قدرته على إصلاح البلاد. كما كان قد تعهد بذلك، جمال مبارك، نجل الرئيس وخليفه الوشيك. جمال مبارك الذى كان قد أغرق من الضحك، عندما سأله أحد

الصحفيين، منذ عام مضى، أثناء مؤتمر الحزب، عن الأهمية التى يوليها للشباب الذين يتعاطون السياسة على صفحات الفيسبوك.

كان القدر قاسيا: الشريط المصور لهذا الحديث، صار الآن يثير السخرية من جمال والحزب على اليوتيوب.

سقوط آل مبارك
هو يمشى .. مش هنمشى

نعال، على مرمى البصر. بحر من الأحذية، تلوح بها أذرع غاضبة، يتماوج فوق التحرير على إيقاع كلمة تصرخ بها الجماهير. «ارحل».

فى العاشر من فبراير ٢٠١١، بينما يسقط المغيب على مدينة القاهرة، كان حسنى مبارك، المتحصن فى قصر العروبة الرئاسى، بحى مصر الجديدة، لا يزال يتشبث بالسلطة. غير أنه، بإعلانه أنه سوف يبقى فى منصبه بدلا من أن يستقيل، كما كان البعض من مقربيه، رئيس وزرائه، وبعض العسكريين قد نصحوه فى وقت مبكر من ذلك النهار، أثار جنون الناس فى التحرير. هل يشك فى هذا ؟ لقد خسر لتوه المعركة بالفعل. منذ الآن فصاعدا، لن يستطيع شىء أن ينال من عزيمة المتظاهرين، الساخطين من عدم قدرته على رؤية حقيقة شعبه وجهاً لوجه.

قبل أسبوع من ذلك، كاد الرئيس مع ذلك أن يقلب الأوضاع، عندما عبر عما يكابده ويشعر به خلال خطابه التليفزيونى الثانى. إنه فى الثانية والثمانين، ويتمنى أن ينعم بالراحة بكل تأكيد طبعا، لكن ما باليد حيلة: فاليوم مثل الأمس يجب أن تُقدم مصلحة الأمة. لقد كان الإحساس بالمسئولية، معنى التضحية هما دافعى حياته، ألم يكن المحارب الذى قاتل فى ميدان المعركة خلال تلك الحروب ضد إسرائيل، تلك التى تُخلد ذكراها فيه يوميا، كالقصيدة ؟ بينما كان يعبر،

ببعض الكلمات البسيطة، عن رغبته فى أن يموت على أرض وطنه، استدر حسنى مبارك تعاطف الكثير من المصريين. من ضمنهم كثير ممن كانوا قد اعتنقوا حتى حينها الأفكار الثورية، والذين تساءلوا في ذلك المساء عما إذا لم يكن الشعب قد تجاوز الحد.

كرامة الرئيس لا تُمس، خصوصًا عندما يكون بطلا. نعم ، لنقر بأن ثلاثين عاما من الحكم كانت فترة أطول مما يجب. لكن ما الذى سوف تغيرهُ ستة شهور أخرى ؟ لنتركه يرحل فى هدوء بعد انتهاء فترة ولايته فى سبتمبر. وفق ما يرغب، كما يليق.

ـ لقد كان هنا حتى من قبل ميلادى ! إننى لم أخترهُ ، أنا ! بل إن أحدا لم يخترهُ ، لقد تم تعيينه. إذن، ليحل الآن عن سمائنًا !

عشية الثورة، كان فؤاد، ٢١ سنة، لا يجد الكلمات القاسية بما يكفى لوصف هذا الرئيس الذى يحتقرهُ. رغم أن عائلته، التى تضم العديد من كبار الموظفين، تُشكل جزءا من النظام. بل يُرسل الأطفال فيها لتلقى تعليمهم فى المدارس الأجنبية، وفى المنزل، يُجرى الحديث بالانجليزية أكثر من العربية، نساير الأحداث ولا نخالف اتجاه الريح، لكنا بعيدا عن عيون الآخرين ، بين الأصدقاء لا نحرم أنفسنا من توجيه النقد. على أى حال ، فنحن أيضا لسنا فى سوريا . كثيرًا ما تسمع هذه العبارة .

من عيادته العالية، فى جاردن ستى، حيث يواصل ممارسة عمله كطبيب أسنان، بينما يُكرس فترة الصباح للكتابة، كان الروائى علاء الأسوانى، مؤلف «عمارة يعقوبيان» وواحد من طليعة المعارضين، قد توصل أيضا إلى صيغة ما يجرى.

فى مصر، لدينا الحق فى أن نقول ما نريد، يقول لك النظام حسنًا تكلم.. تكلم دائما « يجب أن نقول إنه، فى عائلة فؤاد، ليس ثمة ما نخشاه كثيرا : فى

عائلات الطبقة العليا، مادمنا لا نتجاوز الحدود بأكثر مما يجب، ومادام لا يتعدى الأمر مجرد بعض الكلمات، فلا داعى للقلق، وفى أسوأ الأحوال، هناك دائماً شخص ما، يعرف شخصا ما، يمكن اللجوء إليه.

أما المشاكل فهى من نصيب من يناهض النظام، فى العادة، المعارضون، النشطاء. وبعدهم يأتى كل الآخرين. هذا الجانب الذى يُمثل غالبية السكان، طبقات متوسطة، طبقات فقيرة مهمشة، هو من يخاف أن يقع فى يوم ما ضحية لشرطى بلا ضمير، على يقين من أن أحدا لا يستطيع محاسبته، على شاكلة من تمتلئ بهم أقسام الشرطة.

لا يظل المرء على رأس أكبر البلاد العربية مصادفةً خلال ما يقرب من الثلاثين عاما. عندما علم حسنى مبارك عن طريق مستشاريه، فى بداية فبراير ٢٠١١، أن الوضع أكثر خطورةً مما يبدو عليه، ظن أنه يعرف ما هى الأوتار الحساسة التى يجب تحريكها. وتر إثارة العواطف. وتر الخوف من الغد. وتر الاحترام الواجب تجاه الكبار، وتر الإعجاب بأبطال الحرب القدامى.

حسنى مبارك يعرف شعبه، بالتأكيد. غير أنه يستهين به. خصوصًا تلك الشبيبة التى لا يتصور مدى قوتها، الميالة للمعارضة والتمرد وضيقها بسوء الأوضاع الموجودة الذى بلغ أقصاه. لقد رأى بعينيه أن التونسيين قد طردوا زين الدين بن على محملا بالعار إلى السعودية. غير أنه يظن أن ذلك لن يحدث له.

خلال ثمانية عشر يوما، عاشت مصر مشاهد تفوق التصور. من التحرير إلى كورنيش الإسكندرية، من ظلال الأعمدة فى معبد الأقصر إلى شوارع السويس التى نخرت قطرانها الرمال، مزقت، أحرقت صوره هائلة الحجم المزروعة على حواف الطرق.

فى كل مكان تنطلق مسيرات الجماهير، ملوحة بصورته المرسومة بطريقة هزلية. شوهت ملامحه. وضعت على رأسه قرونا شيطانية. رسم فى شكل كلب

كانيش. هذا الذى، كان يطلق عليه بالأمس « البقرة الضاحكة»، إشارة إلى الابتسامة الهانئة التى كان يعلقها دوماً على شفتيه والى سذاجة القرويين الظاهرة عليه، نراه اليوم وهو يوصف بالديكتاتور، بالفاسد. بالجلاد. ناظمو الأغانى يطلقون لأنفسهم العنان. فى ميدان التحرير، كانت كل أسرته مدعوة، على أنغام الموسيقى، للطواف بالجحيم. زوجته المقتدرة، سوزان. ابنه البكر، رجل الأعمال علاء، والأكثر من ذلك ابنه الثانى جمال، الذى كان يعتبر، حتى قيام الثورة، أكثر خلفائه احتمالا.

إنها نهاية أسرة حاكمة، نهاية نظام. قصة تحمل ملامح الدراما القديمة. ملك عجوز مريض وقصير النظر، مكتئب منذ وفاة حفيده، منذ عام ونصف، معزول فى قصره. ملكة وأمراء، متلهفون ومستشارو سوء. البلاط موزع بين أشرار قادرين ومتحكمين وأطهار عاجزين، الحرس، الشعب الذى يزمجر غاضبا. والذى، للمرة الأولى منذ سبعة آلاف سنة، سوف يسقط الفرعون.

فيلا بيضاء شاسعة، هكذا يصفها الذين قدر لهم أن يتخطوا عتبتها يوما ما. لا يمكن رؤيتها عبر الطريق الرازح تحت الشمس. بطول أسوار الأراضى المتاخمة ، تلقى أشجار الجهنمية بزهور لها لون الفوشيا. بعض أشجار الأثل تنشر بالكاد قليلاً من الظل. فى الخلفية مياه خليج تيران الهادئة، تركوازية، يخالطها الاخضرار ثم زرقة عميقة. الليل، أضواء بارات ومطاعم شرم الشيخ تزاحم نجوم السماء. مكان غير مألوف بالنسبة إلى سجين. غير أن، حسنى مبارك سوف ينعزل هناك بعد استقالته فى الحادى عشر من فبراير عام ٢٠١١، قيل أيضا إنه فى تبوك، فى المملكة العربية السعودية، لمعالجة سرطان البنكرياس الذى كان ربما يعانى منه والذى نُسب إليه منذ إقامته المفاجئة فى أحد مستشفيات ألمانيا، فى مارس عام٢٠١٠، حيث أجريت له عملية استئصال المرارة. فى الحقيقة أن أحدا لا يدرى. لكن فى الثامن والعشرين من فبراير ٢٠١١، أصدرت السلطات القضائية حكما بمنعه هو وعائلته من مغادرة البلاد وبتجميد أمواله فى مصر.

عندما كان مبارك رئيسا، لم يكن يفتقر، على ما يبدو، إلى حس الفكاهة. يؤكد البعض أنه كان قد ضحك عند سماعه هذه النكتة: فى أول أيامه كرئيس للجمهورية، سأله سائقه، الذى ورثه عن سابقيه من الرؤساء، عن الطريق الذى يفضل أن يسلكه للتوجه إلى القصر الرئاسى. « ماذا كان ناصر يفعل سأله مبارك حينها. ناصر كان يتجه إلى اليسار دائما «رد السائق» ماذا كان يفعل السادات ـ كان دائما نحو اليمين. ساعتها فكر مبارك لحظة، وقال «ضع نور الإشارة مرة إلى اليسار، ومرة إلى اليمين واركن السيارة جانبا».

مبدأ الجمود، فى الواقع، هو أفضل وسيلة لتفادى الحوادث. أو تقريبا كذلك.

خلال تسعة وعشرين عاما من الحكم -أطول فترة حكم عرفتها مصر منذ السلطان محمد على ـ اتخذ حسنى مبارك من الحذر دافعا أساسيا فى كل قراراته. كان الرجل نافذ البصيرة: كان يعرف أنه لا يملك كاريزما ناصر الطبيعية ولا طلاقة لسان السادات. إنه رجل دؤوب. مدقق، متروٍ، رصين، معتاد الكتمان عند اتخاذ القرار بتغيرات مهمة. قوة هادئة ، طمأنت زعماء الدول الأجنبية. يرون فيه رمزا لحكمة يمكن الركون إليها.

فى القاهرة، يبدو هذا الجمود خصوصا وكأنه وسيلة لإحكام السيطرة، بتفادى أن تنخرط الدولة فى طريق الإصلاح، مما تسبب فى أن توصف مصر فى الغالب بأنها « ديكتاتورية رخوة»

ديكتاتور ؟ حاكم فرد ؟ عندما بدأت مصر فى الغليان فى بداية يناير ٢٠١١، كان التعبير الثانى هو ما استخدمه معلقو الصحافة الدولية أكثر من غيره .

ـ إنه أبونا ، لا يمكن أن نفعل به هذا . الشعب يدين له بالكثير .

دمع غزير يسيل على خديها، ينقبض كفاها. ترتعش، تثور غضبا. فى ميدان مصطفى محمود، فى مطلع شهر مارس، بعد رحيل حسنى مبارك بثلاثة أسابيع،

بجوار بضعة آلاف آخرين متجمعين سويا حول إحدى المنصات. تواصل سوزان راوى الإعلان عن تأييدها للرئيس. ربما صار التحرير الآن مركز العالم، يمكن لشعوب الأرض أن تنحنى أمام الشعب المصرى، أيقونة الحرية الجديدة ، لكن سوزان، عن نفسها، لم تتراجع عما هى فيه.

ـ لقد أُنشئ مترو الأنفاق فى عهده، لقد شيد المدارس. بفضله صار لكل مصرى سقف يأوى إليه، لديه ما يقيم أوده، ويمكنه أن يذهب إلى المستشفى مجاناً. لا تصدقوا من يقول لكم إن هناك فقراء ! هذا ليس صحيحا، لا يوجد فقراء فى مصر. إنها ليست سوى أكاذيب الصحفيين الأجانب. لسنا فى دولة متخلفة!

فى محيط سوزان العائلى، يقرأ الناس الجمهورية، إحدى الصحف الرسمية، ويشاهدون نشرات الأخبار على قنوات التليفزيون الحكومى. إنهم موظفون. هى بذاتها مرشدة سياحية. وعليه فهى تستنكر أن يكون صحيحا أن أربعة مصريين من بين كل عشرة تقريبا يعيشون على ما يساوى يورو ونصف اليورو يوميا كما يؤكد البنك الدولى.

إنها ليست الوحيدة فى إنكار ما تجىء به الإحصائيات بهذا الشكل، فجمال مبارك ، وأثناء مقابلة أجراها معه قناة « France 2 » فى مايو ٢٠٠٨ والذى كان حينها رقم ٢ فى الحزب الوطنى وأمين لجنة السياسات به، قام بتعنيف الصحفى الذى كان يجرى معه الحوار: « من أين تأتى بأرقامك هذه ؟ هذا غير صحيح ! »

ميدان مصطفى محمود. السماعات الموضوعة على المنصة ترتج، يمكن رؤية ذلك بالعين المجردة، الصوت مضبوط على مستوى يفوق ما يمكن احتماله. الأغانى الوطنية وما يصاحبها من هدير تغطى على ضجيج حركة مرور السيارات وأصوات الأبواق فى شارع جامعة الدول العربية.

مؤيدو حسنى مبارك كانوا هناك ، ويسعون للإعلان عن وجودهم مرتبكاً، يتقدم واحد من الشباب:

ـ لعلمكم، أنا لست ضد التغيرات التى تجرى، ثلاثون عاما، بالفعل، فترة طويلة، أطول مما يجب، أنا أيضاً كنت أحتاج إلى شىء جديد، غير أنه لم يكن من اللازم أن يجرى الأمر على هذا النحو، نحن ندين له بأننا قد حظينا بثلاثين عاما من السلم والأمان، الآن أنا أخشى مما هو قادم.

ربما، كانت هنا، فى الواقع، أهم إنجازات حسنى مبارك. عندما ورث مبارك، بعد مقتل السادات ، أكبر دولة فى العالم العربى، تمكن الرجل، طوال أكثر من ربع قرن، من أن يجنبها حروبًا وكوارث شرق أدنى يعيش حالة غليان مستمرة. متسلحا بمبدأ مزدوج الجانبين ، هاجس أمنى و استقرار مهما كلف الأمر، نجح مبارك فى القيام بهذا العمل الفذ المتمثل فى أنه لم يترك بلاده مطلقا تسقط فى الهاوية. غير أنه لم يقدم لها مطلقاً أيضا، الوسائل التى تتصدى بها لتحديات القرن الواحد والعشرين ، مرفوعة الرأس وقوية التسليح.

ثلاثون عاماً من الاستقرار، لم تسمح تقريباً بالتقدم إلى الأمام .

كان محمد حسنى مبارك، المولود فى ٤ مايو ١٩٢٨، بمحافظة المنوفية، فى منطقة الدلتا ، ينتمى إلى البرجوازية الريفية الصغرى ، المترسخة فى طمى النهر. فى الرابعة والعشرين من عمره ، وحينما أطاحت حركة «الضباط الأحرار» بقيادة عبد الناصر بالنظام الملكى، تخرج مبارك الشاب فى الكلية الحربية.

فى مصر المضطربة هذه، حيث حل أصحاب الرتب العسكرية، وسط ضجة كبيرة، محل الأرستقراطيين وأبناء البرجوازية العليا، سوف يصعد الرئيس درجات سلم النجاح تدريجيا. يصفه أقرانه حينها بأنه رجل كتوم، متحفظ، تقريباً باهت. لا يميل إلى المغامرات، شديد الإخلاص والتفانى لرؤسائه، منضبط تماما. مصدوم مثل كل المصريين، من جراء الهزيمة المهينة فى ١٩٦٧ أمام إسرائيل، كان مبارك على رأس القوات الجوية عندما اندلعت حرب ١٩٧٣،

الهجوم الخاطف على سيناء أتاح للطيران المصرى استعادة مكانته وارتفاع شأنه. وأتاح لحسنى مبارك أن يحاط بهالة من المجد العسكرى الذى سوف يكون واحدا من الدعائم التى سوف تستند إليها شرعيته فى أوساط الجيش والشعب أيضا.

عندما اختير «بطل الحرب» نائبا للرئيس بواسطة أنور السادات عام ١٩٧٥، كان غير معروف لدى الكثير. « عندما استدعانى السادات ، ظننت أنه سوف يعهد إلىّ بإدارة شركة مصر للطيران» هكذا قال مبارك بنفسه مازحا فى إحدى المقابلات الصحفية التى أجريت معه بعد قليل من وصوله إلى سدة الحُكم. أكثر فأكثر صار الرئيس المصرى يعتمد على مبارك وأسند إليه بعض المهام خارج مصر. فى كواليس اتفاقيات كامب ديفيد ، فى ١٩٧٨، أو فى دهاليز القصور الرئاسية فى كل بلاد العالم، تلقى دروسه فى الدبلوماسية الدولية. وأظهر فيها نبوغا، وتبدى قادرا على المحافظة على أفضل العلاقات مع واشنطن كما هو الحال مع موسكو.

فى السادس من أكتوبر١٩٩١، عندما خر السادات صريعا تحت رصاصات بعض العسكريين الذين انضموا إلى صفوف جماعات الجهاد الإسلامى، حل محله نائبه على رأس مصر، الواقعة تحت الصدمة المروعة التى تلقتها. تركة مسمومة، سوف يديرها بطريقته، دون أن يقوم بأى خيارات جذرية مطلقا.

عندما تولى مقاليد الأمور فيها، كانت مصر منبوذة من العالم العربى. كانت الدولة الأولى فى المنطقة التى وقعت معاهدة السلام مع إسرائيل، وكان على الرئيس الجديد أن يدير شئون دولة يعصف بها الإرهاب. أرسل مبارك قتلة السادات إلى حبل المشنقة وأعوانهم إلى السجون . كثيرٌ هم الإسلاميون الذين ألقى بهم فى قيعان الزنازين دون أن تتم محاكمتهم مطلقا، حتى أن أسماءهم لم تكن تظهر فى قوائم المسجونين، كثير من الآخرين لن يتم إطلاق سراحهم حتى بعد انتهاء فترة العقوبة.

مهمومة بالتخلص من المتطرفين؛ شجعتهم الحكومة المصرية منذ بداية الثمانينيات على متابعة طريق الجهاد خارج مصر. سهلت رحيلهم إلى أفغانستان، حيث يحارب المجاهدون الجيش السوفيتى. بالنسبة إلى من بقى منهم فى مصر اختار مبارك الطريقة الخشنة: اعتقل الآلاف من الإسلاميين. فى الصعيد، ووسط مصر، القاعدة الخلفية للجماعات المسلحة، تمارس الشرطة التهديد والتعذيب. سياسة استدعت لوم الجماعة الدولية ومنظمات حقوق الإنسان. تجاه ذلك، أكن الرئيس شعورا بالمرارة. بعد مرور عدة سنوات، جعل الرئيس يشير فى حدة لاذعة، إلى أن الولايات المتحدة التى كانت فيما مضى شديدة الانتقاد له، تستخدم نفس الوسائل فى حربها ضد الإرهاب.

بغرض عزل الإرهابيين، قرر حسنى مبارك أن يبدى شيئا من التسامح تجاه جماعة الإخوان المسلمين، المحظورة نظريا. هكذا سوف يشارك الإسلاميون فى الانتخابات، دون أن يكون لهم وجود سياسى رسمى. حينها بدأت بين السلطة والإخوان لعبة غامضة، ملتبسة وخطرة. على الرغم من تحفظه الشديد واعتداله بشأن سلوكه الدينى الخاص فإن حسنى مبارك، الذى يقال عنه إنه قد شارك فى مطلع شبابه فى بعض اجتماعات الجماعة، ضاعف الرهانات «الصحيحة إسلاميا» لدرجة السماح بتغيير المجتمع جذريا. من بعد تنانير النساء القصيرة فى الثمانينيات، تأتى الأحجبة الملونة، ثم تحل محلها بالتدريج الأحجبة السابغة، ثم يحل النقاب القاتم.

من جهة أخرى، فى مواجهة الإرهاب، لا يتسامح الرئيس مطلقا.

بالنسبة إلى الجماعات الإسلامية المسلحة، كان النظام المصرى قد لطخ تاريخه بوصمة لا تنمحى: إنه الضامن لاتفاقيات السلام مع إسرائيل. إلا أن معاهدة كامب دافيد، التى كلفت السادات حياته ، كادت تصير مرفوضة من قبل الشعب، بينما يتمسك بها مبارك بكل إصرار و براجماتية. بهذه الطريقة، توصل إلى استعادة سيناء فى عام ١٩٨٢، وإلى أن يصبح لاعبا يحتل المرتبة الأولى فى

ملف الصراع الفلسطينى و الإسرائيلى. فرض وجوده كمفاوض طبيعى فى المنطقة وأعطى المبرر لأعضاء الكونجرس الأمريكى فى الموافقة على استمرار المعونة السنوية (تصل إلى نحو ١,٢ مليار دولار) التى تقدمها الولايات المتحدة إلى مصر.

حسنى مبارك يدرك الأمر: موقف الحليف المتميز هذا، هو أفضل وسيلة أمام مصر لكى تظل بين الكبار. تزاحمها المملكة العربية السعودية وإيران، لم تعد مصر القوة الوحيدة الكبرى التى لا يمكن الالتفاف حولها ، التى كانت عليها أيام الحكم الناصرى. للإبقاء عليها فى هذا السباق، لم يتوقف الرئيس عن الظهور بمظهر الزعيم العربى الوحيد القادر على دعم الفلسطينيين بقوة مع استمراره فى الحوار مع إسرائيل. تمرين بهلوانى للتوازن، يقوم به تلاميذ واشنطن الصالحون مجازفين بإغضاب شعوبهم، التى تفضل أن تمجد بكل حماس أشخاصا مثل ياسر عرفات وصدّام حسين، الأكثر تعبيرا بشكل رمزى عن العزة والكبرياء العربيين.

مع إسرائيل، تلك الجارة التى وقعت معها مصر اتفاقا للسلام مع استمرارها فى رفض تطبيع العلاقات ، بدأ مبارك حينها رقصة « باليه» محيرة، تنوعت حركاتها بين الاقتراب والابتعاد دون الوصول لنقطة القطيعة أبدا. لم يذهب إليها إلا مرةً واحدة، فى عام ١٩٩٥، مدفوعا من قبل البيت الأبيض من أجل المشاركة فى مراسم جنازة إسحاق رابين. غير أنه قد ضاعف من عدد الزيارات ومؤتمرات القمة الدولية ، التى يحب عقدها فى شرم الشيخ، المدينة التى يتفاءل بها، والتى جعل منها رمزا لمصر، حيث تمكن من الدفع بها إلى طليعة المقاصد السياحية الأكثر أهمية على ظهر الكوكب.

وفرت هذه اللقاءات بالنسبة إليه فرصا مناسبة، نسج فيها علاقات غالبا ما كانت حميمة مع نظرائه، مثل فرانسو ميتران أو جاك شيراك. دبلوماسيون

فرنسيون ومصريون يتحدثون حتى عن صداقة عميقة تجمعهم به، تغذيها قدرته على إضحاك مستمعيه عن طريق تقليده المبالغ فيه لأقرانه من الحكام العرب. من بين أهم مصادر سخريته كان العقيد القذافى أو حافظ الأسد. بحكم السن، كان التفاهم بينه وبين نيكولا ساركوزى أقل وضوحا، غير أن الرئيس الفرنسى قد جعل من مصر - رغم ذلك - عضوا للمجلس الرئاسى لمجموعة الاتحاد من أجل البحر المتوسط.

بالنسبة إلى القادة الفلسطينيين، حاول مبارك أن يلعب دور العراب القاسى القلب. مع ياسر عرفات ، الذى سيقوم بإعداد مراسم جنازته بالقاهرة، كان الرجل يجد صعوبة فى إخفاء نفاد صبره، لفرط ما كان يجده ناكرا للجميل. استيلاء حماس على السلطة فى غزة ، عام ٢٠٠٧، سوف يضعه فى موقف أكثر حساسية مما كان. لم يغفر مبارك للحكومة الإسلامية، التى كان مضطرا للتعامل معها، أنها قامت بتفجير الجدار الحدودى مع مصر، سامحة لمئات الآلاف من أهالى غزة بالتدفق إلى سيناء. إهانة حقيقية فى واقع الأمر. مبارك الذى لم يزده هذا إلا غضبا تجاه الإخوان المسلمين، الذين يعتقد فى تواطئهم مع حماس من أجل زعزعة أركان حكمه والتسبب فى إسقاطه. لكن هذا التشدد كان له كلفته: حصار غزة الذى لا ينتهى، والأسوأ من ذلك العملية الحربية الإسرائيلية «الرصاص المتصلد» من ديسمبر ٢٠٠٨ إلى يناير ٢٠٠٩، اللذين سوف يزيدان من عزلته عن شعبه.

مع بداية الألفينيات، تزايدت الدعوات المطالبة برفع حالة الطوارئ، المفروضة منذ مقتل السادات. يتظاهر مبارك بالصمم، مشيرا بشكل مستمر إلى انعدام الأمن والإرهاب. هذا القانون الاستثنائى الذى كان له ما يبرره فى أظلم ساعات الصراع ضد الإسلاميين، أصبح وسيلة لخنق كل معارضة سياسية أو اجتماعية. سلاح فى خدمة السلطة، يتيح لها أن تجمع بين حظر المظاهرات ، تقييد حركة النشطاء السياسيين أو الاعتقالات التعسفية .

هذا التعامى عن أخذ أمانى شعبه فى الحرية بعين الاعتبار، سوف يدفع مبارك تدريجياً إلى الارتطام بالحائط . لأنه ، فى تلك الأثناء، كان الشرق الأدنى قد شهد ثورة أولى ، لم يتخيل مدى تأثيرها ، ثورة ظهور القنوات التليفزيونية الفضائية وانتشار الانترنت .

هجومية جدا تجاه مصر، لعبت قناة الجزيرة القطرية دورا أساسيا: تجاسر المصريون، الذين كانوا زمنا طويلا مرعوبين من فكرة انتقاد النظام. محبطين، قانطين، تسحقهم الأزمة الاقتصادية العنيفة ، البطالة ، الفساد ، نقص الحريات المدنية؛ وجد المصريون صدى لمطالبهم . صدى يتردد ، منذ عام ٢٠٠٤، فى شوارع القاهرة، مسقطا الحرم الأخير : الأسرة الرئاسية.

«حسنى مبارك، كفاية! جمال مبارك، كفاية! سوزان مبارك، كفاية !»

لم يكونوا كثيرين فى ذلك اليوم، ١٢ ديسمبر عام ٢٠٠٤، بالكاد أكثر قليلا من مائة شخص، متجمعين فوق أحد الأرصفة أمام دار القضاء العالى. هناك ، فى باريس أو فى نيويورك ، لم يكن لمثل هذا الحدث أن يجتذب اهتمام أقل الصحفيين شأنا ، أما بالنسبة إلى مصر خلال تلك السنوات ، كان ذلك أمرا جللا. لأنها المرة الأولى التى يسمع فيها انتقاد موجه إلى الرئيس وإلى عائلته. يقترب المتسكعون الذين يمرون بالمكان ، غير مصدقين. «كفاية ! .. لقد طفح الكيل !»

على أى حال .... يجب على المرء أن يجرؤ على أن يقول هذا ...

أمامهم، زمرة صغيرة، من المستبعد أن تتجمع سويا: يساريون، إسلاميون، ليبراليون، مسيحيون، مسلمون. الكل ينادى بإصلاح ديمقراطى.

لا يجرؤ أحد على أن يتوقف طويلا. لكن كل من يمر يسمع ، ويتحدث إلى من حوله عما رآه وسمعه ، مندهشا من فرط الجراءة. لم يلزم الأمر سوى بضعة

شهور ، ليصبح نشطاء كفاية، الذين تتابعهم الصحافة الدولية عن كثب، معكرى صفو المشهد السياسى المصرى. فى كل مظاهرة ، تنهمر الضربات ، الشرطة هناك ، أكثر منهم عددا بعشر مرات. إنها موجودة دائما يرافقها بلطجيتها الذين يقومون بالتعدى على المتظاهرين.

كان ٢٠٠٥ عاما مهما: تعاقب فيه اثنان من الاستحقاقات الانتخابية، رئاسية ثم برلمانية. واشنطن تضاعف من دعواتها إلى تعميق الديمقراطية فى الشرق الأدنى. حسنى مبارك يحرص على ألا يفقد مكانه كتلميذ صالح. كما أنه لا ينوى أيضا أن يترك المعارضة تتمكن منه. فى ذلك العام، وبناء على ما تقدم، قام مبارك ببعض التنازلات، منها تنظيم انتخابات تعددية بدلا من الاستفتاء الشعبى المعمول به حتى ذلك الحين. غير أن المقصود كان إجراء إصلاحات ظاهرية، فالرئيس يرفض أن يقوم بإجراء تحول ديمقراطى حقيقى.

بل على العكس من ذلك، فأيمن نور منافسه الرئيسى فى الانتخابات الرئاسية، تم سجنه. الآلاف من رجال الشرطة يتم الدفع بهم على عجل فى الشوارع لاعتراض أصغر مظاهرة ، مداهمات المعارضين واعتقالاتهم تتضاعف أعدادها . خلال بضع سنوات أثار مبارك نفور كل المصريين تقريبا.

مشاعر عدم الرضا التى عبرت عنها حركة « كفاية تبلورت فى رفض »حكم أسرة مبارك. «باطراد كان المصريون فى واقع الأمر يعتقدون أن ابن الرئيس الثانى ، جمال ، مصرفى ليبرالى، يعد نفسه كى يتولى خلافة أبيه. ودائما كان حسنى مبارك يكذب هذه الفرضية. غير أن رفضه تعيين نائب رئيس، كما فعل كل من سبقوه من الرؤساء، يغذى هذه الظنون.

طرحت مسألة خلافة الرئيس نفسها بقوة منذ السادس والعشرين من يونيو سنة ١٩٩٥ . فى ذلك اليوم، كانت الشمس قد أشرقت لتوها فوق أديس ـ أبابا،

العاصمة الأثيوبية. حسنى مبارك يحتل المقعد الخلفى فى السيارة المصفحة. التى تمسك بإحضارها من القاهرة اللواء عمر سليمان مدير المخابرات، مخالفا آراء الجميع. جالسا إلى جواره، كان الرجل يشاهد تتابع الطريق الذى يؤدى إلى المبنى الذى تنعقد فيه قمة الاتحاد الأفريقى ، عندما صار الموكب هدفا لنيران أحد الفدائيين الإسلاميين . قتل اثنان من رجال الشرطة . لكن الرئيس ومدير المخابرات، فى مؤخرة السيارة ، خرجا سالمين بفضل دروع السيارة الرئاسية. لم تكن هذه هى المرة الأولى التى ينجو منها الرئيس من محاولة اغتيال. غير أن منجلاً من الموت فى هذه المرة ، قد مر قريبا جدا من عنقه. وفى مصر تساءل الكثيرون: من سيقود البلاد إذا اختفى حسنى مبارك ؟

فى شهر نوفمبر٢٠٠٣، وخزة للتذكير: أصيب الرئيس بوعكة أثناء الخطاب الذى كان يلقيه أمام مجلس الشعب. علق التليفزيون المصرى، الذى كان ينقل الحديث مباشرة، برامجه وسرعان ما انتشرت قوات الجيش فى محيط البرلمان. إنذار زائف: حسنى مبارك، منقبض الوجه، يستأنف خطابه بعد ٤٥ دقيقة من التردد بين الخوف والرجاء. لكن حينما شرع جمال فى مشوار صعوده السياسى، تأيدت الأفكار النظرية حول إمكانية انتقال وراثى للسلطة. يخيم على مصر جو مؤامرة، يرتاب خلاله كثير من المصريين فى مدى نفوذ حرم الرئيس، المصرية الإنجليزية سوزان.

بأزيائها فائقة الأناقة وشعرها المصفف بكل إتقان، كانت سوزان مبارك شخصية معروفة لدى المصريين. امرأة متميزة، دائمة الحضور فى كل ما يتعلق بالقضايا الاجتماعية ، خصوصا تلك التى تمس موضوعات الطفولة ومحو الأمية. فى هذه المجالات لن تفلت أى منظمة أو جمعية خيرية من وصاية المجلس الوطنى للمرأة والطفل الذى أنشأته سوزان مبارك، على صدر الصفحات الأولى من الجرائد الرسمية، كانت صورتها وأعمالها من بين الواجبات اليومية المفروضة.

لوقت طويل وبابتسامة متهكمة ، كان المصريون يعلقون على نفوذ هذه السيدة الأولى ، التى قالوا عنها إنها صانعة الوزراء . كانت الحامى الأمين لوزير ثقافة حسنى مبارك الأبدى ، فاروق حسنى ، الذى حاولت سدى أن تفرضه على منظمة اليونسكو فى عام ٢٠٠٩، الساحرة الطيبة الراعية لزاهى حواس ، رئيس المجلس الأعلى للآثار المصرية ، ذائع الصيت والمحب جداً للظهور ، كابوس فرق التنقيب الأثرى الأجنبية التى كان يرهبها بالشروط التى كان يفرضها ، وعندما أعلنت صحيفة الجارديان البريطانية ، فى فبراير عام ٢٠١١، أن ثورة آل مبارك العائلية يمكن أن تبلغ سبعين مليارا من الدولارات، كانت سوزان بنفسها، تملك ملياراً فى حساباتها الخاصة. الصحافة المصرية من جانبها اتهمت حرم الرئيس بالاستيلاء على جزء المعونات المالية التى قدمت إلى مكتبة الإسكندرية، الأمر الذى نفته هذه الأخيرة .

ينسب إليها، أكثر من زوجها، أن كانت وراء دخول ابنهما جمال إلى فلك السياسة. أكثر من كونه ابناً لأبيه، كان جمال ابنا لأمه. خلال عشر سنوات تقريبا ، تحول هذا المصرفى مؤسس شركة Medinvest مؤسسة استثمارية سوف تكون وسيلة لثرائه ، إلى حيوان سياسى ، أحد كبار الشخصيات البارزة فى حزب السلطة، ويُنظر إليه فى الخارج باعتباره عين أعيان النظام.

منذ خطواته الأولى فى عالم السياسة يقال عنه إنه «بابا بيل مثالى »، (تعبير إيطالى غير رسمى يشير إلى من قد يصير البابا من بين الكرادلة المرشحين لهذا المنصب. المترجم.)

سبتمبر ٢٠٠٤

الحزب الوطنى يعقد مؤتمره السنوى، بكلفة باهظة، قام بدعوة بعض أعضاء الأحزاب السياسية الأمريكية والأوربية مثلما دعا بعض الشخصيات الدولية ، إلى متابعة أعماله. خصصت سهرة لهذه الشخصيات الأجنبية فائقة الأهمية ،

طاف خلالها جمال وسط مدعويه ، حاملا مكبرا للصوت داعيا إياهم إلى طرح كل الأسئلة، حتى أكثرها حساسية . من بينهم ، نواب فى مجلس العموم البريطانى ، «مندهشين من حرية التعبير بلا تحفظ ومن قدرة جمال على النقد الذاتى «إنه يبدى تمكنا لا يمكن إنكاره من ملفاته ! «اعترف أحد الدبلوماسيين الأمريكان ، مخدوعا. دبلوماسى آخر أوربى، زايد على الأمر: «فى نهاية المطاف، فإن اسم عائلته هو معوقه الأساسى «عملية تسويق موفقة لجمال مبارك، المعين فجأة رسولا للتغيير والإصلاحات، فى غياب المعارضين السياسيين وعدم اتفاقهم.

من أكثر دعاة الليبرالية غلواً، كان المصرفى اللندنى السابق مقربا جدا من أوساط الأعمال الأمريكية ، التى كانت تبارك صعوده . اتخذ جمال من اثنين من مستشارى والده الأكثر نفوذا مرشدين له ، أسامة الباز و زكريا عزمى، الحاضرين بقوة إلى جوار الرئيس خلال أيام الثورة . بضع سنوات قليلة كانت كافية حتى يتسلق جمال الدرجات فى الحزب ، حتى صار رئيسه فى واقع الحال . فى الخارج يستقبله رؤساء الحكومات أو مستشاروهم . إنه الرجل الذى لا يمكن الالتفاف عليه .

فى صيف ٢٠٠٤، فى ميدان التحرير كانت صورته الجانبية العملاقة إلى جوار الأبطال الرياضيين الحاصلين على أولى الميدليات الأولمبية المصرية منذ عام ١٩٨٤، تثير استهزاء الرأى العام . لكن نفوذه كان يتسع ، للمرة الأولى يدخل رجاله إلى الحكومة ، فى المناصب المتحكمة فى الاقتصاد ، أولوية الدولة التى كانت تخرج بعناء شديد من أزمة كاسحة. رحبت أوساط الأعمال والمؤسسات المالية الدولية ببروز « مكتب جمال» المفعم بالقوة والنشاط، العصرى والفعال.

بدا أن العالم كله قد نسى الوشاة، على كثرتهم، الذين تعلقوا باسم مبارك، لكن المصريين لم ينسوا، أطلقوا المزيد من النكات اللاذعة على ابنى الرئيس.

الابن البكر، علاء، رجل أعمال مزدهر الأحوال، كان لعدة مرات شريكا فى أعمال تتصف بالاحتكارية والسيطرة غير النزيهة على الأسواق. هل صار علاء شخصا محروقا ؟! يبقى. جمال، الأقل تعرضًا للأنظار. لكن، فى عام ١٩٩٧، عندما تهيأت جريدة الشرق الأوسط السعودية لنشر تحقيق عن الأوضاع المالية للأخوين، ووعدت بالكشف عن عمولات ربما حصل عليها الأخوان فى عملية شراء طائرات لصالح شركة مصر للطيران؛ قام نجلا الرئيس بمقاضاة الجريدة، متمتعين بالشفاعة، وتم الحكم بحبس الصحفيين.

عندما خلف بشار الأسد والده ، حافظ ، فى رئاسة سوريا عام ١٩٩٩، تهكمت مصر علانية من الجمهورية الملكية . غير أنها وبعد عدة سنوات سوف تبدأ بدورها فى التساؤل بشأن ذات الموضوع . الجيش ، هذا الصامت الأعظم ، ماذا يرى حقيقةً فى هذا الجمال ، الذى لم يقم حتى بأداء خدمته العسكرية ؟ بإصرار ، تقول الشائعة إنه لا يريد جمالا. إلا أنه لا أحد يستطيع أن يجزم بذلك. الصمت الكاكى اللون لا يمكن اختراقه تقريبا . وعندما شرع عالم الاجتماع المصرى الأمريكى ، سعد الدين إبراهيم المشرف السابق على أطروحة السيدة الأولى، والمناضل فى مجال حقوق الإنسان ، فى التنديد بعنف بهذه الجملوكية، انتقلت المؤشرات إلى اللون الأحمر؛ وحكم على الرجل بسبعة أعوام من الحبس. رسميا لأنه قد استغل، ودون وجه حق ، أموالا منحها الاتحاد الأوربى لمنظمات العمل المدنى الوطنية الموكول إليها مراقبة الانتخابات.

الهجوم على جمال يتصاعد؛ تكونت حركة «كفاية» ؛ فى كل المظاهرات ، يتم التشهير بعملية « توريث السلطة» «التى يجرى تنفيذها. غير أن حسنى مبارك لا يصغى إلى هذه الرسالة ، يتيح لزوجته مواصلة العمل على تصعيد ابنهما . الذى كان ينفى ، فى كل مرة تجرى مقابلته ، أى طموح رئاسى بحركة من ظاهر يده .

وتواصل الجماعة الدولية الاهتمام عن كثب ب « جيمى» كما يسميه أصدقاؤه يجرى استقباله فى باريس ، وفى واشنطن. حسنى مبارك صار عجوزا، مريضا

يجب الإعداد للمرحلة القادمة لا يهم ، إذا كان الرئيس، حليفًا قديمًا ، قد أغلق أبواب النظام السياسى ، قام بسحق معارضيه ، سجن معارضيه.

لا يعنيهم كثيرا أن يذهب مبارك حتى إلى تغيير الدستور ، بتمرير التصويت فى البرلمان ، عام ٢٠٠٧، على سلسلة من التعديلات الموجهة لإخلاء طريق المقعد الرئاسى أمام جمال . مصر كلها تنقسم ، تمتعض من جراء هذا الانتقال المشين إلى أسلوب القوة ، بينما تستمر الجماعة الدولية فى غض الطرف عن مبارك الأب والابن : تواطؤ تام.

عماد الدين حسين لم يعد يحتمل أكثر من ذلك، فى عام ٢٠١٠، أصاب اليأس هذا الصحفى، كاتب الافتتاحية فى جريدة الشروق الجديد المستقلة. « إن الاعتقاد بأن الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبى يهتمون بمصير الانتخابات التشريعية المصرية يعد ضربا من البلاهة ، هل سوف ترضى واشنطن ، بروكسل أو تل أبيب إذا فاز الإخوان المسلمون فى انتخابات تجرى فى مناخ نزيه. الإجابة هى « لا » .إن الغرب يتمنى، بكل تأكيد، فى أفضل الحالات أن يرى البلاد التى يدعمها، تتمتع بالديمقراطية وبالتعددية الحزبية . لكنه لكى يحافظ على مصالحه، قد ساند وبشكل دائم أنظمة قمعية مستبدة ولسوف يستمر فى عمل ذلك».

الإمبراطور، زوجته والأمراء الصغار. كان الشعب يكره الأسرة ، أكثر مما يكره الرئيس نفسه . علاء الذى تشنع الناس عليه منذ عشر سنوات عاد ليحظى ببعض العفو والقبول بسبب مباراة فى كرة القدم بين مصر والجزائر، عندما تمكن غضبه، شعبى النبرة، من أن يمس القلوب. بعكس جمال، الذى ظل، وهو فى السابعة والأربعين من عمره، رصينًا، جاف الطباع.

عندما سقطت أسرة مبارك، فى مساء ١١ فبراير عام ٢٠١١، كتبت الصحافة المصرية عن هذه الأسطورة ، عبر إذاعة مجموعة من الأسرار التى لا يمكن

القطع بحقيقتها. صحيفة الأخبار، أوردت أن نقاشا، إغريقى الدراما، قد دار بين نجلى الرئيس ، خلف أسوار القصر الرئاسى. « لقد أفسدت البلاد عندما فتحت الباب أمام أصحابك من رجال الأعمال، وها هى ذى النتيجة ! بينما كان يحق لأبيك أن ينعم بالتكريم فى نهاية حياته، ها أنت قد لوثت سمعته «قال علاء صارخا» .

البقية، هى ما ترويه جريدة المصرى اليوم . سوزان التى أغشى عليها رعبا من هذا الشجار. وحسنى مبارك الذى التفت ناحية جمال قائلا: « أنت وأمك مسئولان عن كل هذا ! لقد دمرتم صورتى واسمى فى التاريخ».

سبعون مليارا من الدولارات. من ميدان التحرير إلى أعماق الريف المصرى، سرى الرقم الذى أعلنته صحيفة الجارديان البريطانية، تتنافس فى ترديده الجماهير غير المصدقة .

« سبعون مليارا، هل تتخيل ؟» عماد حسين يضرب بيده على عجلة القيادة ، مرت نصف ساعة، ومازالت سيارته الأجرة عالقة فى إحدى المظاهرات التى كانت تندلع هنا وهناك منذ قيام الثورة فى مصر. هنا المعاقون. هناك، الموظفون. أمام مجلس الشعب، فى أغطيتهم الرثة المتسخة الملفوفة على الأرصفة، كان هنا المطالبون بالحصول على مأوى. « بهذا المبلغ ، كان من الممكن عمل شىء، أشياء، مدارس، مستشفيات، طرق، مساكن، يا الله!»

عماد حسين يعيش فى واحدة من هذه العشوائيات المنتشرة، على محيط العاصمة. فى مسكنه، لا يخرج الماء من الصنبور، لم يتم توصيله بالشبكة بعد. عماد ، لا يعرف القراءة ، كما هو حال نحو ثلاثين فى المائة من المصريين ، غير أنه يحاول أن يتابع فى الجرائد هذه الاكتشافات المذهلة حول ثورة آل مبارك . سبعون مليارا ! الرقم خرافى ، فرعونى ، لا يمكن التحقق منه وربما كان مبالغا

فيه : إنه يمثل تقريبا نصف احتياطى النقد الأجنبى لدولة الجزائر ، التى تكدس ثروات طائلة من بيع بترولها وغازها . إذا قسم بشكل فردى ، فسوف يجعل من مبارك ، الذى ينسب إليه وحده خمسة عشر مليارا من الدولارات ، رجلا فى مثل ثراء ملك المملكة العربية السعودية.

يعود أصل ثروة مبارك، كما تقول الجارديان، إلى الوقت الذى كان فيه مبارك قائداً للقوات الجوية المصرية : لابد من أنه قد حصل على عمولات من عقود التسليح . وفيما بعد، لابد أن مبارك وعائلته قد كانوا أول المستفيدين من التشريع المصرى الذى يوجب على المستثمرين الأجانب أن يتخذوا شريكا محليًا يمثل نسبة عشرين بالمائة على الأقل، منجم أتاح فرصة تحقيق ثراء فاحش ، أمام رجال الأعمال ، والسياسيين وقدامى العسكر ، الذين أصبحوا « عرابين » امتلأت جيوبهم بسرعة . على هذا النحو ، كان علاء وجمال مبتكرى نظام احتيال عبقرى ، تم الإعداد له منذ التسعينيات ، يعتمد على شركاء غير شرعيين احتكارات ، العلم المسبق بالمشروعات ، والمضاربة على الديون المصرية .

التاكسى لا يتحرك من مكانه . فى شارع قصر العينى ، يعوق المتظاهرون دائماً حركة المرور. فى خلال تلك الأسابيع التى تلت الثورة ، تنحدر مصر إلى الفوضى أكثر فأكثر . فى كل يوم ، لا تؤدى اكتشافات الصحافة حول خفايا النظام ، إلا إلى زيادة الإحساس بالمرارة لدى شعب يعانى من آثار الثورة . لم يكن أحد يجهل مشكلة الفساد و تغول رجال الأعمال. غير أن أحدا لم يكن يقدر حجمها» . هل تعرف نكتة مستشار مبارك ، الذى ذهب لرؤيته وقال له: «الشعب جعان يا ريس ، وممكن يأكل حتى الطوب؛ «فرد مبارك: «طيب فكرنى أبقى أقول لعلاء أن يشترى كل الطوب اللى فى البلد».

عماد يضحك، من وراء قلبه. اقتصاد البلد يترنح. البورصة لم تعد فتح أبوابها وصفحات الجرائد تموج بالشائعات عن تحركات مفاجئة ومتسارعة لأصول مالية ، هروب مكثف لرؤوس الأموال . وهنا يتذكر المرء فجأة ، أنه خلال

حالة الارتباك التى صاحبت بداية الثورة ، أن جهاز الانترنت الوحيد الذى ظل يعمل فى تلك الأيام ، كان الجهاز الذى يربط بين بورصة القاهرة وباقى أسواق العالم المالية .....

مساء الأمس ، صر عماد على أسنانه عندما كان يشاهد التليفزيون ، موزعا بين الرضا والغضب . كانت محاكمات شلة «جمال» قد بدأت . فى تلك الأقفاص المشينة ، حيث يوضع المتهمون فى المحاكم المصرية ، يمكننا أن نرى منذ الآن وجوهاً مألوفة . مثل وجه أحمد عز .

عز ، الملياردير ، قطب صناعة الصلب ، رجل الحزب الوطنى القوى، الذى تتهمه قوى المعارضة بتزوير الانتخابات البرلمانية فى عام ٢٠١٠، كان يمثل بمفرده ، جنون هذا النظام، الذى طالبت الجماهير ، خلال ثمانية عشر يوما خلت ، بالخلاص منه . أول الضحايا التكفيرية لعملية «الأيدى النظيفة» التى اندفعت إليها السلطة المصرية الجديدة ، مضحية بالعشرات من كبار أصحاب الأعمال والوزراء القدامى ، الذين تم تجميد أرصدتهم ، متابعتهم قضائيا بتهم الفساد ، تبديد موارد الدولة أو غسيل الأموال.

«إننى حريص على أن أقدم اعتذارى عن هذه العشرين دقيقة من التأخير. إن هذا لن يتكرر ثانية . لا أنتم ولا أنا لدينا وقت نضيعه ».

عندما قدم أحمد المغربى ، وزير السياحة الجديد ، نفسه إلى الصحافة، مبهور الأنفاس ، فى ذلك اليوم من صيف عام ٢٠٠٤، كان لا يزال وجها غير معروف فى سماء السياسة المصرية : رئيس مجموعة فنادق آكور فى مصر وأول من دخل الحكومة المصرية من رجال الأعمال.

أحمد المغربى، واحد من طليعة المؤمنين بجمال مبارك، الذى صاحبه فى صعوده السياسى الخاطف، منضماً منذ بداية الألفية إلى مجلس إدارة «جمعية

أجيال المستقبل» التى أنشأها جمال. فى هذا البلد، الذى ليس من النادر فيه أن يتساءل المرء عما إذا كنا نتحدث بالتوقيت العالمى أم بالتوقيت المصرى، الأكثر تقريبية، لم يكن دخول المغربى فى الموضوع أمام الصحافة سوى عبارة مجاملة. لقد كان ذلك إشارة قطيعة مع نظام سابق، انطلاق ديناميكية جديدة من أجل إنعاش اقتصاد يفتقر إلى دماء جديدة.

رئيس الوزراء، أحمد نظيف، يشرع لتوه فى مشروع طموح: تحرير البلاد من قيود اقتصاد سوفيتى (اشتراكى) ـ خصخصة ، تطوير قطاع البنوك، تحديث القوانين التى تحكم أطر النشاط الاقتصادى... وهلم جرا : تتسارع الاستثمارات الأجنبية مندفعة إلى هذه الجنة الجديدة ، أسعار البورصة تحلق عالياً ، معدل النمو يتجاوز السبعة بالمائة ، انخفضت قليلا بتأثير الانهيار المالى عام ٢٠٠٨ .

المؤسسات المالية الدولية تتنازع أفضل تلاميذ المعجزة المصرية : يوسف بطرس غالى ، وزير المالية تم انتخابه على رأس لجنة النقد والمال F M I فى عام ٢٠٠٨، محمود محيى الدين ، وزير الاستثمار ، أصبح مديرا تنفيذيا للبنك الدولى فى شهر سبتمبر عام ٢٠١٠، أحد الدبلوماسيين الغربيين سوف يتحدث ، بعد ذلك بأثر رجعى، عن « حالة عمى عامة» مذهولين من حجم الغضب الذى قلل كثير من الدبلوماسيين الغربيين من أهميته ، سوف يكون على الكثير منهم ، كما كان الحال بالنسبة إليه، الاعتراف بذلك « إننا لم نضع أية إشارة تحذير . الكل كان لديه رغبة فى تصديق ما يجرى».

غير أنها، إذا كان سيل من الأموال قد تدفق على مصر ، فإن قليلا من المصريين هم من رأوا لون هذه الأموال . بعكس رجال الأعمال المقربين من السلطة، الذين تفجرت ثرواتهم . «رأسمالية الأصدقاء» «هكذا تلخص الوضع جريدة » لوموند – Le monde - العالم ـ الفرنسية ، حيث يصير من الصعب التفريق بين ما هو إجرامى تماماً ، وبين ما يتعلق بجريمة الاطلاع المسبق على

بعض أسرار العمل ، أو بطريقة عمل هذا النظام الملتوية ، بدءًا بالمفاوضات التى لا تنتهى مع الجيش من أجل الحصول على أقل رخصة بناء « كما يوضح أحد الدبلوماسيين» .

فى نظر المصريين، كان أحمد المغربى، يجسد منذ البداية هذا الاقتراب المتحرر نفسيا من السياسية، العلامة التجارية المسجلة لـ « شلة جمال ». ردا على سؤال أحد الصحفيين، الذى أبدى اندهاشه، من أن المغربى، بعد عدة أيام من تعيينه ، لم يكن قد تنازل عن مناصبه فى مجموعة «آكور» وهو ما سيقوم به بعد عدة أيام، قال وزير السياحة ، بكل اطمئنان، وابتسامة ساحرة، إن كل ما هو فى صالح شركته، هو أيضا فى صالح البلد.

ـ أليس هناك تضارب فى المصالح ؟ يسأل الصحفى فى إصرار.

ـ لا ... إطلاقا . انظر إلى سلفيو برلسكونى فى إيطاليا -لا يسبب هذا أية مشكلة ، يجيب الوزير.

تنفجر القاعة ضحكا. بينما يبدو المغربى ، عن نفسه ، فى غاية الجدية.

فبراير ٢٠١١

بعد أسبوعين تقريبا من نهاية الثورة ، أمام أحد المحاكم ، فى لباس السجناء الأبيض ، سيكون على أحمد المغربى ، الذى صار وزيرا للإسكان فى هذه الأثناء ، أن يرد على قائمة لا تنتهى من الأسئلة ومن الاتهامات بالفساد . مثل زهير جرانة الذى آلت إليه حقيبة وزارة السياحة ، قطاع فى قمة النمو والازدهار؛ والذى وجهت إليه تهمتا استغلال وظيفته العامة لتحقيق مكاسب شخصية وكذلك إهدار موارد الدولة. أنكر جرانه كل ما نسب إليه جملة واحدة، غير أنه قد اقترح بعد قليل أن يقوم بسداد «ديونه » فى مقابل إلغاء المتابعة القضائية ضده، اقتراح رفضته المحكمة.

كان تخصص أحمد المغربى ، كما تقول الصحافة القاهرية ، هو المضارية المالية والعقارية . بشكل خاص ، اتُّهم الوزير بالتوقيع على أوامر بيع أراضى الدولة بأسعار منخفضة للغاية لصالح شركة بالم هيلز العقارية ، شركة كان هو شخصيا أحد المساهمين الكبار فيها ، متخصصة فى بناء منتجعات راقية فى محيط مدينة القاهرة .

مرحبا بكم فى قلب النظام.

خط مستقيم يبدو بلا نهاية . شريط من الإسفلت يشق الرمال ، يبدأ من بعد أهرام الجيزة بقليل . طريق طويل يشقه بالليل والنهار موكب من العربات التى تجرى بسرعة قاتلة . باتجاه مدينة ٦ أكتوبر . مشروع تم البدء فيه عام ١٩٧٩»

«مدينة جديدة» كان القصد منها تخفيف الزحام عن القاهرة .

فى عام ٢٠١٠، كانت مدينة ٦ أكتوبر تضم خمسمائة ألف نسمة ، حسب ما يقول التعداد الرسمى ، سبع جامعات خاصة على الأقل ، كيلومترات من مواقع البناء المنتشرة فوق الرمال . تلال أحجار البناء ، تجاور بنايات تحت التشييد ، تنتصب منها أسياخ حديد التسليح ، تتاخم مبانى مغطاة بالزجاج المدخن ، تنتصب بين روافع البناء العملاقة ، المنهمكة فى تشييد قطع من الأرض المقسمة المتميزة إحداها عن الأخرى . مجمعات سكنية ذات مداخل مزخرفة غاية فى التنميق ، بوابات هائلة ، تكتنفها الحواجز ومظلات رجال الأمن . على الجانبين لوحات إعلانية عملاقة ، تمتد لمئات الأمتار . المدينة الملكية ، مدينة الأحلام ، الأبراج الملكية ، تلال النخيل ..... منتجعات فاخرة حسب مواصفات خاصة لاجتذاب الأغنياء الجدد من المصريين ، الراغبين فى الهروب من ازدحام العاصمة، مع مراكز تجارية، مدارس خاصة، مساحات خضراء، ملاعب جولف أو بحيرات ملحقة بها. بالنسبة إلى الكثيرين، ما زالت فارغة. بالنسبة إلى الآخرين

مليئة بمصر الجديدة هذه ، المعزولة عن حقيقة البلاد الاجتماعية. قضية بالم هيلز أو مدينتى ، التى ثارت قبيل الثورة بعدة أسابيع ، كانتا فى قلب الفضائح السياسية المالية المدوية ، التى وجهت أضواءً ساطعة على ممارسات شركات الاستثمار هذه . النقطة الأكثر بروزا من جبل ثلج الفساد واستغلال السلطة الذى لم يعد النظام قادرا على إخفائه.

المنصورة .. دلتا النيل .. ربيع ٢٠١٠

هناك شيء ما سوف يتعطل فى هذه الآلة .

كان له وجه مستدير كبطنه . متكئا ، يتابع بناظريه الجماهير المتلاحمة فى الشارع حول محمد البرادعى. العائد لتوه من النمسا، حيث أنهى فترة ولايته على رأس الوكالة الدولية للطاقة الذرية، كان الرجل الذى تقدمه الصحافة الدولية باعتباره القائد المحتمل لحركة المقاومة، يبدأ جولة بين المحافظات.

الرجل الذى يتحدث ليس من أنصار محمد البرادعى. إنه هنا بدافع الفضول ، مندهش ، عندما رأى الشارع قد اسود من الرؤوس عند الإعلان عن وصول هذا السياسى. صاحب أحد المصانع الصغيرة ، حيث ينهمك أقل من مائتى عامل فى إنتاج مشغولات بلاستيكية . العمل يجرى على ما يرام ، الحمد لله بما يكفى لدفع أجور العاملين ، ورواتب الموظفين ، تكاليف دراسة ابنه البكر فى الخارج ، المدرسة الثانوية الخاصة لابنته الوسطى ، القيام بأجازات منتظمة مع زوجته ، مسكن لائق . غير أنه يشعر بالقلق . من قبل أن تبدأ الثورة بعام ، كان يشعر، حدسا، أن النظام قد تهور كثيرا، إنه على حافة تجاوز الحدود الآمنة.

انظر إلى هؤلاء الناس الملتفين حول البرادعى. إنهم لا يعرفونه، غير أن الرغبة فى التغيير تستبد بهم لدرجة أنهم قد يتبعون أى شخص. إنه شخص مثير للاهتمام ، هذا البرادعى ، لكنه لا يعرف كيف يسير بلدًا. خسارة. خسارة

يستدير الرجل ، ويغرز عينيه مباشرة فى عيون محدثه.

- لقد نجحت فى بناء مصنعى وفى تكوين ثروتى بفضل مبارك. لا يمكن أن أشكو أو أتذمر. بفضل الدولة، دعيت إلى صالونات المعارض فى الصين ، وكل أنحاء العالم . كونت ثروة . أعيش حياة مترفة . بل انظر إلى سيارتى، فى الصباح ، عندما أغادر منزلى، أرى بوضوح العيون الحاسدة للشباب الصغير الذين يسكنون فى آخر شارعى، والذين لن يكون باستطاعتهم مطلقا أن يشتروا إطارا من إطارات سيارتى. إننى أراهم يتطلعون إلى منزلى. فى حسد، بينما يكدحون من أجل أجور بائسة.

جمال مبارك لم يفهم أن كل المصريين يجب أن يشعروا بمزايا النمو الاقتصادى . هؤلاء الناس يجب أيضا أن يجنوا ثمار هذا النمو ، أن تكون لهم ظروف حياة أفضل . هذا أمر حتمى ، إذا كنت أود الاستمرار فى الاستمتاع ببيتى ، سيارتى ، أموالى . وإلا فأنت تعرف ما الذى سوف يحدث ؟ يوما ما، سوف ينفجرون ينقلبون ضدنا.

الجيش فى مواجهة الشرطة
الجيش والشعب إيد واحدة
القاهرة ٢٨ يناير ٢٠١١

عندما هبط الليل، رآها أحمد تتوافد من أعلى شارع قصر النيل. واحدة، اثنتان، ثلاث، بعد قليل عشر من المدرعات رملية اللون. الجيش. فطريا اندفع تلميذ الثانوى ذو السبعة عشر ربيعا جريا فى أحد الشوارع الجانبية المجاورة بحثاً عن ملاذ آمن. توقف فجأة بعد أن قطع نحو عشرين مترا، كما لو كان يستغرب ردة فعله، قبل أن يعود أدراجه، ليلتحم بالجماهير من جديد ويشهد، بعيون محملقة وصول العسكر.

وفى تلك الجمعة، كان أحمد ورفاقه قد تناوشوا مع رجال الشرطة طوال النهار. فى نهاية الشارع يسد رجال الشرطة منافذ الدخول إلى ميدان التحرير. حرب مدن حقيقية، أحجار فى مواجهة قنابل الغازل المسيل للدموع، الطلقات المطاطية والخرطوش.

سقط بعض المتظاهرين، العديد من الجرحى، بعض القتلى، إما رميا بالرصاص، أو اختناقا من جراء سحابة الغاز السام الكثيفة، لكن الباقين واصلوا. إرادة حديدية ضد طوفان من دروع الصلب.

قبل ذلك بعدة ساعات، كانت قوات الشرطة قد اختفت، فجأة، من شوارع القاهرة، تبددت فى غمضة عين. فيما عدا محيط وزارة الداخلية، فى وسط المدينة ، بالقرب جدا من ميدان التحرير، حيث تسمع أصوات الطلقات منذ الظهيرة. أصوات انفجارات مقبضة تطن على واجهات العمائر. يتردد أحمد

وأصدقاؤه. من المستحيل معرفة ما يدور. الهواتف المحمولة، المقطوع إرسالها منذ الصباح، ظلت على صمتها العنيد.

بحلول الليل تجسدت الإجابة، عندما وصلت عربات النقل الكبيرة، محملة بجنود فى لباسهم البيج والكاكى. بعدها جاء الضجيج المنذر والمبشر لجنازير الدبابات، مسدودة فوهات المدافع بعناية واضحة . بعد برهة من التريث والتردد. بدأت مشاهد الود والتآخى. حرس شرف، آهات فرح، مظاهر ابتهاج عام، جديرة بلحظة دخول جنود البحرية الأمريكية إلى المدن الفرنسية عام ١٩٤٤، استقبل العسكريون فى مصر فى ذلك المساء استقبال الفاتحين المحررين.

«الجيش والشعب إيد واحدة » ردد المصريون هذا الشعار طوال أيام الثورة، كأنه تعويذة. لصرف شياطين تخوفهم ثم، بسرعة جداً، بثقة لا تتزعزع. بل بثقة عمياء. ألم يكن الجيش دائماً فى قلب النظام منذ قيام الانقلاب العسكرى الذى نفذه الضباط الأحرار فى عام ١٩٥٢، لقد قدم إلى مصر كل رؤسائها، من بينهم مبارك، قائد القوات الجوية السابق .

يعتبر الجيش نفسه الضامن للدستور، حجر الزاوية الذى قام عليه النظام والذى يعتمد عليه دائما.

كان هذا الجيش الذى لا نتكلم عنه إلا بصوت خفيض، محاطا أيضا بهالة من المجد، بفضل عبوره المظفر لقناة السويس فى بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣، ضد إسرائيل. فى السادس من أكتوبر من كل عام، يجرى تكريم الجيش، من خلال عرض أفلام وثائقية تشيد به بصورة لا تتقطع فى التليفزيون المصرى. ينظر إلى الجيش باعتباره مؤسسة محايدة خاصة من الناحية السياسية: إنه النقيض من الشرطة التى تجسد كل تجاوزات وتعسف جهاز السلطة القمعى. أما العسكريون، فعلى العكس، كانوا قد انسحبوا تدريجيا من التدخل فى الشئون الداخلية فى عهد حسنى مبارك. فى الظاهر على الأقل. وإذا تدخلوا، فيكون ذلك من أجل الصالح العام، كما حدث عام ٢٠٠٨، عندما استعان الجيش بمخابزه فى إنهاء

أزمة نقص الخبز المدعوم، غذاء الفقراء الأساسى. ما كفل له إكمال سمعته الطيبة المتسمة بالنزاهة والفاعلية، على العكس من السلطة السياسية المتهمة بالفساد.

يوم ٢٩ يناير، فى ميدان التحرير، غارقا فى الزحام، كان أحدهم يحاول أن يقتنص الحديث مع من يمرون أمامه. يقول الرجل إنه عسكرى متقاعد، عقيد سابق ويقول فى ثقة:

ـ منذ وقت طويل، قال بعضنا إن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا النحو. لقد حذروا السلطة وأخطروها بأن عليها أن تعيد الأمور إلى نصابها.

ينظر الرجل إلى جوار الدبابات، حيث يتلاحم الناس، تمد النسوة أطفالهن إلى الجنود لالتقاط صور للذكرى، تلمع عيناه فرحا.

ـ سوف يعيد الجيش إلى مصر عزتها وكبريائها.

إلى أية ناحية سوف يميل ؟ فى ذلك اليوم ، كان السؤال بعيدا عن الحسم. فى المرة الأخيرة التى اجتاح فيها الجيش شوارع العاصمة، ضربت البلاد عاصفة. وقع ذلك خلال عام ١٩٨٦، عندما خرجت قواته لتسحق وسط هدير الدبابات والمروحيات الحربية حركة التمرد التى قام بها بعض صغار رجال الشرطة. احتجاجاً على رواتبهم الهزيلة. رسميا، أسفرت عملية الردع عن ستة وثلاثين قتيلا وبعض الجرحى.

فى الأيام الأولى من حركة التمرد الشعبى، كان بعض المصريين يتوجسون من أن يتلجلج التاريخ. إنهم يعرفون أن هذا الجيش قد أظهر بشكل دائم « ولاءً مطلقا» للرئيس مبارك، أحد أبنائه.

كيف سيتصرف الحرس الجمهورى على وجه الخصوص ؟ وحدة النخبة العسكرية هذه، التى تضم نحو عشرين ألف رجل، فائقى التدريب، فائقى التسليح والمعروفون بقبعاتهم الزرقاء المستديرة ؟

بمجرد وصولهم، أعلن العسكريون أنهم لا يحملون أية نوايا عدائية باستخدام القوة ضد المتظاهرين. كان وجود الدبابات يبعث على الرهبة بكل تأكيد، غير أن مدافعها كان موجهة ناحية الحوائط. تحمل الآليات الحد الأدنى من التسليح. كان الجيش حاضرا، لكن عتاده وتجهيزاته كانت فى حقيقة الأمر أضعف مما يبدو عليه الحال فى الوهلة الأولى.

غير أن موقفه لا يبدو خاليا من بعض الغموض. بدأت منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان فى التنديد ببعض التجاوزات التى انزلق إليها العسكر. يدور الحديث عن اعتقالات، أحكام بالسجن، غليظة أحيانا، ضد المتظاهرين أو الصحفيين. كذلك تأخر الجنود فى التدخل، عندما أطلق رجال الشرطة المتمترسون داخل مبنى وزارة الداخلية ، أعيرة حية على المتظاهرين، أو أيضا عندما هاجم بلطجية النظام جماعة المحتجين المتجمعين فى ميدان التحرير بطريقة همجية فى الثانى من فبراير . لن يتدخل الجيش حينها للفصل بينهما إلا فى فجر يوم ٣ فبراير ، بعد ليلة كابوسية ..

فى هذا، ربما لم يكن الجيش سوى انعكاس لاختلافه الذاتى. « إنه على صورة الشعب المصرى» يقول المحلل « Issandr el –Amrani مجموعة كبيرة من اللواءات فى مراكز القيادة من كبار السن بالطبع، ضباط صغار من توجهات مختلفة. الجيش، إنه مصالح واهتمامات متعددة، عسكرية واقتصادية فى نفس الوقت، ميزانية سرية، تعداد غير مؤكد: نحو خمسمائة ألف رجل. كما أنه أسلوب قيادة أقل هرمية مما يبدو عليه الحال فى صورة المجلس الأعلى للقوات المسلحة، مجلس كان حتى الأمس مجهولا، يتكون من نحو عشرين لواءً، سوف يقرر فى نهاية الأمر إجبار حسنى مبارك على الرحيل فى الحادى عشر من فبراير. « إننا لم نعد فى وضعية القيادة الرأسية، حيث يمسك رجل واحد بزمام الأمور، يتشاور ثم يتخذ القرار، لكننا فى وضعية أفقية، فهناك جماعة تتداول، من هنا يأتى التأخير فى اتخاذ القرارات» هكذا يحلل الوضع الراهن، أحد المراقبين الغربيين.

غير أنه فى بدايات هذه الثورة ، كانت المدرعات تتقدم وسط هتافات المتظاهرين، لتتخذ مواقعها فى المراكز الاستراتيجية من العاصمة، وفى كبرى مدن مصر الأخرى. فى ليل القاهرة ، كان الدخان الأسود المتصاعد من المنشآت الحكومية ومركبات الشرطة المشتعلة ، التى أحرقها رجال الشرطة أنفسهم حسب ما يبدو ، قد حل محل دخان الغازات المسيلة للدموع الأبيض. كان الدخان يحرق العيون والحلوق ، لكن شيئا لم يكن يمكن أن يقنع شباب المتظاهرين بالعودة إلى منازلهم . ولا حتى حظر التجول المقرر منذ الغروب، والذى لا يسعى الجيش فعلا إلى احترام تطبيقه . ولا النداءات التى كررها الجيش «عودوا إلى منازلكم».

فى صباح ٢٩ يناير، تجمعت الجماهير فى ميدان التحرير، مترددة فى بادئ الأمر، أكثر ثقة بعد قليل. رأى كثير من المصريين أنفسهم فى هؤلاء الجنود الودعاء الذى يعتلون ظهور دباباتهم ، فى هذا الزى الذى ارتداه غالبيتهم يوما ما، الخدمة العسكرية إجبارية فى مصر، تمتد من عام إلى ثلاثة أعوام تبعًا لمستوى التعليم. يقدمون إلى الجنود التمر، عصير الفاكهة، السجائر وأحيانا زهورا، يتقبلها العسكر بكل طيب خاطر. أمام الصحفيين الأجانب، المرتابين أحيانا أمام حماس المصريين تجاه هذه الثورة التى تحمل رائحة انقلاب عسكرى، يقول البعض، فى ابتسام:

ـ العساكر، إخوتنا، أولاد عمومتنا. لكى تصبح ضابطا بالشرطة، عليك أن تدفع الثمن. حتى تلتحق بالجيش، لست مضطرا إلى ذلك. الجيش ديمقراطى، أى شخص يمكنه الدخول إليه، حتى وإن كان ابن حارس عقار (بواب)، وأن يترقى فيه. كل الأسر فيها ابن يؤدى الخدمة الوطنية، لا يمكن أن يطلق الجنود النار علينا أبدا.

الضباط الصغار يوافقونهم، يسمحون لهم بكتابة شعاراتهم الثورية على مدرعاتهم : « يسقط مبارك ! » «حرية » يلتقط المصريون صورا لأنفسهم إلى جوار الدبابات مشيرين بعلامة النصر. يأخذ الجنود أطفالهم الرضع فى

أحضانهم. هذا أوان الفرح. وسوف يصير أكبر عندما يؤكد الجيش فى بيان له، أنه لن يستخدم القوة ضد المتظاهرين . وعندما سوف تتعثر خطوات الثورة، فإن مصر بكاملها سوف تتمنى أن يحدث الانقلاب ، تجلى ذلك فيما قام به محمد البرادعى ، الذى أطلق فى العاشر من فبراير ، صرخة رجاء: « مصر على وشك الانفجار، على الجيش أن يقوم الآن بحماية البلاد !»

فى اليوم التالى، يذهب مبارك إلى حيث ألقت.

الجمعة ٢٨ فبراير.. ثورة

كانوا قد اختفوا دفعة واحدة. فرت عربات نقل جنود الشرطة الزرقاء، فى رتل طويل من عشرات المركبات. موكب أهوج متهور يشق طريقه بلا إبطاء فوق جسر ٦ أكتوبر، كأنه عربة نقل مسافرين فى الغرب الأمريكى يطاردها الجنود الحمر.

منذ دقائق، كانوا لا يزالون يدافعون، بالآلاف، عن مداخل ميدان التحرير، الذى يحاصره المتظاهرون منذ منتصف النهار. مثقلين بالعتاد، مدججين بالسلاح، مستعدين للقتل. بعد ذلك، عندما علم حبيب العادلى، وزير الداخلية، بتدخل الجيش، أعطى أوامره بالانسحاب فجأة، معطيا إشارة بتفكيك القوات.

كيف أمكن لقوة عددية بمثل هذا القدر الهائل أن تتلاشى، تتبخر بمثل هذه السرعة، بمثل هذه السهولة ؟ سوف يطرح المصريون كثيراً هذا السؤال فى ذهول فيما بينهم فى الأيام التالية، عندما تهدد حالة عدم الآمان، التى تم تعهدها بكل حرص، بإغراق البلاد فى الفوضى.

تكمن إجابة هذا السؤال جزئيا فى تركيب الأمن المركزى ، تلك القوات التى تمثلت استراتيجيتها الوحيدة لتفريق المتظاهرين، خلال سنوات طويلة، فى استنفار عدد من الجنود يفوق عشرة أمثال عدد المتظاهرين. رجال شرطة ينتمى غالبيتهم إلى منطقة مصر الوسطى، الأكثر فقرا والأعلى أمية فى مصر. مجندون صغار السن مرعوبون من قادتهم، رأيناهم، مرهقين، يتبادلون الدعابات

مع المتظاهرين فى ميدان التحرير. خلال لحظات الهدنة فى مظاهرة ٢٥ يناير. «عيال غلابة » كما قالت عنهم، دون أى نبرة استعلاء، شابة من الثوار، لا يوليهم كبار الضباط أية ثقة، لدرجة أنهم يفضلون أن يكلفوا البلطجية بالقيام بالمهام القذرة .

تفرقت إذا قوات الشرطة فى نفس الوقت، وفى كل أنحاء البلاد تقريبا، قام رجال الشرطة بالفرار من أقسام البوليس.

أودعوا ملابسهم الرسمية فى الخزانات. عادوا إلى منازلهم فى هدوء.

يجب الانتظار حتى يسكن الغضب.

لكن فى الظل، كان أمن الدولة، قطاع الشرطة السياسى المخيف، متواجدا دائما.

عندما يفكر فى ذلك، تتدلى كتفاه. فى المرة الأولى، كما يذكر جيدا، كان فى الثانية عشرة من عمره. كان أحمد سالم يشارك فى أحد معسكرات العطلة الصيفية، الذى تم تنظيمه دون تصريح من أمن الدولة، فرع وزارة الداخلية المكلف بمراقبة المواطنين. والذى يراه المصريون، تجسيدا لنظامها القمعى. ذات صباح، قام رجال شرطة يرتدون ثيابا مدنية بالقبض على الجميع، أطفالا، راشدين، خلال يومين أخضعوهم لاستجواب دقيق، معصوبى الأعين. الكبار تعرضوا للضرب وبعضهم ـ يقول أحمد ـ تم تعذيبه: « أرادوا أن يجعلونا نعترف بأننا ننتمى إلى الإخوان المسلمين «بعدها بعشر سنوات، عاد أحمد للوقوع بين أيدى رجال أمن الدولة. ألقى القبض عليه فى إحدى التظاهرات المناهضة لمبارك، ضُرب، تم استجوابه، وضع فى زنزانة لمدة ثلاثة أيام، ثم ألقى على جانب طريق ما، فى مكان ما بالصحراء. يحمل جسمه آثار الضرب ، يكاد النور يعميه بعد عدة أيام من التغمية ، بعض الأصابع مكسورة. لكن فى ٥ مارس ٢٠١١، وكرجل حر، بلغ الثانية والثلاثين، كان أحمد يدخل إلى مكاتب أمن الدولة، فى مدينة نصر، إحدى ضواحى القاهرة.

حُر وغاضب إلى حد الهياج

فى ذلك اليوم، كان فى صحبة ما لا يقل عن ألف شخص.

عشية ذلك النهار، فى الإسكندرية، قامت الشرطة بإطلاق النار على الجماهير التى اقتحمت مقر أمن الدولة. من الشرق إلى الغرب، من رمال سيناء إلى رمال سيوة ، استولى المتظاهرون على مقار أمن الدولة ليمنعوا تدمير ملفات مثيرة للشبهات تورط فيها رجاله. منذ بداية الثورة، لم تتوقف حرائق «عارضة» عن الاندلاع فى إدارات وزارة الداخلية المختلفة. محاولة أخيرة من الجهاز الأمنى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، بينما يشير إليه دعاة التطهير بعد الثورة، باعتباره المسئول الأول عن تجاوزات وعنف النظام القديم. بعدها بعدة أيام، ألقى القبض على سبعة وأربعين ضابطًا بتهمة إتلاف وتدمير وثائق حكومية.

أمام أسوار مقر أمن الدولة الحصينة، يتذكر أحمد كل شىء. ثمانية عشر يوماً من النضال فى الشوارع أسقطت الرئيس. لكنه يرى أن سقوط أمن الدولة فى مثل أهمية رحيل مبارك، إن لم يكن أهم.

أمن الدولة، هو النظام، يكرر أحمد ذلك باستمرار، يجب استعادة كل شىء، إثبات كل ما جرى، إظهار وجهه الحقيقى.

كان مقر أمن الدولة الشاسع، بمدينة نصر، المحاط بمبانٍ بيضاء متماوجة، معروفا لدى كل النشطاء، بل إنهم أطلقوا عليه اسم شهرة. عاصمة الجحيم.

دخل إليه جمال حمدان، مدير موقع إخوان ويب، مع الجماهير وكأنه فى حالة انعدام جاذبية. كان معه إسلاميون آخرون. وكذلك مناضلو حقوق الإنسان، معارضون، شباب من الثوار. أما الشرطة العسكرية فقد « تغاضت، وبدا أنها كانت تنتظر أن نقوم بإنجاز المهمة بأنفسنا » يقول حمدان.

غوص فى رحم ثلاثة عقود من القمع ، لحظات هلاوس مذهلة يقطعون خلالها الأروقة الطويلة المغطاة بالرخام الأبيض الناصع، يفتحون، غير مصدقين، المكاتب المكسوة الجدران. يصورون بهواتفهم المحمولة، ملفات تحولت إلى شرائط رفيعة من الورق، هرستها آلات الفرم. العصى الكهربائية، زنازين المتر فى متر، التى تتوسطها حفرة، بحيث لا يمكن الجلوس فيها.

لقد رأينا ملفات المراقبة، محاضر الاستجواب، تسجيلات المكالمات التليفونية، لقد كانوا يتجسسون على كل الناس، من كان ضدهم ومن كان معهم.

جمال لا يكاد يصدق؛ عدد الملفات لا يحصى. شخصيات عامة، صحفيون. معارضون، أنصار حقوق الإنسان. إسلاميون بعشرات الآلاف، الهدف التقليدى لأمن الدولة. أناس بسطاء، فى المكان الخطأ، فى الزمان الخطأ.

جالسين على الأرض. تحت أضواء النيون الشاحبة، يقرأ البعض، مصعوقين، نص مكالمتهم التليفونية أو بريدهم. آلة جهاز القمع العدائى الذى يندد الكل بغلظته وجبروته وحصانته التى تجعله قادرا على التملص من القصاص. وسط الخزائن والأرفف يصور المحتجون أنفسهم حتى وهم يحملون أحد الملفات، ملف عائلة مبارك، الممتلئ سخافات وابتذالا، اكتشاف يوافق اللحظة تماما. لدرجة أنه يترك المرء فى حيرة من أمره. بعد ذلك، كان النزول إلى الطابق تحت الأرضى، بذكرياته المشئومة، الممرات التى تذكر البعض بالأيام السوداء التى قضوها فيه. ممنوعين من الجلوس أو النوم، الأيام التى قضوها فى سماع صرخات من يجرى تعذيبهم بالكهرباء وهم مقيدون فى أسرة حديدية.

طوال ثلاث ساعات، جاب الثوار المبانى التى أخليت من شاغليها. حتى وصل النائب العام، الذى قدموا إليه هذه الوثائق، خدمة لأهداف التحقيق.

لكن البعض حملوا معهم بعض الأدلة. وما أن هبط الليل، حتى كانت الملفات تظهر على صفحات الإنترنت. ويكليكس على الطريقة المصرية، يتم تزويده بالوثائق، من ساعة إلى أخرى، من الاحتياطى الهائل، لكن الذى لا يمكن التحقق من صحته. مثل تلك الوثيقة التى تتهم أمن الدولة بالضلوع فى الاعتداء على المسيحيين الذى وقع فى الإسكندرية، فى ٣١ ديسمبر، والتى بعثت الحياة فى بعض الشائعات التى كانت قد جرت قبل ذلك فعلا عقب ذلك الهجوم. مستهدفة بصورة ، أكثر تحديدا، وزير الداخلية، حبيب العادلى، الذى يتهمه البعض بإذكاء الصدامات الطائفية حتى يمكنه تبرير سيطرته ونفوذه بشكل أفضل. وصلت

ميزانية أمن الدولة ، فى عهد العادلى ، إلى أرقام فلكية ، وتم توسيع السلطات الخارجة عن الإجراءات القضائية لهذا الجهاز المدلل وذلك عبر تعديل دستورى جرى تمريره عام ٢٠٠٧ .

بجبهته الصلعاء وشاربه الصغير، كان وجهه معروفا لكل المصريين. لوقت طويل، كانت رؤيته تصيب المرء بالقشعريرة، أما اليوم، فلم يعد يثير لدى الناس سوى مشاعر الكراهية والاشمئزاز.

على رأس الداخلية منذ ثلاثة عشر عاما، كان العادلى، أول ضحايا التكفير عن نظام حسنى مبارك. أول من سقط، منذ الأيام الأولى من حركة التمرد، أول من تم اعتقاله. غير أن هذا الإجراء كان غير كاف لتهدئة غضبة الشارع.

فى السابع عشر من فبراير عام٢٠١١، انتقل حبيب العادلى إلى الجهة الأخرى من القضبان، وفى ٥ مارس فتحت قضيته ، المتهم فيها بالفساد وبغسيل الأموال . كما اتهم أيضا بجرائم قتل، حيث أصدر أوامره إلى رجال الشرطة بإطلاق الرصاص الحى على المتظاهرين.

بالنسبة إلى حسنى مبارك، كان العادلى، الذى أُبعد فى ٣١ يناير، قد ارتكب خطأ أكثر فداحةً: خطأ سوء تقدير والاستهانة بحجم واتساع مظاهرة الخامس والعشرين من يناير، وعدم قدرته على منع قيامها. لم يكن للوزير السابق أية أعذار: فى نوفمبر ١٩٩٧، تم تعيينه، على إثر مذبحة راح ضحيتها ثمانية وخمسين سائحا على يد أحد الفدائيين الإسلاميين فى مدينة الأقصر، كان لديه كل الوقت لبناء إمبراطورية أمنية قوامها أكثر من مليون رجل . فى القلب منها، كان جهاز أمن الدولة، الذى لم يكن قد جرى النطق باسمه مطلقا من قبل بمثل هذا الصوت العالى فى شوارع مصر، قبل بداية عام ٢٠١١.

إن أمن الدولة هذا، كان هو ما يراه المعارضون خلف وجه خالد سعيد المعذب، أو خلف حالات الاختفاء العديدة التى نددت بها وأعلنت عنها منظمات حقوق

الإنسان هؤلاء القناصة الذين لمحناهم يطلقون النار على المتظاهرين، خلال الثورة ، التى راح ضحيتها على الأقل ثمانمائة وأربعون نفساً، كما اعترف بذلك وزير الصحة فى مارس ٢٠١١، بعد أن دار الحديث طويلا عن ثلاثمائة وخمسة وستين شهيدا فقط . يرى المدون حسام الحملاوى أن كل أعضاء هذا الجهاز يجب أن يحاكموا . « لقد كان وكالة مخصصة للتجسس، المراقبة، التعذيب والقتل..».

كان كل شىء يدعو للفرح، فى ذلك اليوم، حيث تم اختراق أحشاء إخطبوط الأمن. يكاد المقتحمون أن يتساءلوا عن السهولة التى وضعوا بها أيديهم على مثل هذه الملفات المثيرة جدًا للريبة والخوف. تتساءل الصحافة القاهرية عما إذا لم تكن هذه العملية قد رتبت فى الوقت الذى تفتح فيه قضية العادلى.

تتساءل بعض الصحف، فى نفس الوقت عن إمكانية أن تكون هناك «عملية داخلية» قام بها أمن الدولة ذاته، للنيل من مصداقية بعض شخوص المعارضة والإعلام التى كانت ملفاتهم موجودة بتدخل العناية الإلهية. لا يمكن اقتفاء أثر ما حدث، تداخلت كل الآثار بما فى ذلك أثر مؤامرة قد يكون قد قام بها أنصار مبارك وأحبطها العسكر. فرضية يتمسك بها رئيس الوزراء الجديد، عصام شرف، الذى كان قد حذر من مخاطر ثورة مضادة، عندما توجه إلى ميدان التحرير فى ٤ مارس٢٠١١، سيناريو يحمل رائحة حرب بين إدارات الشرطة. أو بالأحرى . حرب بين مؤسسات الدولة، لأن بعض الأصوات كانت قد ألمحت بالفعل إلى الجيش ربما لم يكن قد استساغ أن يرى دوره، المحورى منذ العهد الناصرى، يتضاءل خلال السنوات الأخيرة من حكم مبارك لصالح الشرطة.

فى الخامس عشر من مارس ٢٠١١، أعلن وزير الداخلية الجديد، منصور العيسوى ، حل جهاز أمن الدولة. الذى حله محله جهاز الأمن القومى الذى سيكلف من ساعته بمكافحة التجسس ومواجهة الإرهاب.

تلقى الثوار، الذين كانوا يصرون على حل الجهاز، النبأ بارتياح.

غير أنهم أكدوا أنهم سيظلون دائما على حذر.

ها هو ذا الجيش إذا، أصبح بطلا ثوريا عصريا لم يكن محتملا. لكن ماذا سوف يفعل الجيش بهذه السلطة التى تردد كثيرا فى الاستيلاء عليها ؟ والتى أكد أنه لن يحتفظ بها أكثر من ستة شهور، فترة إعداد الانتخابات ؟

فى ميدان التحرير، فى الساعات الساخنة الأولى من الثورة، كان من النادر أن ينتقد المتظاهرون الجيش. مجموعة صغيرة من الطلاب تطوف بالميدان حاملة لافتة كبيرة: « الجيش يحمى ، ولا يحكم » إنهم يقصدون التأكيد على أن : «الجيش كان القوة الوحيدة التى استطاعت تخليصنا من مبارك وزمرته . نحن نعتمد على الجيش لضمان انتقال هادئ للسلطة، لكن بعد ذلك خلاص، انتهينا. نحن أكثر من ثمانين مليونا، لسنا فى حاجة إلى العسكريين. نريد دماء جديدة، الشباب، الحكمة، الشعب، نحن لم نعد نريد حكم طبقة بعينها».

ليس من المؤكد أن يكون جنرالات الجيش قد فهموا الأمر على هذا النحو تماماً. طوال أسبوعين ، لم يرغب العسكر فى رحيل متسرع للرئيس، رغم أن الجماهير كانت تطالب بذلك ، كان ذلك وسيلتهم لتهيئة خروج مشرف جدير بواحد منهم ، أحد أبطال الحرب رجل كثيرًا ما كرر فى خطاباته المتلفزة أنه قد خاطر بحياته فى ميادين القتال من أجل حماية الوطن . طريقتهم ، ربما فى المحافظة على استقرار النظام . لقد كان هذا هو مأزق الجيش الذى سبب له حرجا أثناء الثورة: كيف يحافظ على شعبيته، مع الاستجابة لـ « مطالب الشعب الشرعية» مع تأمين استمرار مكانته المتميزة فى قلب النظام، التى تمكن لتطور ديمقراطى، أن يعيدها مرة أخرى إلى بساط البحث ؟

فى نهاية الأمر، نحن لا نعرف عن هذا الجيش شيئا كثيرا. «إنه مؤسسة أكثر انغلاقا من الجيش السوفيتى فى فترة الحرب الباردة» يقول دبلوماسى سابق، معترفا بخيبة الأمل التى غالبا ما شعر بها تجاه هذا الصامت الأعظم»، النظام بكاملة، يعتمد على المراقبة المتبادلة، الاشتباه الدائم فى القيام بالخيانة والتجسس. حتى أن الضباط الصغار الذين تم تدريبهم فى الخارج ليس لديهم

الحق فى الاحتفاظ بأية علاقات أو اتصالات مع سفارات هذه البلاد لدى عودتهم إلى القاهرة».

فى اجتماعات قدامى خريجى (ويست بوينت «أو» سان سير) . أسماء كليات عسكرية عليا فى انجلترا وفرنسا ـ المترجم) نسعى إلى مقابلة الضباط الذين قدموا للتدريب . لكن للأسف ، لا نقلد لعبة مآدب العشاء التى يجرى فيها لقاء المعارف القديمة . نبقى على العلاقات فيما لا يتجاوز حدود المجاملة الضرورية.

إننا نعلم جيدا أن الجيش فائق العتاد، يمتلك أكثر من ألف دبابة من طراز آبرامز. غير أن الولايات المتحدة التى منحته أكثر من أربعين مليارا من الدولارات كمساعدة، أخذت شكل مبيعات عسكرية، منذ توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، فى كامب ديفيد عام ١٩٧٩، كانت تشكك فى قدراته « التعبوية والعملياتية» وذلك، إذا وثقنا بما ورد فى برقية دبلوماسية أذاعتها ويكيليكس.

يتمتع أصحاب الرتب العالية بمزايا خيالية: محظوظون، أنهم يعيشون فى منتجعات راقية معزولة، أعضاء فى أندية اجتماعية ورياضية خاصة بهم. غير أن المزايا الحقيقية لا تتكشف على وجه الخصوص إلا بعد التقاعد من الخدمة فى هذه المؤسسة. يعين الكثير من اللواءات فى مناصب محافظى الأقاليم، مدراء فى الشركات الوطنية الكبرى أو فى مجالس إدارات الشركات الخاصة. فضلا عن المناصب التى تتاح لهم فيها كل الحرية فى الاستفادة من النظام. إنهم فى كل مكان، حتى فى المناصب الثقافية، مثل مكتب الرقابة السينمائية.

خصوصًا، ونحن نخمن، أكثر من أن نعرف على وجه اليقين، أن الجيش يتربع على قمة إمبراطورية اقتصادية. هناك برقية أمريكية أخرى نشرتها ويكيليكس تصفها على هذا النحو : « شبكة من الشركات التجارية النشطة بشكل خاص فى مجالات المياه ، زيت الزيتون ، الأسمنت ، التشييد والبناء، الفندقة ، محطات خدمة السيارات «و» أملاك عقارية واسعة فى دلتا النيل و على سواحل البحر الأحمر» .

استطاع العسكريون بناء هذه الإمبراطورية كما تؤكد جريدة نيويورك تايمز فى مارس ٢٠١١، بفضل الاستيلاء غير القانونى على جزء من مساعدات واشنطن. من بين الأمثلة العديدة التى رصدتها الصحيفة الأمريكية هناك مستشفى لا يحمل من الصفة العسكرية سوى الاسم فقط:

«فى نهاية التسعينيات ، أعلن البنتاجون أنه سوف يساهم فى حدود عشرات الملايين من الدولارات فى تمويل مركز طبى عالمى يضم ستمائة وخمسين سريرا سيقوم الجيش المصرى ببنائه فى الصحراء خارج حدود مدينة القاهرة. الأموال ، من أجل المعدات الطبية ، التدريب ، الدعم اللوجيستى ، يجب أن تساعد فى تحسين الجهاز الطبى الذى يخدم الجنود المصريين. بعد ذلك بعدة سنوات ، تأكد فريق من المدربين الأمريكيين من أن الجيش المصرى يستفيد من هذا المركز بطريقة أخرى. لقد كان المركز الطبى ، وفقا لتعبير المندوب الرسمى للبنتاجون ، «مؤسسة تجارية» وكثير من المرضى المترددين عليه كانوا من المدنيين. وليسوا جنودا مصريين. لقد حاول المستشفى أن يجرب قدراته فى مجال السياحة العلاجية. موقع المركز على الانترنت، يشيد بمزايا «جناح ملكى فاخر التجهيز» مخصص للمرضى من الشخصيات العالمية».

بالنسبة إلى المتظاهرين، الذين يواصلون الإقامة فى الخيام، منذ بداية مارس، كانت الشكوك تتزايد. من المؤكد أن العسكريين فى مواجهة غضبهم، قد طالبوا بإقالة الفريق شفيق، الذى عينه حسنى مبارك رئيسا للوزراء فى بداية الثورة. وحل محله، الجامعى، صاحب الشعبية الكبيرة عصام شرف. لكن الثوار الشباب، لم يعودوا يريدونه. ويتساءلون فيما بينهم عما إذا لم يكن هذا الجيش، العمود الفقرى للدولة منذ عام ١٩٥٢، والانقلاب العسكرى الذى قام به الضباط الأحرار، ينوى أن يظل فى مواقع القيادة سرا، مثل نظرائه الأتراك أو الباكستانيين.

جيتار، شعارات، ائتلافات ثلاثة، ورامى عصام ، الذى أشعل حماس الجماهير و فتنهم . ميدان التحرير. فى تلك الساعات الثورية ، صعد الشاب على إحدى المنصات ، وبدأ فى الغناء.

« يسقط يسقط حسنى مبارك!» «الشعب يريد نهاية النظام!» عندما سقط حسنى مبارك بعدها بعشرة أيام، أصبح رامى عصام نجما على اليوتيوب، حيث لاقى الشريط المصور لحفله الموسيقى المرتجل نجاحا باهراً.

بعد ذلك بشهر، كان رامى عصام دائماً بميدان التحرير، لكنه كان ممددا على بطنه فوق الأرض محطم الأنف على الإسفلت، أمام متحف الآثار الفرعونية. معصوب العينين، مقيد اليدين إلى الظهر، مغطى الجسد بالكدمات. لقد أوسعه جنود العسكر ضربا. قد كان معه، يقول عصام أمام العدسات، كاشفا عن ظهره المغطى بالجراح، نحو مئة من المتظاهرين الآخرين.

إلى منظمات حقوق الإنسان، يتحدث رامى عن ضربات عصى الشرطة الخشبية، الهراوات الكهربائية. حتى إن المحامين أطلقوا الكلمة: تعذيب.

فى الليلة الماضية، كانت بعد نحو شهر من نهاية الثورة، نام رامى وآخرون ممن بقى من الشباب الصلب العنيد فى ميدان التحرير.

فصيل أخير من المتظاهرين أصحاب مطالب غير متجانسة تتزايد تدريجيا صعوبة التعرف عليها وتمييزها.

لكن فى ذلك التاسع من مارس، وبينما كانت رياح باردة تهب على القاهرة، كان الكيل قد طفح بالعسكر؛ قاموا بإخلاء الميدان ، يعاونهم بعض المدنيين خليط يصعب التمييز بين شخوصه من البلطجية المأجورين و مواطنين محبطين من توغل الصراع وحالة الشلل التى أصابت اقتصاد البلاد، تم اقتلاع الخيام البائسة المرتجلة و إلقاء القبض على عدد من المتظاهرين. كان من بينهم «شريف عاذر، موظف بإحدى منظمات حقوق الإنسان المصرية. حسب أقواله، التى نشرتها منظمة human rights watch فإن أحد الضباط قد قال له: « إننا هنا منذ أربعين يوما، يجب أن يتوقف هذا. نحن من يضع الأوامر الآن».

بكل تأكيد كانت هذه العملية مفتولة العضلات «تفسر تبرم المجلس الأعلى للقوات المسلحة المتزايد يوما بعد يوم. معتادون على أن يطاعوا دونما مناقشة. عانى اللواءات أشد المعاناة فى محاولة إعادة الأمن. إطلاق الاقتصاد من جديد،

والحفاظ على الجدول الزمنى لعملية انتقال السلطة ، التى بدا بالفعل أن مهلة الستة أشهر الموعود بها، قد صار من الصعب التقيد بها. لم تتراى الوعود ولا التهديدات ذات أثر. لم يمل المعارضون. ولن يملوا أبدا. موقف مريك، غير مريح بالنسبة إلى المجلس العسكرى لاسيما و أنه لم يكن قد تعرض نسبيا لانتقادات أثناء الثورة، لقد صار العسكر الآن فى خط المواجهة الأول.

فى صبيحة السادس و العشرين من فبراير، كان الجيش قد قدم اعتذاره فعلاً، بعد قيام الشرطة العسكرية، فى الليلة الماضية، وبكل غلظة، بتفريق المتظاهرين المطالبين بتنحية الفريق أحمد شفيق، رئيس الوزراء. بعدها بقليل ، كان الحكم الصادر من إحدى المحاكم العسكرية بحق أحد المتظاهرين بالسجن لمدة سبع سنوات ،قد أثار غضب الشباب ، الذين لم يكونوا قد نسوا أن المجلس الأعلى للقوات المسلحة كان قد وعد بألا يقيم أية ملاحقات قضائية ضد الثوار. بعد إخلاء ميدان التحرير، أطلقت منظمة humam rights watch أجراس التحذير: «المجلس العسكرى الأعلى يغض الطرف عن وجود أدلة يمكن الوثوق بها لوقوع حالات اعتقالات تعسفية وتعذيب. لا يمكن أن يضرب صفحًا عما جرى فى الماضى ، طالما ترتكب قوات الأمن ، بما فيها العسكرية، مثل هذه التجاوزات وهى مطمئنة تمامًا إلى إفلاتها من القصاص» .

من يمسك بزمام الأمور حقا فى الجيش ؟ يثقب السؤال رؤوس المصريين منذ بداية الثورة . لتفسير تصلب العسكر ، ربما يسوق البعض فرضية وجود جيشين . جيش المشير طنطاوى، وزير دفاع حسنى مبارك لوقت طويل ، المؤيد للأساليب الخشنة، وجيش قائد الأركان ، الفريق سامى عنان، الذى يظنه البعض أكثر انفتاحاً. لاشىء بالتحديد، يسمح بالجزم بأن هذا التصور يوافق الحقيقة. فى زيه الرسمى، لا نرى سواها. أوسمة عسكرية تحمل كل الألوان. فى الخامسة والسبعين ، ربما كان محمد حسين طنطاوى قد حصل من الأوسمة على ما لم يحصل عليه اى قائد عسكرى مصرى آخر . منذ أكثر من نصف قرن، فى القوات البرية، شارك الرجل فى كل الحروب ، أو تقريبا : حرب السويس فى

١٩٥٦ حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ يوم كيبور عام ١٩٧٣ حرب الخليج عام ١٩٩١، ولقد كان فى أعقاب عودته من رمال الكويت، حيث شارك فى قوات التحالف الدولى ضد صدام حسين ، حتى عين حسنى مبارك هذا النوبى الصارم (طنطاوى) وزيرا للدفاع. موقع لم يغادره منذ ذلك التاريخ. عمر طويل استثنائى يدين به، كما يتندر أهل القاهرة، إلى طبيعته الخاصة، الميالة للعزلة والبعد عن الأضواء. على العكس تماما من أحد سابقيه، المشير أبو غزالة، الذى عجلت شعبيته بإبعاده فى عام .

لم ينسب إلى المشير طنطاوى أى طموح سياسى. لم يكن ذلك ليمنعه، تبعا للمعهد الأمريكى للاستراتيجية الجغرافية start fori من أن يخبر الرئيس بمعارضة العسكريين لسيناريو انتقال السلطة إلى نجله جمال، الذى تم الإعداد له منذ وقت طويل. ولسوف يتدخل أيضا لإبطاء إيقاع عمليات الخصخصة، رأس حرية سياسة تحرير الاقتصاد الذى يقوده ذلك الأخير.

لا تكن الولايات المتحدة الأمريكية لهذا الرجل المعروف بكونه رجلا محافظا تقديرا كبيرا، إذا ما وثقنا بما ورد فى برقية دبلوماسية كشف عنها ويكيليكس.

فى نهاية عام ٢٠٠٨، كانت السفيرة الأمريكية بالقاهرة قد انتقدت إصراره على شراء عتاد تقليدى، كدبابات الإبرامز أو مقاتلات الفانتوم ١٦ بقيمة المساعدة العسكرية السنوية البالغة ١,٣ مليار دولار. ولقد وصفته للجنرال الأمريكى David Petreus أساسا بأنه» « العقبة رقم واحد فى تغيير مهام الجيش» ليقوم، على وجه الخصوص، بمكافحة الإرهاب الدولى. الأمر الذى لم يمنع سكرتير الدفاع Robert Gates من الاتصال به بشكل يومى تقريبا فى بداية الثورة.

فى المقابل، لم يحتج Robert Gates إلى الاتصال بالفريق سامى حافظ عنان فى يوم ٢٨ فبراير، عندما سيطر الجيش المصرى على شوارع القاهرة. وكان ذلك بسبب : أن رئيس أركان القوات المسلحة المصرية كان جالسا فى مكتب نظيره

الأمريكى Mike Mullen فى واشنطن. زيارة مقررة منذ وقت بعيد ، غير أنها قد ألصقت به دوما صفة «رجل الأمريكان فى المجلس الأعلى للقوات المسلحة ،الذى يحتل فيه المكانة الثانية من حيث الأقدمية. وهالة خاصة خلال الثورة ، ما يشبه الضمان بأن الجيش لن ينقلب إلى الجانب الآخر.

ينسب المصريون إلى سامى عنان الأبوة الشرعية للبيان الذى التزم فيه الجيش بـ «عدم إطلاق النار على الشعب أبدا» بل إن البعض يؤكد أنه بعد واقعة رحيل حسنى مبارك غير الحقيقية يوم ١٠ فبراير ، أنه ربما قد سجل رسالة مصورة تعلن خلع الرئيس ، فى حالة افتراض أن يصر هذا الأخير على عدم تقديم استقالته كانت كلمات باراك أوباما ، التى حيا بها ، فى الأول من فبراير «مهنية ووطنية» الجيش المصرى ،كما يقال أيضا، موجهة له مباشرة.

إن الحقيقة، بكل تأكيد، أكثر تعقيدا . mike mullen يعترف، بنفسه، بأن الولايات المتحدة ليس لها أى نفوذ على الجيش المصرى «كما يذكرنا أحد الدبلوماسيين الأوربيين».

فى الثالثة والستين ،ينتمى سامى حافظ عنان إلى جيل آخر غير جيل المشير طنطاوى. وحتى إن كان ضابط القوات الجوية السابق قد تلقى تدريبه فى الاتحاد السوفيتى، فإن برقية دبلوماسية أمريكية، كشفت عنها ويكيليكس، قد وصفته بأنه أكثر حضورا من طنطاوى. بعض الخبراء لا يستبعدون أن يروه يوما ما وقد تولى حكم البلاد، حتى وإن كان الجنرالات قد أكدوا أنهم لن يقدموا أى مرشح منهم لانتخابات الرئاسة القادمة. على الأقل إن كان لا يزال فى الخدمة.

لأن فرضية أن يتولى الحكم جنرال سابق، بالمقابل، ربما لم تكن مستبعدة تماماً. أشارت الصحافة القاهرية إلى اسم مجدى حتاتة، رئيس الأركان السابق. أو اسم أحمد شفيق. الذى تم تعيينه رئيسا للوزراء فى حمى الثورة ، فى التاسع و العشرين من يناير. يجسد هذا الأخير الوجه المدنى للجيش، الذى حاول على كل حال الإبقاء عليه فى هذا المنصب بعد رحيل حسنى مبارك. قبل أن يخضع

تحت ضغط الثوار. فى التاسعة و الستين من عمره، كان هو الذى أكد أيضا على إحدى منصات التصوير فى التليفزيون، عشية تقديم استقالته، أنه لا ينتمى إلى النظام بيد أنه ربما لم يكن قد قال كلمته الأخيرة. على الرغم من أنه كان مقربا من الرئيس السابق، الذى كان يعتبره ابنا روحيا، كما يقول أحد الأصحاب والذى ربما كان قد فكر فى تعيينه نائبا للرئيس. يواصل كثير من المصريين الاعتقاد أن هذا الرجل فرنسى الثقافة ،طيار الميراج السابق ، قد كان الرجل المناسب فى التوقيت غير المناسب، وأنه يستحق الحصول على فرصة ثانية.

يشترك أحمد شفيق مع قائده السابق و سامى عنان فى أنهم قد تولوا جميعا قيادة القوات الجوية فى مصر. إلا أنه قد نجح على وجه الخصوص فى استعادة وضعه السابق ـ وزير سابق للطيران المدنى ـ وزارة أنشئت خصيصا له فى عام ٢٠٠٢، استطاع أن يضع فى رصيد انجازاته، عملية الخصخصة الناجحة لشركة مصر للطيران وتحديث المطارات فى البلاد، مما جعلته يستحق شهادات رضا الممولين الدوليين .كما أنه أيضا أحد النادرين من أعضاء الحكومة السابقة الذين لم يتعرضوا للفضائح المالية ـ السياسية.

عسكرى سابق آخر، اللواء عمر سليمان، سارت أموره لمدة طويلة على نحو ما يرام.كان القائد السابق لجهاز المخابرات العامة العتيد، قد قدم خلال سنوات طويلة باعتباره بديل جمال مبارك فى خلافة الرئيس. غير أن وجهه المنحل المكدود، عندما أعلن فى الحادى عشر من فبراير، استقالة حسنى مبارك، كان أكثر تعبيرا من كل حديث. لم يتنازل عمر سليمان، أربعة وسبعون عاما، فى ذلك اليوم عن منصبه الجديد تمامًا كنائب للرئيس فقط، لقد فقد. معلما، رجلا كان قد تبعه كظله لمدة ربع قرن من الزمان، رجلا كان قد أنقذ حياته، فى عام ١٩٩٥، فى إثيوبيا.

كان الرئيس المخلوع يولى هذا الضابط السابق فى القوات البرية ثقة مطلقة، والذى تحول إلى جهاز المخابرات فى مطلع الثمانينيات. تولى عمر سليمان كل الملفات الساخنة، من الصراع ضد القاعدة، والجماعات الإسلامية المصرية

المتطرفة إلى النزاعات الإسرائيلية ـ الفلسطينية أو السودانية. اتهمته منظمات حقوق الإنسان بالقيام بلعب دور أساسى فى الإعداد لبرنامج « التسليم الاستثنائى» والسماح للمخابرات المركزية الأمريكية بتعذيب المجاهدين الإسلاميين فى البلاد الحليفة ومن بينها مصر.

مفضل من الأمريكان ومن الإسرائيليين ليخلف حسنى مبارك. أدار عمر سليمان البلاد فعلياً خلال اثنى عشر يوما، ورسميا لمدة أقل من أربع وعشرين ساعة. جملة اعتراضية قصيرة بين لحظتين تاريخيتين بالنسبة إلى مصر: خطاب يوم الخميس ١٠ فبراير، أعلن فيه حسنى مبارك أنه فوض سلطاته إلى نائبه، وكلمة عمر سليمان المختصرة بعد ظهر يوم الجمعة التى أعلن فيها رحيل الريس.

فى نظر الثوار ،كان سليمان تجسيدا لوسائل النظام القديم ،مثله مثل حبيب العادلى ، عاد أبو الهول إلى الظل فى نهاية الثورة. لم يسترد منصبهُ على رأس جهاز المخابرات ، الذى عهد به إلى مساعده مراد موافى. يقال إنه حاضر دائما فى الكواليس. غير أن نفوذه قد تقلص بوضوح منذ تولى الجيش إدارة شئون البلاد.

فى حقيقة الأمر لم يخف عمر سليمان مطلقا كراهيته للإخوان المسلمين. حركة سياسية مد لها المجلس العسكرى على العكس يده منذ وصوله إلى السلطة. هكذا سمح الجيش للشيخ يوسف القرضاوى، أحد الشخصيات التاريخية فى الجماعة المنفى منذ وقت طويل فى قطر، بأن يؤم صلاة جمعة النصر فى ميدان التحرير ،بعد أسبوع من رحيل مبارك. كما أنه قام بتعيين أحد نواب الإخوان السابقين فى لجنة تعديل الدستور. هذا التحالف ، « البراجماتى أكثر منه أيدولوجى » ربما لم يكن معدا ليعمر طويلا. غير أنه فى غداة الثورة، كان يناسب الطرفين: يحظى الإخوان المسلمون من خلاله باعتراف رسمى. مقابل ذلك، فإنهم يحلون محل الجيش فى الدعوة إلى انتقال « قانونى» للسلطة من خلال حث الشعب إلى العودة مرة أخرى إلى العمل وعلى قبول التعديلات

الدستورية. لم يكن يلزم أكثر من ذلك ليظن بعض المصريين فى وجود صفقة « اتفاق سرى» . وأن يتخيلوا سيناريو على « الطريقة التركية»، حيث انتهت عملية الانتقال الديمقراطى للسلطة التى أشرف عليها الجيش فى مطلع الثمانينيات بفتح الطريق أمام إسلامي حزب العدالة و التنمية للوصول إلى الحكم.

الإخوان المسلمون جيش الظل
الإسلام هو الحل

على الحاجز المعدنى الذى أمضى الليل إلى جواره، ممددا داخل أحد أكياس النوم، كانت هناك كلمة واحدة، مكتوبة بأنبوبة طلاء: Face book. يشيرون إلى الكلمة. يصيبه ذلك بالضحك، إنه يعلم بالكاد إلى ما تشير الكلمة.فى ميدان التحرير بلحيته الكثيفة و الرمادية، بزبيبته، رقعه الجلد اليابسة المسودة التى تسم جباه الأتقياء المصلين، لم يكن لأحمد بالفعل صورة متظاهر شاب له علاقة بالانترنت.

أحمد واحد من الإخوان المسلمين ، محافظة المنوفية ،فى دلتا النيل، مسقط رأس حسنى مبارك ، فى ذلك النهار، ٧ فبراير، كان أحمد قد أمضى خمسة أيام فى معسكره بهذا المكان. غير ظاهرين فى ساعات الثورة الأولى، انضم الإسلاميون تدريجيا إلى صفوف الثوار. بل إن البعض يقول بأنهم كانوا من أنقذ الثورة قبل ذلك بيومين، بتصديهم طيلة ليلة كاملة لمواجهة أنصار حسنى مبارك، المدعومين بالبلطجية المأجورين من قبل أعضاء نافذين فى الحزب الوطنى فى ليلة المعارك الرهيبة تلك، فى فخ ميدان التحرير، المحاصر تحت أمطار الحجارة و كوكتيلات المولوتوف، طلقات الرصاص، تولدت أخوة عجيبة، ارتبطت بالدماء التى سالت، بالخوف المشترك، بالآمال التى تحملها.

إننا لن نخضع، سواء كنا مسلمين، مسيحيين، ملحدين، سوف نطالب بحقوقنا ولسوف نحصل عليها! لن يتمكنوا من إسكاتنا بعد الآن أبدا.

فى ميدان التحرير فى تلك الليلة، وسط الهتافات واحمرار ألسنة اللهب، كان الرجل الذى يصرخ بهذه الكلمات، غارق العيون فى الدموع والغضب، يحمل لحية الإخوان المسلمين. أكثر تنظيما من الشباب، وبالنسبة إلى البعض مدربون على القتال بشكل واضح،كانوا فى تلك اللحظة ،يظهرون تميزهم، ينظمون القوات، يضعون مع الشباب خطط الهجوم و الدفاع. وهكذا استحقوا مكانهم فى ثورة كانوا قد تأخروا فى الالتحاق بها جهارا نهارا.

بيد أنه، عندما ثارت مصر، فى٢٥ يناير، كانوا هم من اتهمتهم الحكومة بالتحريض على الفوضى. حيلة قديمة، موجهة خصوصا لترهيب الجماعة الدولية وعلى رأسها الولايات المتحدة التى يحكمها أوباما، بل والكتلة الرخوة من المصريين، الذين يقلقهم وجود هؤلاء الإسلاميين. رسميا، لم تصدر الجماعة أمرها بالمشاركة فى المظاهرات، مكتفية بإخبار أعضائها وأنصارها بالتصرف وفق ما يرونه. غير أن كثيرا منهم، قد كانوا فى الشوارع بالفعل. لكن دون أن يسمع المرء شعار الجماعة، هذا المبدأ الذى يرددونه بقوة فى العادة بلا توقف: «الله غايتنا، الرسول قائدنا، القرآن دستورنا الجهاد طريقنا، الشهادة أسمى أمانينا»

«عمل ! خبز! عدالة» فى وسط الزحام، تغمرهم لافتات المطالبات الاجتماعية بشأن سعر الخبز، غلاء المعيشة، نقص الوظائف، الحق فى العلاج، التعليم، كان الإخوان المسلمون يعبرون عن نفس غضب المصريين الآخرين.فى الواقع أن إدارة الجماعة قد استوعبت الأمر بسرعة. لم يكن فى إمكانها سوى أن تلتحق بحركة الثورة وإلا كان جزاؤها أن تفقد أية مصداقية فضلا عن ثمار ثلاثة عقود من العمل الاجتماعى. المتحدث الرسمى باسم الجماعة يطالب برحيل مبارك، يعهد لمحمد البرادعى بقيادة الحركة للتحاور مع السلطة. الرجل الحائز على جائزة نوبل للسلام لا يحبذ الإسلاميين كثيرا. غير أنه أكد دائما أنهم يمثلون قطاعا لا

يمكن إغفال أهميته من المجتمع المصرى والذى يجب التصالح معه. سريعا جدا، سعت الجماعة أيضا إلى طمأنة الجميع:إنها سوف تشارك فى الانتخابات البرلمانية، لكنها لن تقدم أى مرشح للانتخابات الرئاسية. استراتيجية بارعة: هناك خطوط حمراء، ربما كانت مصر، حتى الجديدة، غير مستعدة لتجاوزها.

أحمد يتبرم غيظا.

ـ هل تظنون فعلا أننا نسعى إلى السلطة، ما نريده، هو الديمقراطية، مثل الجميع، وسوف يصوت الناس لمن يريدونه، سواء كان مسيحيا أو مسلما، متدينا أو علمانيا. من سوف يقدم للمصريين أفضل مشروع.

فى ميدان التحرير تشكلت جماعة صغيرة، اجتذبها ذلك الحوار الدائر. تدخلت فى الحديث شابة، ينسدل على كتفيها شعر أسود فاحم:

ـ كلنا جميعا مصريون، وهم مثلنا وبنفس القدر. نحن لا نتقاسم نفس الأفكار بالنسبة إلى التفاصيل. لكننا نتفق بالنسبة إلى الجوهرى منها، إذا كنا نريد أن نتخلص من الطاغية فعلينا أن نتخذ جالسة القرفصاء إلى جوار أحمد، بدأت وأصدقاؤها نقاشا واسعا. مشهد لم يكن محتملا. قبل وقت قصير. معجزة ميدان التحرير الذى حولته الثورة إلى معمل هائل للأفكار، ساحة من ساحات روما القديمة تتخذ هيئة « هايدبارك» حيث تتعلم الديمقراطية التى تولد الآن الكلام.

التفت أحمد، متوجها بحديثه إلى الصحفيين: هل ترون طوال ثلاثين عاما، سعى النظام إلى إيقاع الفرقة بيننا، إبعادنا عن بعضنا، ليحكم سيطرته على البلد. افهموا هذا جيدا. لن يكون ذلك ممكنا بعد الآن أبدا!؟

الإخوان المسلمون، خوف وأوهام. يكفى أن يُذكر اسمهم حتى تتولد الريبة والحذر، الخوف و المعارضة. رد فعل مشروع أم مبالغ فيه؟

أُتيحت الفرصة أمام المصريين، فى الصيف الذى سبق الثورة، ليطرحوا فيما بينهم هذا السؤال، خلال السهرات الرمضانية الطويلة. فى هذا الموسم الاحتفالى، بعد ساعة الإفطار، تتسمر مصر تقليديا أمام أجهزة التليفزيون. وقت ذروة، يرجوه وينتظره منتجو المسلسلات التليفزيونية، الذين يسجلون أرقاما قياسية فى نسبة المشاهدة ، بمسلسلات فكاهية ،دراما اجتماعية و تاريخية.

المسلسل الناجح الكبير لرمضان ٢٠١٠ سوف يكون مفاجأة للجميع.

على الشاشة، مظاهرة تنقلب إلى معركة: ٢٠٠٦، جامعة الأزهر، القاهرة، طلاب ملثمون، استعراض شبه عسكرى، صوت طلقات، أعمال عنف. ثم فلاش باك. (رجوع إلى زمن ماضٍ ـ المترجم): مدينة الإسماعيلية ، عام ١٩٢٨، المُعلم حسن البنا، يؤسس جماعة الإخوان المسلمين ،تنظيم اجتماعى ودينى يقوم على مبدأ مقاومة الاحتلال البريطانى. شريط صوتى ذو نبرة عسكرية يخالطها صوت ناى شرقى: كل ليلة، كانت A الجماعة «سيرة جماعة الإخوان المسلمين. فى شكل مسلسل تليفزيونى، تحقق نجاحاً مدوياً.

مع اقتراب الانتخابات التشريعية فى نوفمبر، كان التليفزيون المصرى قد راهن رهانا كبيراً، عندما طلب الغوص فى تاريخ تلك الحركة الإسلامية العنيفة. أثناء انتخابات ٢٠٠٥، على الرغم من التجاوزات القانونية العديدة، كانت الجماعة غير المعترف بها قد حققت اختراقا غير مسبوق. لقد أصبحت قوة المعارضة الأولى فى البرلمان. فاز مرشحوها، تحت صفة المستقلين ، بنحو خمسين مقعدا.

سيناريو لا تنوى الحكومة المصرية أن تراه يتكرر مرة أخرى: عهدت إلى وحيد حامد ، كاتب معروف بمواقفه المعادية للجماعة، بهذا المسلسل الضخم الميزانية، الذى يعتمد على شخصية ضابط الشرطة المكلف باستجواب آلاف المنتمين إلى جماعة الإخوان والذى قرر الرجوع إلى أصول الحركة بغرض أن يحيط

بدوافعهم بصورة أفضل. انتهازيون، ميالون للعنف، لم يستسغ الإسلاميون كثيرا هذا المسلسل، الذى حظى بإخراج ناجح ومؤثر للغاية. قاموا برفع دعوى تشهير، مطالبين دون جدوى بمنع عرضه، منددين فى الصحافة بدعاية موجهة لتشويه صورتهم قبيل الانتخابات. حانقين، يكتبون أن الشرطة فى هذا المسلسل، قد صُورت على، عكس الحال، بشكل مثالى. الضابط، شخصية محورية، مهذب، كيس، نبيل للغاية، كان فى واقع الأمر على النقيض من سمعه الشرطة المصرية، التى تشهد كل منظمات حقوق الإنسان، مع ذلك، وباستمرار بلجوئها شبه المنهج إلى التعذيب. الهجوم على الإخوان، مستتر خلف عمل توثيقى عالى الجودة، يخلط الأوراق ويمزج أفكارا ناسبا إلى الجماعة اللجوء إلى العنف الذى حرصت رسميا على الابتعاد عنه منذ عقود. لكنه أثر فى المشاهدين، عن طريق إيضاح مناورات السياسيين ودهاء حركة سياسية تتخندق خلف تقواها.

المصريون منقسمون، لكن لدى الأقباط، الذين استيقنوا الخطر بالفعل، ولدى جانب كبير من الرأى العام، كانت الريبة تتزايد.

فى خريف ٢٠١٢، مع اقتراب الانتخابات البرلمانية، كان الموقف أكثر من متوتر بين السلطة الإخوان المسلمين منذ نجاحهم الانتخابى، كان النظام قد حاول خنق حماسهم وإيقاف اندفاعهم، مجمدا ممتلكاتهم، ملقيا بقياداتهم فى السجون. وعلى وجه الخصوص، خيرت الشاطر، الذى اعتُقل فى عام٢٠٠٦، أصدرت ضده، محكمة عسكرية حكما بالسجن لمدة سبع سنوات، فى عام ٢٠٠٨، بتهمتى «غسيل الأموال» « و» الإرهاب» فى الهيكل التنظيمى للحركة، يظهر الشاطر فى المرتبة الثالثة ويُعد، وزير المالية، وأحد المنظرين الأساسيين، صاحب ميل نسبى للإصلاح ، وبالتالى مصدر خطر كامن بالنسبة إلى النظام.

كان النظام يلعب منذ زمن بعيد مع الإخوان لعبه غامضة: الجماعة محظورة منذ عام١٩٥٤، لكن السلطة تتغاضى عن أنشطتها. إذا كان عبد الناصر قد

ألقى بهم خلف القضبان، فإن السادات، على العكس، سوف يستخدمهم فى إضعاف قوى اليسار التى تعارضه. قام السادات بإطلاق سراح الإسلاميين المسجونين وضاعف الضمانات المغرية، أدخل إلى الدستور مادة تقول بأن الشريعة الإسلامية تعتبر مصدرًا أساسيًا من مصادر التشريع. خفض الضرائب على العقارات التى تضم الزوايا، قاعات خاصة للصلاة ،التى بدأت حينها فى التكاثر بسرعة. سياسة أسلمة المجتمع التى سوف يتبعها حسنى مبارك ،الذى لم ينس أن الإسلاميين كانوا من قاموا باغتيال سلفه.

وبالنسبة إلى الجماعة الدولية، كان الإخوان المسلمون أداة مفيدة. فزاعة مؤثرة، يتم التلويح بها فى كل مرة تقوم فيها الانتقادات ضد غياب الإصلاحات الديمقراطية، ضد تسلط النظام. عبارة «إما هم وإما نحن » البليغة المنمقة، التى تجعل العالم بأسره ينسى وجود قوى سياسية علمانية معارضة أخرى فى مصر.

تلك القوى هى ما يقوم النظام بسحقها تحت ضربات عصا رجال الأمن المركزى فى كل مظاهرة يتم فيها الهتاف ضده. الضربة الموجعة لإسلاميى حماس ـ فصيل فلسطينى من الإخوان المسلمين ـ الذين استولوا على السلطة فى غزة عام ٢٠٠٧، كانت خبز التكريس .الجماعة الدولية، التى كانت تدفع فى تلك الفترة باتجاه إقامة الديمقراطية فى الشرق الأدنى، توقفت فجأة، مهدئة من حماسها. اطمأنت السلطة المصرية . كان ذلك كافيا لوضع نهاية للضغوط التى تتعرض لها. وفى خريف ٢٠١٠، بينما تدخل مصر أجواء الحملة الانتخابية، تزايدت الاعتقالات بحق الإخوان المسلمين، بالمئات، خلال اللقاءات الانتخابية التى فرقتها الشرطة فى الإسكندرية، أو فى الدلتا. كان فوزهم فى عام ٢٠٠٥، خطأ لن يتكرر مرة أخرى؛ كما يُؤكد فى دوائر السلطة العليا، قبيل عدة أيام من الانتخابات البرلمانية، وخيمة النتائج، التى سوف تساعد على أن تشارك مصر بكاملها فى الثورة بعد شهرين من تلك الانتخابات.

ـ كم يكون عددنا ؟ سل وزير الداخلية إنه الوحيد الذى يعرف.

يغرق عبد المنعم أبو الفتوح فى الضحك . ولم يتفوه بشىء أكثر من ذلك.

شارع قصر العينى، فى المكتب غير الشخصى التابع لنقابة الأطباء، حيث يستقبل زواره، يحرص مسئول الجماعة الخمسينى ذو الأصول الإصلاحية، على ألا يكشف عن الكثير فى حديثه. فالسرية، فى نهاية الأمر، ربما كانت بالفعل أحد جوانب قوة جماعة الإخوان المسلمين. ينسب إليهم البعض رقم الخمسة ملايين عضوا وأكثر من ذلك من المناصرين. رقم يثير القلق ،يقسمه البعض على اثنين. لا يمكن التحقق منه.

فى ميدان التحرير الرافض، كان الإخوان متواجدين بكثافة على أى حال، دون أن يشكلوا الأغلبية. بالنهار، نراهم رجالا، لحى قصيرة مشذبة، حلل بلا ربطات عنق، نساء يتشحن بالأحجبة القاتمة أو يضعن النقاب. نراهم فى الليل أكثر وجودًا يكادون أن يكونوا الأغلبية.

فى الظلمة التى يخترقها بالكاد ضوء أعمدة الإنارة المجهدة، كانوا يفترشون أرضية الشارع، يستمعون أسفل المنصة إلى الخطباء الذين يتتابعون، لساعات بكاملها، مثيرين حماسة الجماهير. كانوا هنا عندما يأخذ الشباب قيثاراتهم و يغنون فى ضوء القمر، يرددون الشعارات، لم يكونوا بالضرورة على سجيتهم فى هذا الجو السريالى لحفل موسيقى لفرقة «الخنافس» ضل طريقه فى بلد تعتريه الثورة. هنا دائما عندما كان الكاتب علاء الأسوانى يرجو من الجماهير ألا ينتابها الخوف، حينما يبدو أن خطى الثورة تتعثر. كانوا هنا أيضا عندما كان أحد ناظمى الأغانى يسخر من آل مبارك بعبارات تلامس حدود الفجاجة، منزعجين ولكنهم متواجدون.

وعندما كانت أرض الميدان تختفى فى الزحام، أثناء المظاهرات الكبرى فى الأول والثامن من فبراير، كان ذلك بالنسبة إليهم، الفرصة فى أن يقدموا

لمعارضيهم صورة أخرى عن أنفسهم. فى وسط الميدان، حيث يتجمع الفنانون، ممثلون، كُتاب، يعترف بعضهم بأنهم قد اكتشفوا إسلاميين « أقل إثارة للخوف مما كانوا قد يعتقدونه «أمام النسوة المنتقبات، اللاتى ينشدن، مرفوعات القبضات، نفس الشعارات الداعية إلى توحيد قوى الثوار، كانت مثقفات الحركة النسائية المناهضات بشدة للحجاب يلطفن كثيرا من مواقفهن. ومع ذلك فقد جرت محاولات للمواجهة: نعم، إنهم كثيرون، لكن هناك غيرهم فى الميدان. ماذا يمثلون عشرون بالمائة من المتظاهرين ؟ كلنا مصريون، كلنا مختلفون، هكذا يقال، هكذا يتكرر القول. يُطلب من الصحفيين الأجانب أن يتوقفوا عن تخصيص معظم مقالاتهم للحديث عن الإسلاميين. الدليل، كما يُشار: إنه بخلاف يوم الجمعة يوم الصلاة الجامعة، عندما يتردد صوت المؤذن خمس مرات فى اليوم داعيا المؤمنين إلى الصلاة، لم يكن ينحنى راكعا وساجدا تجاه مكة إلا جزء صغير من أهل الميدان، بينما ينصرف باقى المتظاهرين لمشاغلهم، مكتفين بالابتعاد مظهرين مشاعر الاحترام.

مع ذلك، فإن المرء يشعر بتواجدهم فى كل مكان، معروفون بانضباطهم، كان الإخوان المسلمون إحدى القوى المنظمة فى البلاد. يدرك المرء مدى خبرتهم من خلال عملية الإشراف على ضبط النظام فى ميدان التحرير، حيث يشرف على مداخله، تحت أنظار جنود الجيش، شباب الإخوان، فتية وفتيات، بعضهن منتقبات، يقومون بتفتيش الحقائب والتأكد من هويات كل الداخلين إلى الميدان، بفاعلية وفى جو من المرح. يلمح المرء مدى قدرتهم على تأمين الشئون الإدارية الميدانية من خلال الإدارة المنظمة جيدا للمهام الثورية اليومية، التموين الذى يتم تأمينه بواسطة جماعة من المتطوعين الذين يمرون وسط المتواجدين، يحملون أكياسا بلاستيكية، يوزعون الخبز، الحلوى، التمر. لم يكونوا فى ذلك بالضرورة ممثلى مشاهد الصدارة، حريصين للغاية على ألا يظهروا فى الصف الأول. مدركون أن هذا من الممكن أن يضر بالحركة الثورية. يضر أيضا بمصالحهم

الخاصة، لفرط ما جازفت به الجماعة. إنها تدرك أنه فى حالة الفشل فسوف تكون أول من يُضحى به غير أن التقارب الجديد قد فتح الحوار، ومصر، المنبهرة، من الشعور بوحدتها، تنسى فى ذلك اختلافاتها.

دامت حالة التسامح والرضا هذه ثمانية عشر يوما، حتى وإن كانت الأيام التالية للنشوة الثورية سوف تخفف من ذلك الحماس الأخوى. لكن كثيرا من الحواجز كان قد سقطت.

لقد كانت الجماعة انعكاسا مثاليا للمجتمع المصرى: الشيوخ فى السلطة، والشباب الذين يدفعون عجلة السلطة فى المؤخرة.

حركة محافظة بامتياز، انقسم الإخوان المسلمون منذ سنوات طويلة عبر صراع على النفوذ بين معسكرين، الحرس القديم: رجعيون، انتهازيون، أنصار أسلمة المجتمع من خلال الدعوة و الأعمال الاجتماعية، والحرس الجديد: إصلاحى، يضم الشباب و طائفة الخمسينيين، الراغبين فى إدخال الجماعة إلى المشهد السياسى للبلاد، على طريقة الإسلاميين الأتراك.

ملخص « كاريكاتورى» بعض الشىء، بالتأكيد، لكنه مع ذلك كان يمثل الفئتين الأساسيتين.

عشية الثورة، وبينما كانت الجماعة قد فرغت لتوها من مقاطعة الجولة الثانية من الانتخابات، يتملكها الغضب لأنها قد انجرت إلى فخ انتخابات كانت محسومة النتيجة سلفا، وكانت الأمور تسير بالأحرى على نحو ما يرام بالنسبة إلى الحرس القديم. محمد بديع الذى انتخب فى عام ٢٠١٠، مرشدا أعلى، شخصية محافظة للغاية، لا ينوى العدول عن الأساليب التى مثلت أسباب نجاحه.

أكتوبر ١٩٩٢

شوارع القاهرة تعرض مشاهد كرب عظيم. المدينة تكتسى بلون الرماد، شوارع مبقورة البطون، جدران متصدعة. بعد الهدير المروع جاءت صرخات الفزع.

كان زلزالا عنيفا قد هز العاصمة المصرية للتو، متسببا فى مقتل نحو ألف شخص ومخلفا عشرات الآلاف من المشردين. أحياء فقيرة، لا تخضع مبانيها لمعايير مقاومة الهزات الأرضية، دُمرت بالكامل. حتى يجدوا سقفا يأوون إليه، لم يكن أمام الكثير من المتضررين سوى اللجوء إلى المقابر. مثل مدينة الموتى الأخطبوطية، التى توفر مبانيها التى تعلوها القباب الفاطمية ملاجئ أوجدتها العناية الإلهيْة. الحدث يتجاوز قدرات القائمين على أعمال الإغاثة و النجدة، للعاجزين عندما لا يكونون غائبين تماما.

فى هذه الفوضى، سرعان ما أظهرت آلة الإخوان المسلمين الخلاقة فاعليتها. كانت الجماعات الإسلامية هى أول من قام برفع الأنقاض وفتح الطرق. لم يستلزم الأمر سوى عدة ساعات حتى يقدموا الخيام، الأغطية، الوجبات الساخنة، مياه الشرب، بل أيضا مساعدات مالية ونفسية لضحايا الزلزال.

كانت المساعدة مرتبة من خلال نقابة الأطباء، التى سقطت فى قبضة الإسلاميين فى نهاية الثمانينيات، حيث جعلوا من السيطرة على النقابات و الاتحادات المهنية حجر الزاوية فى استراتيجيهم فى غزو المجتمع « من الأسفل » كانت النقابة متمرسة بإدارة أوضاع الأزمات: قامت بحشد مئات الأطباء والممرضين لمساندة المجاهدين الأفغان فى حربهم ضد الجيش السوفيتى، ثم أثناء حرب البوسنة. اكتسبت النقابة من ذلك مكانا وصيتا وقدرة هائلة على التعبئة المالية.

لم يكن للحكومة خيار كبير فى مواجهة ذلك. بعد الزلزال ،كان ردها الوحيد هو منع منظمات العمل الاجتماعى من تقديم مساعدات عاجلة فى حالة الكوارث الطبيعية واشتراط أن تمر الهبات حصريا من خلال وساطة الهلال الأحمر المصرى، الذى ترأسه سوزان مبارك.

حسبة، تمثل سلاحا ذا حدين: فى عام ٢٠٠٨، بعد انهيار جزء من صخور جبل المقطم، الذى يطل على القاهرة، فوق حى الدويقة العشوائى، الواقع فى منخفض، أظهرت أجهزة النجدة والإغاثة والحكومة أيضا عجزها مرة أخرى، تاركة عشرات السكان تحت الأنقاض، ومثيرة مرة أخرى لغضب السكان.

فى المقابل، يمتلك الإسلاميون آله حربية. شبكة متشعبة تضم الجمعية الشرعية، أكبر الجمعيات الخيرية الإسلامية، التى تأسست فى مطلع القرن العشرين بواسطة أحد الشيوخ، الذى نادى زمنا طويلا بالدعوة إلى إسلام متشدد، قريب من السلفية.

عندما شجعهم الرئيس السادات على اقتحام العمل الاجتماعى، فى السبعينيات، وقع اختيار الإخوان المسلمين على ما كان حقيقة « دولة داخل الدولة» وفقا لتعبير عالمة الاجتماع سارة بن نفيسة . Sarah ben nefissa الجمعية الشرعية ، التى تتمتع بجيش يضم نحو مليونين ونصف المليون من الأعضاء، أربعمائة وخمسين فرعا وستة آلاف مسجد، ركزت جهودها منذ ذلك الحين فى الخدمات العامة الأكثر تدهورا: التعليم و الصحة. سحب بيضاء، تملأ السماء بالدخان. تنبعث من مصانع الأسمنت، يمكن رؤيتها من على بعد عشرات الكيلو مترات.

أهلا بكم فى حلوان. منذ نحو خمسين عاما فقط، كانت حلوان، الواقعة على بعد ثلاثين كيلو مترا من القاهرة، مركزا للمعالجة بالمياه الحارة معروفا فى مصر

بكاملها. ربما قد صارت الآن مدينتها الأكثر تلوثا. كابوس صحى حقيقى: يعانى أكثر من طفل من بين كل ثلاثة فى حلوان من مشاكل تنفسية خطيرة.،

حلوان أيضا رمز لفشل أجهزة الخدمات الاجتماعية الحكومية. المستشفيات العامة، غير مزودة بالأجهزة والمعدات اللازمة، أطقم عمل سيئة التدريب، معروفة بأنها أماكن للموت. إهمال كارثى، أخطاء طبية، معدات بالية: منذ تعيينه فى عام ٢٠٠٥، أشار حاتم الجبلى بنفسه، الذى صار الآن وزير الصحة السابق، دائما إلى مواطن الداء فى النظام الصحى وأطلق خطة طموحة للإصلاح، ستظل غير مكتملة. خبير فى مجال الخدمات الاستشفائية، كان الرجل مساهما و مديرا سابقا لمستشفى دار الفؤاد، واحد من المؤسسات الطبية الخاصة الأكثر رقياً فى مصر. رجل يجمع بين الطبيب و رجل الأعمال: النظام، مرة أخرى، دائماً، هكذا يعتقد من يتهمونه بالرغبة فى خصخصة النظام الصحى. بميزانية أكثر بقليل من مليار يورو لأكثر من ثمانين مليونا من السكان، كانت وزارة الصحة فى واقع الأمر بعيدة عن المعايير التى توصى بها منظمة الصحة العالمية. كان من الواجب مضاعفة هذا الرقم على الأقل. مستحيل بالنسبة إلى الحكومة التى يتحدد هامش الحركة بالنسبة إليها بالتسعة مليارات يورو المستنفدة كل عام فى دعم المواد الغذائية أو الوقود.

أمام إهمال الجهات الطبية العامة ولا مبالاتها، ظهر الإخوان بمظهر المنقذين. فى حلوان يفضل المرضى التوجه إلى مستشفى الهادى، مؤسسة خاصة تديرها إحدى الجمعيات الطبية المقربة من الجماعة. غالبية الأطباء ومن بينهم إخصائيون مشهورون يعملون بالمستشفى تطوعا أو برواتب ضئيلة، إضافةً إلى عملهم المعتاد فى المستشفيات العامة أو فى العيادات الخاصة الأكثر تكلفة. يستقبل المستشفى المرضى جميعهم، بلا تمييز دينى. العلاج مجانى لنحو عشر أو خمسة عشر بالمائة من المرضى الأكثر فقرا.

من خلال الجمعية الشرعية وفروعها، يمتلك الإخوان بهذا الشكل شبكة واسعة من المستشفيات، ملاجئ الأيتام، المدارس، فصول محو الأمية أو برامج لتأهيل العاطلين... بالنسبة إلى الأكثر احتياجا، كان ذلك هو الملاذ الوحيد. استراتيجية ناجحة لاكتساب الشعبية.

غير أنها غير كافية: منذ منتصف التسعينيات، يتصاعد التمرد لدى الإسلاميين. خلافات بين الأجيال، اختلافات فى المقاربة بين الحرس القديم، حذر وارتياب منذ أرسل بهم ناصر إلى السجون، وأصحاب العقد الخامس، جيل يعج بالمحامين، المهندسين، الأطباء، متوجه إلى العالم أكثر من توجهه إلى المسجد. معتادون على الانتخابات النقابية فى نقاباتهم المهنية التى أدخلوا فيها أنصارهم حتى إلى أعلى المستويات. هى السياسة إذا، الحقيقية.. لماذا لا نحاول بدلا من الانتظار بصبر للعودة المفترضة للخلافة المشكوك فيها؟

البعض، انفصل بالفعل، مثل أبو العلا ماضى، الذى أسس حزب الوسط عام ١٩٩٦، حزب ليبرالى لكنه ذو توجه إسلامى. خلال خمسة عشر عاما كانت المصادقة على الحزب ترفض بانتظام من قبل لجنة شئون الأحزاب، الهيئة الحكومية المكلفة بالموافقة أو عدم الموافقة على إنشاء التشكيلات السياسية فى فبراير ٢٠١١، بعد أسبوع من سقوط حسنى مبارك، سوف يكون حزب الوسط أول حزب سياسى جديد يتم التصديق عليه).

بالنسبة إلى الحرس القديم، كانت التجربة مقنعة: هل ننشئ حزباً ؟ سوف يجلب لنا ذلك مزيدا من المشاكل. الأفضل البقاء فى الظل. الانتظار. يعتقد قدامى الإسلاميين أن الوقت يعمل فى صالحهم.

ثورة الخامس والعشرين من يناير سوف تهز الساعة الرملية.

عبد المنعم محمود ليس ملتحيا. وكذلك جمال حمدان هو الآخر، إنهما بالكاد فى الثلاثين من عمرهما يرتديان الجينز. يتواصلان عبر التويتر، يقومان

بالتدوين، لا يجاريهما أحد فى استعمال لوحة المفاتيح على الفيسبوك. وهما من الإخوان المسلمين - فى ميدان التحرير، لا يتناقشان فى أكثر الأحوال مع كبار السن، ولكن مع أقرانهما هذه الفتيات وهؤلاء الفتية التابعون لحركات المجتمع المدنى، مثل أعضاء حركة ٦ إبريل، الذين سوف يلتحقون ، من جهة أخرى، بائتلاف شباب الثورة ، الهيئة التى تمثلهم فى المفاوضات مع الجيش.

على ألسنة الكثير من الإسلاميين الشباب تتردد كلمة الديمقراطية أكثر من القرآن، منذ أربع سنوات، أذهلت الكثير منهم تلك الصيغة الأولية للبرنامج السياسى الذى وضعته الإدارة. كان النص يقترح، على شاكلة النموذج الإيرانى، إنشاء هيئة دينية عليا، تدير مجريات الدولة وكانت تمنع على النساء والأقباط أن يكونوا مرشحين لمقعد رئاسة الجمهورية. رد الإصلاحيون الشباب، بمحاكاة هزلية لموقع الجماعة الرسمى إخوان أون لاين، وإنشاء موقع إخوان أوف لاين، الذى كان قاعدة معارضة تطرح الأسئلة حول أسلوب قادتهم القديم.

على الفيسبوك، فى ذلك الربيع من عام ٢٠١١، شهدت صفحة أخرى زيادة يومية فى عدد زوارها. بعد عدة أسابيع بالكاد من إنشائها، أجاب أكثر من ثلاثين ألف شخص فعلا بـ « نعم» من أجل « ثورة الجماعة الإصلاحية» «كان منشئ الصفحة مهندسا فى الخامسة والثلاثين من عمره، مصمم على تطبيق المبادئ الثورية على الجماعة الإسلامية العجوز ليتقاعد الكبار، وليتقدم الشباب ليتسلموا السلطة. شبيبة كانت تنتظر دائما من الجماعة أن تشرع أخيرا فى التفرغ للسياسة. الآن بينما تملك إمكانية القيام بذلك.

لأن الثورة قد قدمت إلى الجماعة هدية ثمينة. هدية ربما كانت مسمومة.

بقبولهم، بعد تردد كبير، الدعوة للحوار التى وجهها إليهم عمر سليمان، نائب الرئيس بعد الثورة، كان الإخوان قد تغلبوا على تحفظات الحرس القديم بشأن

العمل السياسى. بعد رحيل حسنى مبارك ،أكدت الجماعة هذا الاتجاه بالإعلان عن أنها سوف تنشئ وللمرة الأولى فى تاريخها حزبا سياسيا.

لوقت طويل، كان القانون يرفض منحها هذه الإمكانية، ابتداءً من تعديلات عام ٢٠٠٧، بواسطة الدستور ذاته، الذى كان يمنع قيام الأحزاب على أسس دينية. إنها نفس الحالة دائماً مع قانون الأحزاب الجديد الصادر بمرسوم من الجيش فى نهاية شهر مارس عام ٢٠١١، لكن عصام العريان يؤكد أن ذلك لا يمثل أية مشكلة: فالحزب الذى يطمح إليه الإخوان المسلمون هو حزب مدنى وعليه أن يكون « مقبولا من الجميع ومنفتحاً على الجميع ».

إن عليه بصفة خاصة أن يتراجع عن الحظر الذى تفرضه قاعدته على الأقباط والنساء الساعين إلى الترشح لرئاسة الجمهورية. اسمه: الحرية والعدالة. يسعى عصام العريان إلى إقناع الجميع بأن الحزب يحمل قيما ثورية، فى نهاية الأمر نفس قيم الشريعة. أما الجماعة فكان عليها أن تواصل تكريس نفسها فى صورة جماعة للخدمة اجتماعية والدعوة.

كان الإخوان يقولون قبل سقوط مبارك ويرددون بعد ذلك: إنهم لا يطمحون فى الرئاسة، لم يتقدموا بأى مرشحين. هدفهم: هو الانتخابات البرلمانية، ولكن ليس كما جرى فى الانتخابات السابقة. وعليه فإنهم لن يفكروا فى المنافسة إلا على نصف عدد المقاعد، بل إنهم ينتوون الدخول فى « ائتلاف ثورى» مع أحزاب المعارضة الأخرى. خليط من الأفكار القديمة، نوعاً ما، هموم بشأن المستقبل وتهدئة المخاوف، دائما.

الإخوان هم جيش الظل، فى صحراء السياسة المصرية، فى هذا المشهد الذى يجرى إعادة تركيبه، بالكامل، كانوا جبهة المعارضة الأفضل تنظيماً.

ما كان كافيا لإفزاع الذين كانوا يتحسبون من توغل الإخوان.

ـ إنهم ليسوا بمثل هذه الكثرة، انظروا!!

فى التحرير، ينضم العلمانيون إلى الميدان بأعداد كبيرة، إشارة تريد أن تكون مطمئنة. أجل، إن الإسلاميين، وإن كانوا كثرة، ليسوا بمفردهم فى الميدان. أجل، إنهم قد قاتلوا فيه مع الثوار الآخرين، ولقد تغيرت الأفكار. مصر ليست سوى كيان واحد.

نعم، فى ميدان التحرير .. فقط.

لكن خارجه فى الأرياف، الأكثر محافظة فى القرى النائية؟ كيف يمكن معرفة عددهم، مدى قوتهم؟

مقيما، مؤقتا، فى مكتبه الواقع فى الطبقات العليا من مركز الأهرام للدراسات، كان الكاتب السياسى ضياء رشوان، عبر النافذة، يتأمل حركة المرور الجهنمية التى تشل شارع رمسيس ليلا ونهارا. الجموع الغفيرة التى تدخل وتخرج من محطة رمسيس، القريبة جدا، قادمين من كل أنحاء مصر آملين أن يجدوا عملاً فى العاصمة.

بالنسبة إلى انتخابات ٢٠٠٥، التشريعية ،التى كانت نجاحا باهرا للإسلاميين، كان عشرة بالمائة فقط من المصريين قد ذهبوا إلى مراكز الاقتراع وفقا للمراقبين المستقلين مع أن الإخوان المسلمين قد استنفدوا، كما يذكر رشوان، كل قواهم واستفادوا من أصوات المعارضة. فإنهم قد حصلوا على أقل من مليونى صوت.

مر التحرير من هنا، هبت رياح الديمقراطية، ومنذ الآن سوف تدلى مصر بصوتها إذا شارك نصف الشعب المصرى فى الانتخابات، كما فعل فى استفتاء ١٩مارس٢٠١١، الدستورى، فإن من خمسة عشر مليوناً إلى عشرين مليونا من الناخبين سوف يضعون بطاقاتهم فى صناديق الاقتراع، من بينهم كثير من الشباب.

ما عساهم أن يصوت، شباب الفيسبوك هؤلاء؟ هؤلاء الذين اهتزت مشاعرهم مع الثورة ؟ الذين رقصوا إلى جوار الفتيات فى ميدان تحول إلى حلبة رقص هائلة، على وقع «ازاى» أغنيه محمد منير الشائعة ؟ ما عسى أن يصوت الآخرون ،سكان الأحياء الشعبية والقرى؟

هؤلاء الشباب الذين لم يعودوا قادرين على الحلم، سوى بأن يجدوا عملا مجزيا خارج مصر، فى السعودية، فى ليبيا أو فى أوروبا، حتى لو تسللوا إليها خلسة، عبر المتوسط، على متن قوارب متهالكة؟

تحول ضياء رشوان عن النافذة.

ـ حتى الآن كان لدينا الانطباع بأنه لا يوجد فى المشهد سوى الإخوان، لأن هذا كان يوافق أهواء النظام فى أن يصوروهم باعتبارهم البديل الوحيد. لكن إذا كانوا بهذه القوة، لماذا لم تكن الثورة إسلامية ؟ وإذا صاروا قوة سياسية مثل الآخرين، هل ستكون لهم نفس الجاذبية ؟ فى الأردن، فى الكويت ،لم يحصل الإخوان على الأغلبية مطلقا.

الثالث من مايو، تلقى الإخوان نبأ سارا « الإفراج عن خيرت الشاطر بناء على أمر من المجلس الأعلى للقوات المسلحة. بعودة مفكرهم الاستراتيجى سوف يشرعون فى إعداد أنفسهم للمعركة، فى الاهتمام بإعلامهم خصوصًا تجاه الغرب.

لأنه، خلف وجهه المغضن بالهموم، المغطى بلحيته الرمادية، كان خيرت الشاطر متخصصاً فى المجال: بعد انتخابات ٢٠٠٥، التشريعية، أثارت مقالته فى صحيفة «The Guardian» «الجارديان» البريطانية ضجة واسعة. وكانت تحمل عنوان «لا تخافوا منا»

يعرف الشاطر كيف يتواصل مع الآخرين، لقد أثبت ذلك من خلال تدريبه لموقع الجماعة الرسمى. وسوف يكون الإخوان المسلمون فى حاجة إليه فى الفترة التى تبدأ الآن.

سوف يكون عليهم إيضاح الكثير من المسائل. رؤيتهم لوضع الأقباط فى المجتمع، على سبيل المثال. موقفهم من إسرائيل، أيضا. بعد الثورة أكد الإخوان احترامهم لمعاهدة كامب دافيد، إن تمكنوا من الوصول إلى الحكم. بينما سمحوا لبعض قادتهم، مثل محمد مرسى، أحد أعضاء مكتب الإرشاد، أن يصرح لجريدة الأهرام بأن الجماعة «لا تعترف بإسرائيل» وإنما بفلسطين فقط كأرض يتمتع فيها المسلمون، والمسيحيون واليهود بنفس الحقوق. ولكن ما هو رأى القاعدة فى ذلك؟

بينما كان جمر الثورة يتوهج، تولد لدى الإسلاميون الشعور بأنهم قد جازفوا بأنفسهم بلا جدوى. حتى أنهم قد كانوا القوة الوحيدة الممثلة فى لجنة الحكماء المكلفة بأعداد مراجعة الدستور. غير أن الفخاخ لم تكن كلها قد فتحت بعد. سوف يكون عليهم حل تناقضاتهم، أن يفصحوا أخيراً عن رسالة واضحة، والخروج من غابة السرية.

مجازفين بأن يتعرضوا للخسارة: فى مارس٢٠١١ ، كان العديد من الشخصيات «الإصلاحية» فى الجماعة، من بينهم عبد المنعم أبو الفتوح، قد أعلنوا عن نيتهم فى إنشاء حزب سياسى خاص بهم، «النهضة» .

الإرهاب سيف ديموقليس*

الجهاد!

فى مقعدها المتحرك، كانت تختفى فى زحام الميدان سيدة عجوز هزيلة تماماً، مسندة الكفين إلى ساقيها الميتتين. أثناء مرورها، ينحنى لها رجال ملتحون، يلثمون أصابعها.

أنا أم خالد الإسلامبولى، ابنى هو من قتل السادات.

تبتسم، فى فخر. فى تلك الجمعة ١٨ فبراير عام ٢٠١١، تواعدت مصر بأكملها للاحتفال برحيل مبارك قبل أسبوع من ذلك. عائلات تتجول مع أطفالها ملونى الخدود بالأسود ـ الأبيض ـ الأحمر. صبيان و بنات مختلطون يرقصون على أنغام الطبول والدفوف. جو احتفالى وبرىء.

كانت ساعة شعور بالفخر والتوحد. لكن أسفل المجمع، مبنى الإدارة المركزية المهيب، ظل نحو مئة من الملتحين، منعزلين جانباً بشكل ظاهر، يرتدون الجلابيب و يعتمرون أغطية الرأس الإسلامية التقليدية، كانوا يحيطون بالمقعد المتحرك لأم القاتل. فوقهم ، ترفرف فى الريح لافتة هائلة، مكتوبة بالانجليزية. «الحرية لعمر عبد الرحمن».

أعضاء الجماعة الإسلامية يخرجون إلى النور.

---

* كان ديموقليس عضوا ببلاط ديونيوس حاكم سراقوسة بصقلية من عام ٣٦٧ ق. م إلى ٣٤٤ق. م، كان ديموقليس متملقا مغاليا فى تملقه، وقد دعا ديونيسوس إلى حقل كبير وعندما اتخذ مجلسه وجد سيفا معلقا بشعرة واحدة من شعر ذيل الحصان، متدليًا فوق رأسه، وصار «سيف ديموقليس» مثلا يضرب للتعبير عن التهديد بالخطر الدائم. (المترجم).

الجماعة المسلحة التى لطخت مصر بالدماء فى التسعينيات تدق أرض الميدان بأقدامها فى وضح النهار، حتى تسقط نظام حسنى مبارك. عمر عبد الرحمن، ذلك الشيخ العجوز الكفيف، هو مرشدهم الروحى. كان مسجونًا فى الولايات المتحدة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً لأنه قد مول اعتداء بسيارة نقل مفخخة على مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣ . قبل أن يجرى تدمير البرجين الشهيرين فى الهجوم الانتحارى الذى قام به قراصنة الجو فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أى بعد ذلك ثمانية أعوام.

ـ نحن هنا كى نبعث برسالة إلى الرئيس أوباما. إذا كان يريد أن يتصالح مع المصريين ومع المسلمين، فإن عليه أن يبدأ بإطلاق سراح الشيخ عمر، هكذا يقول عصام دربالة فى هدوء رصين.

إنه واحد من أعضاء المجلس العشرة، مجلس قيادة الجماعة. كان ابنا العم طارق وعبود الزمر اثنين من هؤلاء العشرة، عسكريين سابقين، قد أمضيا الثلاثين عاما الأخيرة خلف القضبان لأنهما شاركا فى الإعداد لاغتيال الرئيس السادات عام ١٨٩١ . ولم يخرجا من السجن إلا فى شهر مارس عام٢٠١١، بعد أن أمضيا فترة العقوبة بسنوات طويلة. إيماءة من الجيش، استجابة لمطالب الثوار، الذين اشترطوا الإفراج عن كل السجناء السياسيين. بادرة كرم حيال هؤلاء الإرهابيين السابقين، الذين يرون أن من الأفضل لهم ألا يجلبوا لأنفسهم متاعب جديدة.

وسط الزحام كان اثنان من أبناء الشيخ عمر عبد الرحمن التسعة يعبران عن رأيهما. عبدالله، الأصغر،الأفصح لساناً. محمد، الابن البكر، يلتزم الصمت. قبل شهر من هذا اليوم، كان هذا الجهادى يلاقى الأمرين فى أحد السجون المصرية. فبعد أن قبض عليه الأمريكان فى أفغانستان عام ٢٠٠٣ منذ ذلك الحين كان الرجل ضمن من خضعوا لبرنامج التسليم الاستثنائى الشهير الذى نفذته المخابرات المركزية الأمريكية على السجناء. يقول عبدالله إن أباهم برىء.

لم يكن أبًا يدعو إلى العنف، لقد كان يندد بنظام فاسد.

خلفهم، ترفع مجموعة من المتظاهرين رايات يتداخل فيها الهلال مع الصليب. بالكاد يلتفت المتشددون إليهم. لسنا ضد المسيحيين فى شىء، هكذا يرددون بشكل آلى. إنه النظام الذى عمل على «إلقاء الضغينة فيما بيننا».

الدليل، حسبما يقولون: لقد قاتل المسيحيون والمسلمون معا فى ميدان التحرير. أدوا صلواتهم معا. وحتى الآن لم تتعرض كنيسة واحدة لأى اعتداء على الرغم من غياب الشرطة. يستمر الحديث، بلا نهاية. رغبتهم فى إنشاء حزب سياسى. إذا تم الاعتراف لهم بهذا الحق، يؤكد عصام دربالة مرة أخرى، لن يكون لهم بعد ذلك أى مبرر فى اللجوء إلى الصراع المسلح. وعود تحمل رائحة التهديد من جانب هذا التائب الذى نشر عدة مقالات تنتقد استراتيجية «القاعدة» لقاء إطلاق سراحه، فى ٢٠٠٦، بعد خمسة عشر عاما من السجن.

حسن، لكن ؟ الاعتداءات ضد المسيحيين ؟ضد السياح ؟عشرات القتلى خلال التسعينيات؟

تواجد الجماعة الإسلامية فى ميدان التحرير، فى يوم العيد هذا، يأتى ليذكرنا بقسوة بأن مصر كانت أيضاً مهد الأصولية المسلحة التى تم تصديرها إلى كل بلاد العالم، بفضل « القاعدة» ليثير أيضا ذكرى الاعتداءات التى لم تتوقف خلال السنوات الأخيرة عن العصف بالبلاد. فى شرم الشيخ. فى دهب. فى الإسكندرية. فى القاهرة.

عصام دربالة يرفع عينيه، يدور بهما فى الجمع الذى يواجهه. فى وداعة. إننا لم نلجأ إلى العنف إلا لأننا لم نكن نملك خيارا آخر. لم نكن نستطيع أن نصوت فى الانتخابات ولا أن نتحدث. لقد كنا محبوسين، معذبين. أُغتصِبت نساؤنا أمام أعيننا. عندما نسىء معاملة حيوان، فإنه يدافع عن نفسه.

الأقصر، ٨١ نوفمبر ١٩٩٧١.

منذ ساعات، والشمس تلفح أحجار معبد الدير البحرى الصفراء، على شاطئ النيل الغربى. على منحدر مدخل ذلك الأثر المهيب القائم فى جوف جبل طيبة، على بعد مئات الأمتار من وادى الملوك، كانت مجموعة من السائحين السويسريين، تدور بالمكان. منبهرة بما تراه حولها، لم يلحظ أحد ذلك الفدائى المسلح، الذى دخل لتوه إلى المكان، أسفل منهم بقليل.

عندما سمعوا، فى النهاية، الصرخات الأولى، دوى الطلقات الأولى، كانت المذبحة قد بدأت. مجهزين على السائحين بالأسلحة البيضاء قبل أن يهربوا على ظهر حافلة إلى وادى الملوك، كان إرهابيو الجماعة قد خلفوا وراءهم اثنين وستين جثةً.

أصاب الهجوم المروع العالم كله بصدمة عنيفة وترك مصر جريحة، مستباحة. المصريون، الذين يعيش قرابة العشرين بالمائة منهم بشكل مباشر أو غير مباشر على موارد السياحة ،سوف يضطرون إلى الركوع. بعد ذلك بعدة أيام، توجه حسنى مبارك ،متجمد المشاعر، إلى الصحافة، منتقداً بشكل لاذع الدول التى لا تزال تواصل إيواء الإرهابيين المصريين الذين يطالب بترحيلهم منها بلا جدوى، مثل بريطانيا التى سوف يطلق عليها قريبا « لندنستان».

بما أن أرض الفراعنة، خلال التسعينيات، لم تتوقف عن الزلزلة. تضاعفت أعداد الاغتيالات، حتى فى وسط القاهرة، حتى فى أعلى دوائر الدولة. أقسمت الجماعات الإسلامية على إسقاط الدولة الفاسقة، المتهمة بالتحالف مع الغرب فى الائتلاف الكبير الذى دخل الحرب ضد صدام حسين، الأخ العربى غداة الغزو العراقى للكويت.

للنيل من هيبة الدولة، هاجم الإسلاميون على كل الجبهات. فى القاهرة، لا ينتقل المسئولون إلا فى سيارات مصفحة، تحت حماية شديدة.حراس شخصيون يهرولون إلى جوار السيارات. فى نفس الوقت،فى إمبابة،حى بأكمله من أحياء

العاصمة ، تعلن نفسها جمهورية إسلامية ، زعماؤها يفرضون النظام الأخلاقى فى الشوارع الضيقة المزدحمة بقاطنيها . مطاردين من الشرطة ،لجأ الإسلاميون إلى مصر الوسطى وفرضوا الرعب فى أسيوط. من سوهاج ،قنا أو المنيا يخطط أمراء الجماعات لهجماتهم . رجال شرطة قتلى على الطرقات، أقباط مذبوحون فى الكنائس، سائحون جرى إعدامهم لدى خروجهم من فنادقهم أو أمام متحف القاهرة: ما بين عامى ١٩٩٢ و ١٩٩٧ كانت أعمال العنف قد خلفت أكثر من ألف قتيل.

قوات الأمن المصرية ترد بمنتهى القسوة .على أرض مصر الوسطى الخضراء والحمراء ، تزيل الشرطة زراعات قصب السكر حتى تكشف مخابئ الأسلحة، تلقى القبض على عائلات بأكملها ، ترسل إلى السجون عشرات الآلاف من المعتقلين ، مجهولين، مفقودين منذ ذلك الحين فى طيات نسيان قانون الطوارئ .لم تتوقف منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان عن التشهير بالقمع العنيف ، غير المميز، اللجوء المستمر و المنتظم إلى التعذيب. بيد أن هذه الوسيلة بدت فعالة: بعد اعتداء الأقصر، أعلن قادة الجماعات الإسلامية المسجونون عن تخليهم عن أسلوب الصراع المسلح.

لكن فى يوم ١٨ نوفمبر عام ١٩٩٧، بينما يكتشف العالم البربرية الإرهابية، كانت مصر، لا ترى سوى شيء واحد، هو أن الإرهاب قد ضربها مرة أخرى من جديد.

وأنه قد جاء من الداخل. وأن أبناءها هم من يسعون إلى القضاء عليها.

بصراحة، المصريون ليسوا كذلك لهؤلاء، إنهم...إنهم عصبة من الأشقياء، مجرد مساكين، بائسين يعانون الضياع!.

أكوام من الكتب، مرصوصة بلا عناية، بكرات شرائط الأفلام ملفوفة فى علبها المصنوعة من الألومنيوم وسط هذا الركام. يوسف شاهين. غاضب، ثائر لحد الجنون. عندما استقبل الصحفيين فى مسكنه الفسيح الجاثم فى قمة أحد

الأبراج المطلة على النيل ،لم يكن السينمائى المصرى الكبير ،الذى رحل عن دنيانا فى عام ٢٠٠٨، قد توقف عن صب جام غضبه على الإرهابيين. شاهين الذى كان قد حاول أكثر من مرة، كما فى فيلمه «المصير» التنديد بانحرافات المتأسلمين، التى كان يراها؛ تنهش جسد بلاده فى بطء.

متعصبون، يستغلون نقطة ضعف الناس بسبب الفقر، غياب الديمقراطية، شيوع الجهل لخداع البسطاء و تسخيرهم لأداء أعمالهم القذرة واعدين إياهم بالجنة.

كان الرجل العجوز يتصرف كأحد صبيان الأزقة ينهك رئتيه بالكلام، يصرخ ينفجر بالتهديد والوعيد.

فى سكينة الدار التى تخترقها أصوات أبواق السيارات فى الطابق الأرضى من إحدى البنايات المطلة على شاطئ النيل بحى العجوزة، العينان نصف مطبقتين، ملفوف العنق بتلك الكوفية الأبدية، التى لم تنجح فى إخفاء آثار الجرح الذى تركته سكين ذلك المهووس دينيا، الذى كان قد حاول اغتياله فى عام ١٩٩٤، لم يقل نجيب محفوظ شيئا مختلفا. كان صاحب جائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٨٨، يتساءل، محاولا أن يفهم ما الذى يمكن أن يحمل واحدا من أبناء مصر، من أبناء نيلها إلى اللجوء إلى الهمجية والقسوة. بصوت خفيض يهمهم بعناء وفى مرارة؟

ـ بالتأكيد، هناك فقر، بطالة.. لكن هذا كان موجودا باستمرار، لقد تواجد المتعصبون دائما، لكن لم يكن لدينا هذا العنف. لقد لعبت الحروب أيضا دورا ما. إسرائيل التى حاربناها، أقامت دولتها معتمدةً على الديانة. لقد ساهم هذا النزاع، بكل تأكيد، فى إذكاء الشعور الدينى فى مصر، فى مواجهة الدولة اليهودية التى جعلت من الدين سببا لوجودها. ما الذى جرى؟

منكمشا فى معطفه المنزلى، وقورا، غائصا تقريبا فى جوف إحدى الأرائك، لم يتوقف نجيب محفوظ مطلقا، حتى وفاته فى عام ٢٠٠٦، عن طرح هذا السؤال؟

محفوظ وصمته الحكيم. يوسف شاهين وغضبه الصارخ السليط نفس السؤال. وما من إجابة..

عودة إلى الماضي

١٩٨١، حسنى مبارك يصل إلى الرئاسة. ورث الرجل بلدا على حافة الهاوية. سقط السادات لتوه تحت وابل من رصاص أحد فدائيى حركات الجهاد الإسلامى الذى تسلل إلى حرسه الخاص. السادات الذى حصل منذ ثلاث سنوات على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع مناحم بيجين دفع حياته ثمنًا لخيار استراتيجى: السلام مع إسرائيل الجارة اللدودة.

كان خيار السلام هذا، رهانا ثقيل التبعات. مصر مهد الوحدة العربية متهمة بالخيانة. ينسب إليها أنها قد باعت نفسها لقاء دولارات واشنطن، التى جعلت منها تبعا لاتفاقيات كامب ديفيد، المستفيدة رقم اثنين فى العالم ،خلف إسرائيل، من مساعداتها المدنية والعسكرية. الشعب المصرى، شاعر بالمهانة، لم يتعاف من هذا الجرح، تنشأ القطيعة مع الدولة، وفى الأوساط الأكثر تشددا، سوف يتكاثر الإرهاب، فى ظل تلك الكراهية لنظام يرونه «كافرًا».

منذ وصوله إلى الحكم، كان على حسنى مبارك أن يخوض صراعا ضاريا ضد الحركات الإسلامية المسلحة التى كانت قد استولت على أسيوط، أكبر مدن مصر الوسطى، بعد أن أثار شهيتها النجاح فى اغتيال السادات. ثم ولكى يتخلص من المشكلة ـ نهائيا ـ كما كان مأمولا، كان يمنح الإسلاميين الراغبين فى الذهاب لمحاربة الجيش السوفيتى ،تذكرة ذهاب فقط إلى أفغانستان .من بين هؤلاء، طبيب قاهرى، مجهول تقريبا. يُدعى أيمن الظواهرى.

عيون وادعة خلف نظارات سميكة ،الرأس مطوقة بعمامة بيضاء، وجنتان ممتلئتان. مظهر مسالم، ظل أسامة بن لادن الوفى.

فى كل ظهور للمليardير السعودى، فى كل بلاغ، كان أيمن الظواهرى متواجدا دائما ، أو تقريبا. أكثر من ثلاثة عقود من التخفى والسرية، ومن القتال إلى جواره، ثم على رأس حركة الجهاد الإسلامى المصرى.

اليوم صار الظواهرى واحدا من أكثر الرجال المطلوبين على ظهر الكوكب. بالنسبة إلى المخابرات الأمريكية يمثل الظواهرى أحد العقول المدبرة لاعتداءات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

كل من عرفوا الرجل أو قاموا بدراسة شخصيته يجمعون على أن: الظواهرى يتمتع بالذكاء، مثقف، منظّر رفيع المستوى. عقل تشكل فى أحضان عائلة قاهرية، ميسورة وذات مكانة: جده الأكبر كان إماماً للجامع الأزهر، أعلى السلطات الدينية للمسلمين السنيين. عمه الأكبر كان أول سكرتير عام للجامعة العربية. ما بين السياسة والدين شب الظواهرى، ـ متعرفا ـ منذ طفولته الأولى على أفكار حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. كان الظواهرى متأثرا على وجه الخصوص بأفكار سيد قطب، منظر الحركة الجهادية و« شهيدها» بعد إعدامه عام ١٩٥٦، أثناء حملة القمع التى أدارها جمال عبد الناصر ضد الإخوان المسلمين. الحركة التى سوف ينضم إليها وهو لا يزال حدثا: فى الخامسة عشرة من عمره جرى اعتقاله لانتمائه إلى الجماعة السرية. أطلق سراحه، أنهى دراسته فى كلية الطب عام ١٩٧٨.

يائسا من الإخوان المسلمين، التحق بجماعة الجهاد الإسلامى. فضلا عن توقيع اتفاقيات السلام مع إسرائيل، اتهمت حركة الجهاد الإسلامى النظام الحاكم بعدم التقيد بأصول الشريعة فى إدارة البلاد وممارسة إسلام ظاهرى.

عندما اغتيل السادات، ألقى القبض على الظواهرى، وكان مسئولا صغيرا فى الحركة. تمت إدانته بتهمة حيازة أسلحة، وأفرج عنه بعد ثلاث سنوات. فى عام ١٩٨٦، يغادر الظواهرى مصر بصفة نهائية؛ كانت السنوات التى تلت ذلك غير واضحة التفاصيل. . المملكة العربية السعودية، السودان، ثم باكستان، حيث كان قد أنشأ معسكرات تدريب بالقرب من مدينة بيشاور للمتطوعين العرب المستعدين للقتال إلى جانب المجاهدين الأفغان ضد الغزو السوفيتى، انضم إلى هذا التنظيم أحد أثرياء السعودية لم يكن معروفا وقتها كان يدعى: أسامة بن لادن.

فى بيشاور سوف تتكشف شخصية الظواهرى، تحت تأثير مؤسس جماعة الجهاد الإسلامى، الدكتور فاضل، الرجل الذى سوف يصوغ مفهوم «التكفير» محاربة المسلمين الذين هم فى حكم « الكفار» أو المرتدين. استجاب الكثير من المصريين المسلمين فى تلك الفترة إلى نداء الحرب المقدسة، الذى تردد فى أرجاء العالم الإسلامى عبر نشرات ملحقة بالجرائد، تدعو كل من يرغب إلى المشاركة فى الحرب ضد الجيش الأحمر؛ بهذه الطريقة منحت مصر نفسها بعض التأجيل. دون أن تدرك أنها قد أشعلت فتيلة قنبلة مؤقتة حقيقية.

علي الرغم من المنفى، فإنه قد إستمرت رغبة الظواهرى فى إسقاط النظام المصرى. فى عام ١٩٩٣، ضاعفت حركة الجهاد الإسلامى محاولات اغتيال شخصيات مهمة فى الحكومة، رئيس الحكومة، وزير الداخلية، فى عام ١٩٩٥، حاولت اغتيال حسنى مبارك على هامش أحد مؤتمرات القمة العربية فى أثيوبيا، ثم أعلنت مسئوليتها عن الهجوم على السفارة المصرية فى إسلام أباد ثم أوقفت عملياتها حتى عام ١٩٩٨ . فى ذلك الحين، أعلن الظواهرى انضمامه إلى بن لادن فيما يسمى الجبهة الإسلامية لمكافحة اليهود و الصليبيين. حركة أكدت أنها سوف تهاجم المصالح الإسرائيلية والأمريكية و أهدافًا تبدو بعيدة عن الأيدلوجية الأصلية لحركة الجهاد: «محاربة العدو القريب، قبل العدو البعيد».

ارتبط هذا التغيير فى الأهداف بظرف تاريخى. انتهت الانتفاضة فى الأرض المحتلة وتم توقيع اتفاقيات. « أوسلو» كان الجيش الأمريكى مستقراً فى السعودية منذ حرب الخليج وقد ضاعف من ضرباته ضد العراق. وسلمت المخابرات المركزية الأمريكية، قبل ذلك بعدة أشهر، إلى الحكومة المصرية أعضاء جماعة الجهاد الذين تم القبض عليهم فى ألبانيا.

منذ ذلك الحين، تتبعت كل أجهزة المخابرات أثر هذا الرجل الذى لعب دور الذراع اليمنى، والمتحدث الرسمى والطبيب الشخصى لبن لادن. المستشار السرى للقاعدة، بل العقل المدبر الحقيقى للإسلام الدولى؟

٢٨ فبراير ٢٠١١

على شاشات صالات التحرير، برقيات من وكالات الأنباء تعلن أنه تبعا لـ SITE المركز الأمريكى لمراقبة المواقع الإسلامية، فإن أيمن الظواهرى قد أذاع لتوه رسالة صوتية. ينتقد فيها بشدة الحكام الجدد الذين تولوا السلطة فى مصر وتونس بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية.

« سوف تظل مصر قاعدة للحملات الصليبية وشريكاً من الطراز الأول للولايات المتحدة فى حربها ضد الإسلام، الموصوفة بأنها حرب ضد الإرهاب، وحامية لحدود الكيان الصهيونى (..) . مازال الطريق طويلا قبل أن نحرر جماعة المسلمين من المعتدين عليها ومن غزاتها.»

على شاكلة أيمن الظواهرى، التحق العديد من المصريين بأراضى الجهاد الجديدة (ديار الجهاد) باكستان ،السودان وأفغانستان، حيث يتجمع أكثرهم تشددا تحت راية بن لادن، هؤلاء الذين يرفضون الهدنة التى أفتى بها قادة الجماعة المحبوسون. من بين المصريين، اختار بن لادن أخلص معاونيه. مثل محمد عاطف، مسئول الجناح العسكرى فى المنظمة التى سوف يتعود العالم عليها قريبا على معرفتها تحت اسم «القاعدة ».

معززين، بانهيار الاتحاد السوفيتى، الذى منحوا أنفسهم الفضل فيه، صار الجهاديون على قناعة بقدرتهم على الإيقاع بأمريكا بجرها إلى المستنقع الأفغانى الموحل...كانت الشبكات الراديكالية المصرية فى شرق أفريقيا ،التى تطورت عندما كان بن لادن و الظواهرى لاجئين فى السودان فى بداية التسعينيات، قد أتاحت للقاعدة النجاح فى تنفيذ ضرباتها الباهرة الأولى: الاعتداءات على السفارات الأمريكية فى كينيا وفى تنزانيا. مائتان وأربعة وعشرون قتيلا، فى أغسطس عام ١٩٩٨.

أقصى ضربات هذا الجهاد الكونى وقعت فى صباح الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، أمام أنظار العالم، المذهول. على رأس قراصنة الجو الذين أسقطوا

برجى مركز التجارة العالمى، رجل اسمه محمد عطا. مرة أخرى كان هناك مصرى.

نسى الإرهابيون مصر، بعد أن استحوذت عليهم فكرة الحرب ضد الغرب. خلال سبع سنوات تمتعت مصر بالأمن وطورت بإيقاع جنونى السرعة من صناعة السياحة ،الحيوية لاقتصادها. لكن حالة السلام لم تدم طويلا.

هيكل متشقق من الخرسانة، أطراف كابلات كهربائية، طوابق نصف متهدمة تتدلى فى الفراغ. أمام فندق هيلتون –طابا، على شاطئ البحر الأحمر، على بعد مئات الأمتار من الحدود الإسرائيلية. صارت الأشجار، الأوراق، الأعشاب مكسوة كلها بنفس اللون الرمادى. فى صمت ذلك الثامن من أغسطس، المخبول، ينهمك رجال الإسعاف مصريين وإسرائيليين فى العمل، وسط الأطلال و الغبار.

قبل ذلك بعدة ساعات، توقفت سيارة نقل صغيرة أمام المبنى. كان الليل قد حل منذ وقت طويل على هذه المحطة البحرية. فى قاعة الاستقبال، لم يلق الموظفون، المشغولون بإجابة طلبات العملاء الأخيرة، بالا إلى السيارة ولا إلى الرجل الذى توجه ناحية حوض السباحة حيث لا يزال بعض السائحين يستمتعون، بالقرب منه، بنعومة الطقس.

ويأتى الانفجار، مدمرا، مروعا.

ثم، بعدها بربع ساعة ،انفجار آخر أمام معسكر ترفيهى فى رأس شيطان، على بعد أربعين كيلو مترًا جنوبا . وتقريبا فى نفس التوقيت انفجار ثالث، فى مدخل إحدى القرى السياحية الصغيرة نقطة مشتركة.كل هذه الأماكن يتردد عليها الإسرائيليون، الذين يجدون فيها أماكن للاستجمام قريبة ورخيصة فى نفس الوقت وكانت تعتبر وقتها أكثر أمانا من الشواطئ الإسرائيلية.

الهجوم الثلاثى، سيارات مفخخة وانتحارى واحد على الأقل، خلف أربعة وثلاثين قتيلا وأكثر من مائة جريح. مصر التى سممتها الجراح، تستأنف علاقتها بالإرهاب، الجحيم الذى ظنت أنها قد خرجت منه عام ١٩٩٧، والذى لم يكن قد ضرب سيناء قبل ذلك مطلقا.

السلطات المصرية، التى كانت تفاخر بأنها قد سحقت الجماعات الإسلامية المسلحة، تتبنى أمام هذا النوع الجديد من الإرهاب نفس القمع الأعمى: تم اعتقال أكثر من ثلاثة آلاف شخص، العديد من بينهم تعرضوا للتعذيب، تبعا لشهادات قامت بجمعها منظمات حقوق الإنسان. بعدها بقليل أعلن وزير الداخلية تفكيك خلية إرهابية. تتكون من بعض البدو المنتمين إلى مدينة العريش، أهم مدن شمال سيناء وكذلك من بعض الفلسطينيين الذين لجئوا إلى مصر منذ وقت طويل.

لكن الداء ظل كامنا، لم يجر استئصاله. فى شهر يوليو ٢٠٠٥، عصف الإرهاب بمدينة شرم الشيخ هى الأخرى، نفس الوسائل المستخدمة فى طابا: سيارة مفخخة هدمت فندق «غزالة جاردنز» «انفجر العديد من القنابل فى مواضع أخرى من المدينة السياحية . أكثر من سبعين قتيلاً. فى شهر إبريل من نفس العام هز مدينة دهب انفجار ثلاثى، راح ضحيته ثمانية عشر شخصا. فى اليوم التالى انفجرت عبوة ناسفة «يتم التحكم فيها عن بعد، أثناء مرور إحدى المركبات التابعة لقوة المراقبين الدوليين المكلفين بالإشراف على تطبيق اتفاقيات السلام المصرية ـ الإسرائيلية ، بالقرب من قاعدتها فى «الجورة» بالقرب من الحدود مع قطاع غزة.

اتهم القضاء المصرى جماعة إسلامية صغيره غير معروفة بالقيام بتلك السلسلة من الاعتداءات «التوحيد والجهاد التى نفذتها باسم القاعدة. غير أن كل الخبراء يقولون: إن عمليات بمثل هذا التعقيد وتلك التكاليف لا يمكن لها أن تتم دون تواطؤا من داخل قبائل شبة الجزيرة المختلفة، الغاضبة من المعاملة السيئة التى تعاقبهم بها السلطات فى القاهرة.

على الشاطئ فى دهب، بعد عدة أيام من الاعتداءات التى أدمت تلك الاستراحة البحرية الصغيرة، يخرج «غزان » رخصة السير التى يحتفظ بها بحرص شديد فى حافظة أوراقه. غزان واحد من البدو. من شمال سيناء. قدم إلى الجنوب. حيث لم يكن مصرحا للكثير بذلك.

جالسا على عقبيه، غارقا فى أفكاره، يرسم فوق الرمال خطوطا متعرجة. بالأعلى، فى العريش، تعيش بقية عائلته. على بعد بضع مئات من الكيلو مترات. عمليا مسيرة يوم بالسيارة على طريق تقطعه نقاط التفتيش، التحقق من الهوية... كان الدخول إلى شرم الشيخ أكثر سهولة بالنسبة إلى سائح عنه بالنسبة إلى بدوى من شمال سيناء، الذى كانت أبواب جنوب شبه الجزيرة غير ممكنة العبور تقريبا بالنسبة إليه.

العريش، مائة ألف من السكان على شريط من الرمال، فاتحة اللون على ضفاف بحر متوسط عميق الزرقة، تحيل لونه الرغوة البيضاء للأمواج الهائلة التى تتكسر على الشاطئ. بستان نخيل كان فى الماضى شاسعا، وسط مدينة فاتر، راكد، شوارع تكسوها الرمال بعض المعامل، مصانع أسمنت، ملاحات. غير أن الوظائف كانت نادرة فى أهم مدن شمال سيناء، محجوزة غالبا لأهل وادى النيل. سياسة موجهة لتمصير شبة الجزيرة، التى يسكنها البدو الذين لم يتوقف عداؤهم للحكومة المركزية عن التزايد خلال السنوات الأخيرة.

هؤلاء البدو، الذين يسيطرون على مساحات شاسعة من الأراضى الصحراوية والجبلية، عاشوا دائما على هامش المجتمع المصرى، يكسبون أرزاقهم بفضل تربية بعض الحيوانات والعديد من أشكال التهريب والإتجار مع إسرائيل وقطاع غزة: أسلحة، مخدرات أو مهاجرين غير شرعيين.

إذا كانت قبائل الجنوب قد استفادت قليلا من الفوائض المالية لحالة الرواج السياحى فى مراكز الترفية البحرية فى خليج العقبة،مثل شرم الشيخ ، فإن قبائل الشمال قد غاصت ببطء فى البؤس والفاقة وفى الأصولية الإسلامية، المتشددة ، يحتمون بها من خيبات أملهم تجاه هذا الوطن.

كانت هذه الأرض المنسية تحديا حقيقيا للأمن المصرى فى فترة ما بعد الثورة، وسط ظرف إقليمى يهدد بالانفجار. صارت تنميتها اقتصاديا وتقليص أوجه عدم المساواة من الأولويات. لأن الأنفاق التى تمد غزة، الواقعة تحت

الحصار الإسرائيلى - بالمؤن فى تلك المنطقة المهملة من قبل الدولة، قد أصبحت مصدر الدخل الوحيد.

رفح مطلع عام ٢٠١٠

كان أذان صلاة الظهر بمثابة إشارة ، فى شوارع تلك المدينة المصرية، الضيقة التى تعمها الفوضى، الواقعة على حدود قطاع غزة ، سرعان ما تبدأ حركة تبدو كأنها رقصة تم التدرب عليها جيدا. خلال دقائق معدودة، تدور ساقية من عربات نصف النقل محملة عن آخرها ببضائع موضوعة فى أكياس بلاستيكية بيضاء،تندفع فى سرعة جنونية باتجاه مدخل الأنفاق ، الرابط الوحيد بين المحبس الفلسطينى المحاصر والعالم ،مادام الحصار الإسرائيلى مستمرا وإغلاق المنافذ الحدودية مع مصر. فى كل مفرق طريق، ينتشر المراقبون والعسس.

يستخدم منزل أبو ماهر فى بلدة «المنصورة» المجاورة كمخزن. فى عام ٢٠٠٩، استثمر أبو ماهر كل مدخراته التى بلغت حوالى الستة آلاف يورو، فى شراء حواسب إلكترونية محمولة وأجهزة راديو السيارات، ،التى يجب أن تحمل إليه من الناحية الفلسطينية ضعف هذا المبلغ .غير أن البضائع قد وقعت فى أيدى رجال الجمارك ،الذين جنوا هذه الأرباح عبر إعادة بيع هذه المضبوطات بالمزاد فى القاهرة.

من مصادرة إلى أخرى، انقلبت ملامح رفح رأسا على عقب. منذ الحرب على غزة، فى يناير ٢٠٠٩، قامت أسوار من الطوب الأحمر حول حقول الزيتون واللوز بغرض تمويه المخازن والأنفاق .كم عدد الأنفاق الموجودة؟ ثلاثمائة؟ أربعمائة؟ لا يعلم أحد عددها بالضبط. فى غزة نشير إليها بفخر وفى تحد، فى الناحية المصرية لا يراها أحد، تقريبا. حتى وإن كانت السلطات تعلم أين توجد على وجه التقريب وتدرك ما يجرى فيها.

يستفيد البدو من هذا النشاط المتوقد بشكل واسع للالتفاف على الحصار الذى تفرضه إسرائيل على قطاع غزة منذ أن طردت حماس السلطات الفلسطينية منها فى شهر يونيو عام ٢٠٠٧، أدت هذه التجارة غير الشرعية المزدهرة إلى اشتعال أسعار الأراضى الزراعية المجاورة للحدود، مشجعة السكان الذين كانوا يقومون بزراعة أشجار البرتقال والخوخ واللوز إلى إزالة مزروعاتهم من أجل بناء المخازن.

ما يمكن أن يجعل عملية إعادة الوضع إلى سابق عهده تبدو محل شك فى المدى المتوسط. «إذا رفع الحصار عن غزة وفتحت المعابر الحدودية لرفح، لن يستطيع الناس التراجع إلى الخلف بسهولة» يقول خليل السواركة، أحد نشطاء البدو السياسيين. مما ينذر بتوترات جديدة، إذا لم تتم إقامة وتنمية نشاط اقتصادى قادر على البقاء فى غضون ذلك الوقت.

غير أن المنطقة ذات تقليد تحررى وحدوى قديم بطرقها الضيقة المحاطة بأشجار التين البرى،كان من الصعب على السلطات المصرية السيطرة على هذه المنطقة منزوعة السلاح، لأنها لم تكن تستطيع أن تنشر فيها إلا عددا محدودا من قوات حرس الحدود، وفقا لاتفاقية كامب ديفيد للسلام.

التراشقات الطاحنة بالأسلحة النارية تندلع باستمرار بين رجال الشرطة المهربين من البدو ، وهؤلاء الآخرون الذين يطبقون شريعة العين بالعين القديمة الرهيبة، لم ينتظروا الثورة على حسنى مبارك حتى يقوموا بإحراق مراكز الشرطة، إذا ما تعرض أحدهم للموت أو إذا ما صودرت أراضيهم.

أثناء الثورة، وقعت مواجهات عنيفة فى الشيخ زويد، بالقرب من رفح، حيث دمرت خطوط الغاز التى تمد الأردن وإسرائيل بالغاز الطبيعى المصرى، مذكرة بهشاشة الوضع فى هذه البقعة التى يضعها بعض الخبراء فى مقارنة مع منطقة وزير ستان فى باكستان.

مصدر آخر لإثارة القلق: الأنفاق التى تمد غزة بالمؤن يمكن أن تستغل فى الاتجاه المعاكس لإدخال الأسلحة والمتفجرات بغرض القيام باعتداءات فوق الأرض المصرية. قلق لم يكن محض افتراض ، حيث إن جيش الإسلام، جماعة سلفية صغيرة من غزة ،كان قد اتهم بعد الاعتداء الذى استهدف سوق خان الخليلى، بالقاهرة، فى فبراير عام ٢٠٠٩، والذى راحت ضحيته فتاة فرنسية فى السابعة عشرة من عمرها.

الإسلام ملاذ آمن

بسم الله

سمر تبكى، تضحك. لم تعد تعى جيدا ما تفعله. منفعلة إلى حد أنها قد نسيت نقابها على الأريكة، حيث كانت جالسة عندما أعلن التليفزيون، منذ وقت قصير، عن رحيل الرئيس مبارك. حاسرة الرأس ،هبطت إلى الشارع ،انضمت إلى الحشد المبتهج، المختلط، الذى اندفع فى الشوارع، اتجاه ميدان التحرير، ذلك الميدان الذى انطبق عليه اسمه منذ الآن فصاعدا. قبل هذا اليوم بأسبوعين، فى لقاء معها بالقرب من حوض للرمل، حيث كانت تحمل طفلها ليلعب، عبرت الشابة ربة الأسرة عن نفاد صبرها من هذا النظام الذى يسيطر عليه الخوف وانعدام الحرية.

ربما لم يضعنا النظام كلنا فى السجن. إلا أنه قد وضعه فينا، هنا فى الداخل.

بإصبع يغطيه سواد قفازها، أشارت إلى رأسها، إلى عقلها. ماذا يهم فى أن يختفى تحت ستار أسود سميك: من سمر، لا يرى المرء سوى عينين، تخترقان فرجة نقابها السابغ. ما تريده سمر، كما تقول، هو ألا يؤثر فى الناس سوى كلماتها فقط، دون أن يكون لوجهها، تأثير على أفكارها. كلما هاجمناها بسبب هذا النقاب؛ تمسكت به أكثر، عنصر مؤسس لتفردها الذاتى وعلى كل من يسألها، بشكل عدوانى، فى تردد أو لمجرد الفضول عن هذه الستارة السوداء، التى تبدو كحاجز، كانت تجيب: حرية شخصية.

فيم يمنعنى هذا فى أن أكون ما أود أن أكون؟

فى ميدان التحرير، هتفت سمر مع النساء الأخريات ،مع الرجال الآخرين. جنباً إلى جنب، رفعت اللافتات، رددت الشعارات، لوحت بالأعلام. أظهرت صور مصر الثائرة، التى نقلتها عشرات الملايين من الشاشات عبر الكوكب، للعالم كله، بلدا متعدد الجوانب بكل تأكيد ،لكنه عميق التدين أو على الأقل متأثر بملامحه الظاهرة. هذه العشرات من الآلاف من الظهور المنحنية سوياً للصلاة فى الميدان. أنقبة النساء، تلك الأحجبة البسيطة، الصارمة أو المتحررة، التى تغطى معظم الرؤوس. إذا كان بعض الخبراء، مثل عالم السياسة olivi er roy فى مقال نشرته جريدة le monde لوموند ـ يؤكدون أن الثورة المصرية هى «ثورة أصبحت مؤخرا إسلامية «أما الآراء العامة الدولية، التى تلقت مباشرة صدمة هذه المشاهد المؤثرة التى تأتى لتثير عن بعد كثيرا من الأسئلة حول أهمية التدين والنتائج المترتبة عليه فى المجتمع المصرى. تلك الظاهرة التى تتسارع وتيرتها بشكل خاطف منذ عشرين عاما.

نهلة شقراء وجميلة.

لكن قليل من يعرف ذلك، لأنه، فى غرفة نهلة، توجد خزانة إلى اليمين، تتراص فيها السراويل، القمصان الملونة، التنانير المنقوشة، الملابس الداخلية. وخزانة أخرى إلى اليسار. تلك التى تفتحها قبل أن تغادر عتبة شقتها الأنيقة، القريبة من الأهرام. على المشجب نقابات رمادية، زرقاء قاتمة، أو سوداء.

فى الثامنة والأربعين، كانت تضع النقاب منذ عشر سنوات مرت. نهاية بحث روحى حمل هذه المرأة التى تنتمى إلى البرجوازية الصغيرة المتأثرة بالأفكار الغربية، إلى أبواب إسلام أكثر راديكالية من الإسلام الذى كانت تمارسه حتى ذلك الوقت.

ـ لم أكن أستطيع أن أجد معنى لحياتى. كنت أشعر بحالة من عدم الرضا، باستمرار فى انتظار شىء ما أكبر منى. لم أجده فى حياتى اليومية «الدنيوية » . بدا لى أنه من الجوهرى أن أعد نفسى للأهم، للحياة الآخرة.

نهلة السابقة، مازالت تحيا فى حافظة أوراقها، فى صورة مثنية الطرف، تبديها اليوم ضاحكة، بكثير من الدلال.

لقد كنت جميلة، لكن مع ذلك!، ياللقلة الحياء!.

فى الأفق تلوح القبعة الحجرية لهرم خوفو، فى نهاية شارع الهرم ،الذى تنتصب على جانبيه الفنادق، المعروف فى العالم العربى كله بملاهيه الليلية وراقصات ذوات بطون عارية وكذلك بمسارحه العديدة. من سقف الشرفة، المحجوبة عن الأنظار، تتدلى أسلاك كهربائية مقصوصة بلا عناية.

لقد كنت أعشق الاستماع إلى موسيقى البوب. كنا قد قمنا بتركيب مكبرات للصوت حتى هنا فى هذه الشرفة. لكن اليوم، انتهى كل هذا ! أنا أركز على قراءة القرآن. لم أعد أستمع إلى الموسيقى. وفى النهاية، أنا أحاول.

الأسطوانات التى تسمعها نهلة تتكدس فى الصالون، أناشيد، مدائح نبوية وأغانى ذكر، كلها تتغنى بتسبيح الله ومدح الرسول.

قصة نهلة، هى قصة مئات الآلاف من النساء المصريات، اللاتى حققن، فى سنوات قلائل، انقلاباً دينيا كبيرا. نساء اعتمدت عليهن عملية إعادة أسلمة البلاد. لم يكن كلهن من أنصار النقاب، بل على العكس من ذلك. كانت ظاهرة نادرة جداً فى شوارع القاهرة فى نهاية التسعينيات، تعلقت تقريبا بامرأة واحدة محجبة من كل ثمانى، إذا ما اعتقدنا فى صحة ما جاء بدراسة نشرتها الصحافة المصرية عام ٢٠٠٩، أحد مظاهر أسلمة المجتمع الأكثر وضوحا، عودة التشدد الدينى، الذى تشجعه، أو على الأقل تتغاضى عنه الدولة ذاتها من أجل إضعاف الإخوان المسلمين.

أما الحجاب، فقد صار هو القاعدة، تتنهد فى حسرة هؤلاء اللاتى يرفضنه حتى الآن، على الرغم من الضغوط الودية. فإن تَحمُّل الهدايا الإجبارية من الزميلات الراغبات فى إنقاذ إحدى الأرواح الهائمة، اللاتى يقدمن لهن هدايا من الأحجبة والأوشحة الجميلة، محاولة لاستكشاف مزايا الحجاب. الصديقات

اللاتى يساورهن القلق بشأن حالة العزوبية التى تُرى طويلة فى عيونهن. فى العادة يطمئن الرجال إلى الزواج من فتاة تضع الحجاب.

وأخيرا، هناك كل تلك النساء، اللاتى لا يملكن الخيار. خصوصًا فى الطبقات الشعبية، حيث تتكاتف ضغوط العادات الاجتماعية و التقاليد الدينية، كذلك السلطة الأبوية للزوج أو الأب، التى لا تتيح أمامهن سوى إمكانية وضع الحجاب إن أردن الخروج إلى الشارع، بل، ولأوفرهن حظا، أن يعملن.

متشددة... تجاه هذا النقد، كانت نهلة تفضل أن ترد عبر سرد مشوار حياتها الخاص. حياة فتاة قاهرية ولدت لأسرة مثقفة ومتحررة ،ترتدى البيكينى وتشرب الجعة وتنسى أحيانا حتى صوم رمضان. تماما مثل زوجها، الذى يمارس طقوس دينه بشكل عارض. حتى ذلك اليوم فى مطلع الألفينيات، حيث انقلبت الأوضاع رأسا على عقب.

جلسة لتناول الشاى جمعتها مع إحدى الصديقات، حوار متبادل، يسيطر عليه إحساس بخيبة الأمل، يدور حول الوقت الذى يمضى، الجمال الذى يزوى، الأولاد الذين يشبون، العالم الذى صار قاسيا. عند رحيلها، تركت لها ضيفتها شريط كاسيت على البطاقة المصورة الملصقة، هناك اسم، اسم الداعية عمر عبد الكافى.

أخذت نهلة الشريط، وبعد عدة أيام، وضعته فى جهاز راديو السيارة.

كانت صدمة: الشيخ يحدثها عن عذابات روحها، عن الآخرة المشرقة الموعودة للمتقين، محاسن الحياة الأبدية، تفاهة الملذات الدنيوية. وحيدة داخل سيارتها، المتوقفة إلى جوار أحد الأرصفة، تجهش نهلة بالبكاء. ثم تهرع إلى المسجد.

فى ذلك اليوم، وجدت لحياتى معنى من جديد، تؤكد فى شاعرية.

منذ الحين، توزع نهلة حياتها بين الله، أولادها وزوجها، الذى لم يكن مغتبطا فى البداية لتلك النزعة الدينية المفاجئة. صلاة، تلاوة قرآن وأعمال بر تحكم إيقاع حياتها اليومية.

مساء الثلاثاء، مثلما يحدث كل أسبوع، تسرع نهلة باتجاه حى المهندسين، عرين البرجوازية القاهرية الصغيرة. فى الطابق السابع من بناية مترفة ذات مصعد براق مبهر، حيث أزيحت قطاع الأثاث ووضعت مائدة قاعة الطعام فى الشرفة.

لم يكن هناك شىء فى العالم يمكن أن يعطلها عن حضور الحلقات، مثل حلقة اليوم، عند صديقتها سلوى. بطريقة أكثر ابتذالاً كان البعض يراها «اجتماعًا منزليًا إسلاميًا أو إعادة، ذات صبغة دينية، لصالونات البراجوازية المصرية فى بدايات القرن العشرين.

تزايدت أعداد الحلقات، التى لم تكن معروفة منذ خمسة عشر عاما، فى الأحياء الميسورة للعاصمة المصرية. فى بداية سنوات الألفينيات كانت هذه الحلقات إحدى الظواهر الكبرى فى عملية إعادة أسلمة المجتمع. كان المبدأ ثابتا لا يتبدل: فى يوم محدد، تقوم إحدى السيدات بدعوة معارفها المقربات إلى منزلها لسماع إحدى المحاضرات الدينية وهن يتناولن الحلوى التى تقوم المشاركات بإحضارها. الدعوة عامة، يمكن للمرأة أن تجلب صديقاتها، ثم يدور الحديث حول الأطفال، المشاكل الزوجية، الهموم اليومية، مرشوشة بسكر الدين.

فى تلك الأمسية، فى منزل نهلة، تراصت الحلوى والشطائر، الشاى والقهوة، على صوان من خشب الجوز، يميل عليه إطار أسود تتألق داخله، ذهبية اللون، أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون. نحو أربعين امرأة، كن يجلسن على الوسائد فوق السجادة الثمينة دقيقة الصنع، مسندات الظهور إلى الحوائط، متزاحمات على الأريكة، يلتزمن الصمت، مصغيات لما يقال. الأكثر شبابا فى العشرينيات بالكاد، أحجبة ملونة ملتفة بمهارة، سراويل الجينز، أحذية عالية الكعوب، يتركنها كما تتركها الأخريات بالقرب من المدخل عند وصولهن. الأكثر تقدما فى العمر فى العقد السابع.

الأغلبية فى سن الأربعين الأنيقة، مناديل عنق رمادية أو سوداء، تايورات - بنطلونات أو جلابيب تقليدية، مجوهرات، مساحيق تجميل، بعضهن فقط. فتاتان صغيرتان تغفوان على ركبتى أمهاتهما.

الرسول، عليه الصلاة و السلام، قالها لنا: يجب علينا أن نقوم بالأعمال الصالحة، يجب أن نقدمها. يجب ألا نفعلها من أجل أنفسنا، بل لوجه الله سبحانه و تعالى.

فى وسط الغرفة، فى قلب دائرة النساء، تبدأ الواعظة «الدرس» محدقة فى مستمعاتها، طوال أكثر من ساعة، تسترسل فى الربط بين النوادر و السور، الصلوات، الأدعية والنصائح، تقاطعها بالكاد آهات التعجب أو تأوهات الاستحسان أو الاستنكار. المدعوات، موافقات على رأيها تلقائياً، يعلقن فى همس، يُدوّن بعض الملاحظات.

من ارتداء الحجاب إلى أعمال الخير، ومن العناية بأمور الأسرة إلى ضرورة أن يكون للإنسان هدف فى حياته... تختلط الأحاديث. تثار كل الموضوعات.

رافعةً إصبعا لضبط إيقاع كلماتها، تشرح الواعظة كيفية تشديد الصوت على بعض المقاطع فى التلاوة أو الدعاء قبل أن تختتم حديثها: ليس المهم أن نقيم الصلاة فقط، أو نعمل الصالحات، لكن المهم وقبل كل شىء هو أن نتقى الله.

تطلق نهلة همهمة موافقة.

فى تلك الأمسية، فى ذلك الحريم المرتجل، لم يكن هناك سوى اثنتين ممن تضعن النقاب مثلها، سيدتان منتقبتان فقط. غير أن البعض كن يغبطونهن على شجاعتهن.

- أنا لا أشعر أنى قادرة على فعل هذا. يجب أن تجرى الأمور تدريجيا.

على رأس ليلى وشاح يحمل توقيع burberry. ليلى لم تضع الحجاب إلا عندما وصلت إلى الخمسين من عمرها.

فى شبابها وفى أوسط عمرها، تتذكر ليلى باسمة، كان ذلك أمرا لا يمكن تصوره تقريبا.

كانت مصر معروفة بكونها تضم مجتمعا متحررا للغاية فى السبعينيات.

فوق الأرفف الموجودة فى الصالون، محشورة بين تذكارات رحلات سابقة، ترقد ألبومات صورة العائلة. أذرع عارية وتنانير قصيرة جدا: يمكن أن تفتحها أو أن تشاهد أى فيلم من أفلام تلك الحقبة حتى تدرك مقدار التغيير. من بعد أمهات يضعن التنانير القصيرة أتت البنات المحجبات.

لقد كنا أكثر جهالة، تضحك ليلى. لقد كنا نود تقليد كل ما يأتى من الغرب. لقد تغير المجتمع.

ظهرت أولى الحلقات فى القاهرة فى مطلع التسعينيات تحت رعاية عمر عبد الكافى، أحد أبناء النخبة القاهرية و السيدة سوزى ماهر المشهود لها بالورع و بالوجاهة الاجتماعية.

فى حلقته يشارك عدد من مشاهير «التائبات» ممثلات أو مطربيات تنازلن عن خشبات المسارح وعن الشهرة حتى يتخذن الحجاب.

جلبت هذه الحميمية مع النجوم مزيدا من الأنصار الجدد. فى تلك الفترة لم تكن فى مصر أية واعظة. « الدرس «يلقيه أحد الشيوخ، حرصا على عدم الاختلاط، من غرفة مجاورة، خلف أحد الأبواب أو من وراء ستار. سريعا جدا وصل صالون سوزى ماهر إلى حالة التشبع، و انتشر كبقعة زيت. اليوم وفى غياب أرقام محددة وبسبب الأشكال المتغيرة لهذه الاجتماعات الخاصة، فإنه من المستحيل أن تعرف أعدادها على وجه الدقة. يجرى الحديث عن عدة عشرات، بل عن مئات.

منذ بداية الألفينيات، كان من الصعب عدم ملاحظة تأثيرها الذى صار ظاهرة مدهشة فى شوارع القاهرة. الأحجبة التى تضعها الآن الأكثر ثراءً من بين النساء والتى كانت حتى ذلك الوقت قاتمة وغير لائقة صارت أكثر عصرية

وفخامة. تعرض محلات الملابس الراقية أطقما متناسقةً. تقوم مجلات متخصصة بتعليم النساء كيفية تغير وتنويع أشكال لف الحجاب، وفق ما يناسب ملامحهن وشخصياتهن. أشرطة الكاسيت القرآنية التى يعلوها الغبار، والتى كانت تباع فيما سبق على أبواب المساجد غيرت جلدها. صارت أسطوانات الفيديو المدمجة المغطاة بالسوليفان، ذات الأغلفة الملونة من أشكال الهدايا.

هذه العودة إلى حياة التدين، خليط من مشاعر الشفقة الظاهرة بالآخرين والبحث عن هوية، اتسعت فى تلك الأثناء وصار لها زخم صدمة كونية جاءت لتقلب معالم ومفاهيم هذه الطبقات الاجتماعية المتأثرة بالغرب نسبيا رأسا على عقب.

القاهرة ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٤

فى قاعة المؤتمرات بفندق شيبرد المطل على نيل القاهرة كان هناك رجل يتحدث غضبانا مبهور الأنفاس، فاقد السيطرة على نفسه.

أمامه، عشرات الكاميرات. أكثر من مئة صحفى من كل أنحاء العالم يحاصرونه بالأسئلة. كان يعبر العقد السابع من عمره، يرتدى حلة رمادية، ينضح عرقاً. متوج الرأس بالشعر الأبيض.

محام، مصرى، متقاعد

اسمه: محمد الأمير عطا. منذ عشرة أيام، انفتحت تحت أقدامه أبواب الجحيم.

أشعِل التلفاز، قالت له ابنته.

فى ذلك اليوم، الرابع عشر من سبتمبر، كان محمد الأمير عطا قد عاد من أجازة قصيرة أمضاها على شاطئ البحر. أطاع محمد ابنته. على شاشة التليفزيون ترتسم ملامح وجه ما. كان النبأ قد أذيع للتو.

حدد مكتب التحقيقات الفيدرالية شخصيات منفذى الاعتداءات الرهيبة التى زعزعت أركان أمريكا والعالم منذ ثلاثة أيام مضت. فى المشاهد التى تعرضها كاميرات المراقبة يظهر شبح رجل. شعر أسود قصير يحيط بوجه أجرد. هيئة مألوفة، أو تقريبا كذلك. هيئة ابنه. محمد عطا الصغير.

واحد من أبنائها خلف اعتداءات الحادى عشر من سبتمبر. مصر تتلقى الخبر كصفعة مدوية على صميم الوجه. شاب عادى، مسالم للغاية مثل كثير من الآخرين الذين نصادفهم فى شوارع القاهرة. خريج كلية الهندسة، قسم العمارة، جامعة القاهرة، تابع دراسته فى هامبورج بألمانيا. «كان صبيا موثوقا ومثابرا»، وكما يؤكد والده «لم يكن له آراء سياسية» لم يكن أصوليا متشددا بأية صورة من الصور.

ليس لابنى أى شأن فى هذه الاعتداءات ! إنه شخص محب للحياة!

يعلو الصوت ثم يحط، يغضب ،ثم ينكسر فى القاعة، يخربش الصحفيون فى دفاتر ملاحظاتهم بسرعة عصبية. يستأنف المحامى العجوز، لقد اتصل محمد بوالديه فى اليوم التالى لسقوط البرجين التوأم، اعتداءات لا يدرى عنها شيئا لأنه كان متغيباً فى أجازة.

ـ حقًا ؟ لكن أين يوجد ابنك إذا ؟يسأله أحد الصحفيين مندهشا.

ـ اسألوا الموساد ،يرد محمد الأمير عطا ،على شفا الدخول فى نوبة عصبية.

إنكار، إحساس بالمهانة، وعدم الفهم. آلام محمد الأمير عطا تبدو اليوم شبيهة الأعراض جدا بالحالة التى غاصت فيها مصر نتيجة أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، والتى ربما يمكن لثورة يناير أن تخرجها منها، دافعة بها نحو رهانات وتحديات أخرى.

وجدت نظريات المؤامرة فى مصر باستمرار مرتعا خصبا. وفى تلك الأوقات العصيبة، لم تكن تلك النظريات لتنتظر طويلا حتى تظهر، منذ أيام التحقيق الأولى، كان المصريون على قناعة بذلك: خلف هذه الاعتداءات تورطت بصورة

وثيقة، أيدى الإسرائيليين ،الأمريكان، أيدى أصحاب المصالح البترولية،جهات التسليح، أيدى أعداء الإسلام وأعداء العالم العربى.

بالنسبة إليهم، كانت النتائج الأولى فورية: أغلقت أبواب القنصليات. صار استصدار تأشيرات الدخول أكثر صعوبة عن ذى قبل. يجب الانتظار عدة شهور قبل الحصول على موعد مقابلة مع السلطات القنصلية الأمريكية، تقريبا نفس الوقت بالنسبة إلى الدول الأوربية. تبددت أحلام استكمال الدراسة فى الخارج، بالنسبة إلى العدد كبير من الشباب، كانوا يرون فى ذلك الوسيلة الوحيدة للخلاص من أفق مسدود يخيم فوق بلادهم.

بالنسبة إلى الطبقات الميسورة، كانت الآثار أكثر وبالا. هؤلاء الذين كانوا يجتازون بالأمس الدوائر الجمركية فى المطارات الدولية دونما تعويق صار عليهم الخضوع لاستجوابات دقيقة لعمليات الفحص المتأنى لجوازات سفرهم من كل جوانبها.

بطرس، طبيب قبطى من أهل القاهرة، معتاد على قضاء شهر من كل عام فى الولايات المتحدة، مر بهذه التجربة المهينة.

لقد شعرت بأنى أعامل كإرهابى خطير. حقيقة كونى مسيحيا لم تغير من الأمر شيئًا: أنا أحمل اسما عربيا، أنا قادم من مصر. كان ذلك كافيا ليجعل منى شخصاً مشبوهاً.

فى صوته الأجش، ثمة جرح مرير. بعد مرور عشرة أعوام على هذه الاعتداءات، كانت نفس الشكوك ما زالت قائمة باستمرار، كما يؤكد الرجل ،ربما هدأت حدتها قليلاً مع انتخاب أوباما. هل ستكون الثورة قادرة على أن تغسل هذا العار، وهى التى قدمت للعالم صورة بلد شديدة الكبرياء ؟ من الصعب إيضاح كم أحس الناس بهذه المهانة، بشكل مباشر أو غير مباشر، فى كل طبقات المجتمع، من أكثرها تأثرا بالعادات الغربية إلى أكثرها تمسكا بالتقاليد الموروثة. وقد أضيف إلى ذلك ردود فعل تلك الاعتداءات: الحرب فى أفغانستان، المأزق

العراقى الموحل، تعثر سير مفاوضات السلام الفلسطينية ـ الإسرائيلية. ساهم الرد العدائى لإدارة بوش فى تحويل مصر باستمرار إلى رأس حربة للتيار المناهض لأمريكا فى المنطقة. وعندما توجهت هيلارى كلينتون إلى ميدان التحرير، فى مارس ٢٠١١، لم يكن ذلك فى حضور الشباب الثورى الذى رفض مقابلتها بالإجماع.

غائصا فى أريكته الوثيرة بأحد الفنادق الراقية، يتطلع وائل إلى مياه النيل المتألقة. كان الوقت متأخرا وللنهر ظلال ضاربة للخضرة. وعلى البعد تمر قوارب صغيرة، ذات محركات، مرصعة بأكاليل مضيئة متعددة الألوان، تاركة خلفها آثار موسيقى تصبها مكبرات صوت معربدة. سوف تحول الثورة هذا المشهد إلى أحد مشاهد نهاية العالم، يغطيه دخان الغازات المسيلة الدموع وسناج الحرائق الأسود والأطلال المنهوبة. لكن فى ذلك المساء، مرة أخرى، كان القلق مازال مسيطرا. العجز. أربعينى، فى حلة ذات صفين من الأزرار، ربيب عائلة غربية الثقافة من كبار الموظفين. كان وائل مهندسا فى الميكانيكا الاليكترونية.

ما العمل عندما يلفظنا النموذج الذى نتطلع إليه ؟ لقد شببنا نقتات على الحلم الأمريكى. لكن هذا الحلم انغلق أمامنا. الولايات المتحدة تحيلنا إلى نفس الأصل: «عربى يعنى مسلمًا ومسلم يعنى إرهابيًا».

أمام هذه المعادلة الخطرة، يتصرف كل شخص فى عائلته على طريقته. والده المتقاعد، يتسمر أمام جهاز التليفزيون. الذى يظل مفتوحا باستمرار على إحدى القنوات الفضائية، كما هو الحال لدى كثير من المصريين. الجزيرة والعربية تصبان باستمرار مشاهد لا يمكن تحملها فى الغالب، لم تعرضها التليفزيونات العربية مطلقا، أطفالا قتلى نتيجة الغارات الجوية، رؤوسًا مهشمة على الأرصفة، قرى تحولت إلى أطلال تحت وابل القذائف.

أما والدة وائل، فهى مثل كثير من النساء المنتميات إلى طبقة البرجوازية، قد انخرطت بالفعل و منذ بعض الوقت فى ممارسة إسلامية أكثر التزاما. ابتدأت بوضع حجاب أنيق، بعد أن كانت حتى ذلك الوقت عارية الرأس وشرعت كذلك فى متابعة دروس دينية أسبوعية، أضيفت إلى دروس اليوجا التى تحضرها. صدمة الحادى عشر من سبتمبر و استمرار أعمال العنف فى المنطقة لم يؤديا إلا إلى زيادة انغماسها فى نشاطاتها الجديدة.

على وجه وائل ثمة ابتسامة ،خاوية بعض الشىء، ضجرة بعض الشىء.

إنها تدعو من أجل إنقاذ غزة، تعمل من أجل خلاص روحها، تقوم بأعمالها الخيرية من خلال مساعدة أهل جماعتها. إنها تحب تخيل أنها تستطيع إصلاح صورة عن الإسلام، قام الإرهاب بإفسادها. لكن فيم يفيد هذا؟ فما يراه الغرب فى النهاية يظل بعيدا عن كل هذا. يتوقف وائل عن الكلام، شاعرا بالمرارة.

هيا يا مصر ! إلى العمل ! كانت الآلاف من الأصوات تهتف فى ابتهاج فى ذلك النهار البارد من شهر فبراير ٢٠١١ ، فى أحد ميادين مدينة سوهاج بصعيد مصر. لقد حضروا بأعداد كبيرة للترحيب بذلك الشخص الذى دفعه نظام حسنى مبارك إلى الاغتراب منذ أكثر من خمسة أعوام.

عمرو خالد، نجم الدعوة، ملك القنوات الفضائية القرآنية، عاد إلى البلاد.

ذلك الرجل الأربعينى المتفائل، الذى اختارته مجلة time فى عام ٢٠٠٦، كواحد من بين أهم مئة شخصية تأثيراً فى العالم. ينعم برؤية بلاده ترتعش برغبة جديدة.

سنوات وهو يستدعى فى أمانيه هذه النهضة، هذا الميلاد الجديد.

لقد كان الفرع المحلى لنادى « صناع الحياة» الذى يشتق اسمه من ذلك البرنامج التليفزيونى الذى يقدمه عمرو، هو الذى نظم زيارته إلى هذه المدينة الريفية الكبيرة. برنامج يتداخل فيه التدريب الشخصى والمبادرة الذاتية على أساس من الخطاب الدينى. نجاح مدهش عبر بلاد العالم العربى ـ الإسلامى

لهذا الرجل الذى كانت صفحته على « فيسبوك» فى مطلع عام ٢٠١١، و تضم أكثر من مليونين ونصف المليون من معجبيه. الباعث الأكبر لحركة إعادة أسلمة الطبقات الوسطى والعليا المصرية فى بداية الألفية الثالثة، عندما صار الإسلام ملاذا آمنا فى مواجهة الجمود والإحباط، بل وتجنى المجتمعات العربية الإسلامية.

فى الأيام الأولى من عام٢٠١١، كانت الثورات العربية التى غابت عنها الشعارات الدينية تماماً، قد أثبتت له أن الشباب لم يكن يحتاج إلا إلى الإيمان بقوته الذاتية حتى ينهض من غفوته. شباب يقومون بتنظيم حركة المرور، فى غياب عناصر الشرطة، صبيان منهمكون فى إعادة طلاء الجسور، تنظيف ميدان التحرير بعد سقوط مبارك. سلوك مسئول، شعبى، جماعى، أشعره بالطمأنينة، هو من اتخذه مبدأ منذ سنوات.

بعد ذلك بعدة أيام، كان واحدا من أول الشخصيات التى تجولت فى شوارع قرية «صول» الترابية، صول القرية التى أحرقت كنيستها فى أعقاب الثورة. على شفتيه خطاب بسيط: « كل المصريين، مسلمين ومسيحيين يرفضون التعصب وسوف يقاومونه سويا، مؤكدين على الشعار التالى: النهضة أو الفوضى. سوف نختار كلنا الأولى».

قبل عام، منزل فسيح، لكن دونما ترف صارخ، منتصب فى أحد شوارع المدن الجديدة التى نبتت فى الرمال، حول مدينة القاهرة.

عبثا حاول. ألقى مواعظه أمام الكبار، تحاور مع الأمراء، تحدث مليا إلى رانيا ملكة الأردن، سجل أرقاما قياسية للمشاهدة فى كل حلقات برامجه، عندما يفتح الباب، لا يلعب عمرو خالد دور النجم المشهور. كنزة سوداء برقبة، سترة رمادية، ابتسامة من وراء شاربه الأسود الصغير. ينهض كى يحضر الشاى من المطبخ. كان صديقا حقيقيا ـ بل أخًا كبيرًا يقول الشباب المصريون الذين جعلوا منه، فى خلال عشر سنوات نجما له طلّة وحضور نجوم الروك، بصوته النشاز، الذى يمكن تمييزه من بين ألف صوت آخر.

الإيمان هو اللغة الوحيدة التى يفهمها الناس فى هذه المنطقة. فلتجدوا إذا شيئا آخر لتشجيعهم على الحركة ! إنهم لا يثقون لا فى رجال السياسة ولا فى أيدلوجيات الماضى! أنا رجل عملى: إذا أردت أن يسمعنى الشباب، فإنى أحدثهم أولاً عن الإيمان. إن رسالتى تشبه لعبة الـ puzzle. القطعة الأولى، هى الإيمان، الثانية، هى التنمية والتطوير، الثالثة، هى المعايشة. هذه القطع الثلاث مرتبطة ببعضها، الهدف هو تنمية هذه المنطقة، أنا أعتقد أن هذه التنمية، فى الظروف الحالية، لا يمكن أن تحفز إلا بالإيمان، وأنها لا يمكن أن تسير إلا بفضل المشاركين فيها، وبالتالى بفضل المعايشة.

لقد واتته هذه الفكرة، فكرة استخدام الإيمان « كمصدر للطاقة « ثم» كمحرك لعملية التنمية» أثناء تواجده فى المقاهى. كما يقول أمام الشباب الجالسين إلى الموائد، مشدودين طوال ساعات إلى الأشرطة المصورة «الكليبات» التى تبثها شاشات التليفزيون، وسط دخان الأراجيل.

أثار ذلك غضبى، غير أنى لم أكن أدرى ما العمل. إن الإيمان هو ما أعطانى هذه القوة. بالأمس كنت مثلهم. حتى عمر السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، لم أكن أفكر فى شىء، سوى فى لعب كرة القدم.

كنت أذهب إلى المدرسة، لكن دونما أى هدف، للحصول على عمل فقط، أى عمل. لا يمكن للعالم أن يستمر على هذا المنوال.

برز فى البداية عبر عظاته فى الحلقات التى فتحت أمامه أبواب أحد المساجد، وسرعان ما صار هذا المحاسب غير المنتسب إلى دوائر الأزهر نجما اجتماعيا بارزا. لا يوجد من يجهل اسمه فى مصر، لا يوجد مسلم واحد، أو تقريباً لا يوجد، من لم يسمع به. نجم البرامج الحوارية الدينية فى القنوات الفضائية العربية، وهو أيضا أحد رواد التكنولوجيا الحديثة. اسطوانات مدمجة، أقراص فيديو رقمية إنترنت.كان الرجل يواكب آخر منجزات العلم.

نحن المسلمين، ننتمى إلى عائلة كبيرة. نحن نمثل، نحو خمس سكان العالم .. لكى تحظى بالاحترام فى الأسرة ،يجب أن تكون قادرا على الأخذ والعطاء. ماذا قدمنا نحن إذا إلى العالم منذ مائتى عام ؟ لا شىء.

يرفع عمرو خالد ناظريه، يرتشف جرعة من الشاى ،يتوقف لبرهة، ثم يستأنف، واثقا من تأثيره: لاشىء فى الفنون، ولا الرياضة، ولا فى التكنولوجيا ولا فى الأيدولوجيا. لم نقدم شيئا. لهذا لا يوجد توازن ولا سلام فى هذه البقعة من العالم. يجب أن نبدأ باحترام أنفسنا، ومن أجل هذا يجب القيام بدور ما فى المجتمع، أن نحمل إليه شيئا ما. منذ مائتى عام لا نفعل شيئا سوى الأخذ. بكل تأكيد هناك أيضا ظلم الغرب لنا، الغرب الذى يحصل على موادنا الأولية، ثم يحولها، ثم يعيد بيعها لنا بأسعار عالية؛ مما يخلق لدينا مزيدا من العاطلين الذين يلجئون سواءً إلى المخدرات أو إلى التطرف. خذوا شخصا بلا عمل، محرومًا من الحرية، ليس هناك من يسمعه أو يحترم كيانه ، ثم حدثوه عن الطريقة التى يرى بها الغرب الإسلام، أطلعوه على صور للحرب فى العراق كيف تريدونه ألا يصير متطرفا ؟ إذا ظل شخصا طبيعيا، فهذا هو الأمر غير الطبيعى ! لتأخذوا أى شخص فى الثلاثين من عمره ما زال يحتاج باستمرار إلى نقود والده حتى يعيش، لا يستطيع أن يتزوج، لا يجد حتى مكانا ليلعب الكرة. علينا أن نبتكر وسائل جديدة لتوجيه طاقته.

فى مكان بعيد، هدير أحد المحركات، فى الخارج، عربات نقل وجرافات فى رقصة باليه لا تنتهى، عمال منهمكون فى بناء قطعة أرض متميزة أخرى فى هذه الضاحية الجديدة، التى تقع على بعد أقل من عشرين كيلومترا من الأهرام.

عمرو خالد واحد من أهم أيقونات هذه البرجوازية الجديدة التى ازدهرت فى عهد مبارك، والتى رأيناها أيضا، بكثرة، فى ميدان التحرير، إلى جانب مصريين أكثر فقرا.

ثروات تراكمت حديثا، ظهرت منذ قليل إلى العلن بلا عقد، وتجد نفسها تماما فى المبدأ التى تبشر به القنوات الفضائية الدينية: الإسلام الصحيح لا يمنع الاستمتاع بمباهج الحياة، ما دام لم يتجاوز ذلك القواعد الأساسية للدين. الرياضة، الشواطئ، التسلية مباحة. وكذلك أيضا النجاح الوظيفى، للرجال والنساء على حد سواء. اكتساب النقود ليس إثما. بل على العكس، أمر يباركه الله. توجيه طاقة الإنسان عن طريق الإيمان، وضعها فى خدمة نموه الفردى الذاتى، قبل العمل على إفادة الجماعة منها بطريقة غير مباشرة عبر مشروعات خيرية: استهوت الفكرة الشباب وأدت ما عليها. من خلال برامجه التليفزيونية الموجهة لإطلاق مشروعات، تساعد فى تنمية المجتمع، لجمع الملابس من أجل المحتاجين أو لمكافحة المخدرات ،تمكن عمرو خالد من سد نقص ما، وبطريقة أكثر جاذبية من الإخوان المسلمين المتجهمين . بهذا الشكل تتواجد الرأسمالية، الاستهلاك والدين معا متداخلة فى منظومة توفيقية ترفع الشعور بالذنب عن الطبقات الغنية.

أنا مثلكم. لا تخافوا.

مستند الظهر إلى أريكته، يعبر عمرو خالد عن تأففه من الانتقادات الموجهة إليه بحركة تنم عن الضجر. نعم. إنه يعرف ذلك. خصومه يتهمونه بأنه ليس من علماء الدين بممارسة إسلام «لايت» متبسط، إسلام «حريمى» يتهمونه بأنه دهمائى بأنه خطيب شعبى يستغل الاستياء الاجتماعى لتحقيق نفوذ سياسى. المترجم). عمرو خالد يُذكّر هؤلاء بأنه قبل أن يمنع بالفعل من إلقاء دروسه بين الجماهير مباشرة فى مصر، كان هناك أكثر من أربعين ألف شخص يأتون لسماعه فى كل أسبوع. وأن نظام مبارك الذى كان يساوره القلق من نفوذه المتزايد ومن علاقاته المفترضة مع الإخوان المسلمين- الذين خالطهم فى وقت ما خلال سنوات شبابه - عندما كان «يبحث عن طريقه » وهكذا فإن هذا النظام لم يدعه يكمل مشروعه حتى النهاية مطلقا. مع السماح فى نفس الوقت لدعاة أكثر تشددا منه، خصوصًا السلفيين، بأن يعبروا عن أرائهم بحرية فى

التليفزيون، دافعا بهذا الشكل بالعديد من المصريين نحو ممارسات إسلامية شديدة المحافظة.

هل هو إذا ظاهرة مطابقة لروح العصر، أم محرك عرائس، كما يصفه البعض ؟ انتهازى، على الأقل، هو الذى لا يستبعد، ابتداءً من الآن، الاستفادة من توزيعة اللعب الجديدة لإنشاء حزب سياسى، معتمدا على معجبيه الكثر؟.

لكن هل يستطيع الإيمان أن يكون دائما محرك الأحداث فى مصر التى غيرتها قوى ثورة البشر؟ ربما. وربما لا.

فى المشهد الجديد، لمصر بعد الثورة، كان ممثلو الإسلام متعددين. حجاب أزرق يلتف حول العنق فى عقصة أنيقة. لبنى هى المنتج المثالى لعمرو خالد، التى دفعتها حلقات برامجه إلى أن تنشئ، مع أصدقاء لها، جمعية خيرية تقوم بتوزيع بعض المواد الاستهلاكية على المحتاجين، كانت نشطة بصورة خاصة فى مساعدة الجرحى والمتظاهرين أثناء الثورة. فى يدها، صديقها الأعز، هاتفها المحمول، فى السابعة والعشرين من عمرها كانت سكرتيرة الإدارة هذه تستعمل جهازsms بمهارة فائقة. وفى الأرقام المسجلة سلفا فى فهرس هاتفها يظهر فى المقدمة رقم الهاتف الإسلامى. خط دينى ساخن، يقوم بنقل أسئلة المسلمين الأكثر وجوديةً وغرابة واجتراءً، إلى جيش من الشيوخ، وذلك على مدار أربع وعشرين ساعة كل يوم. لقاء عدة قروش، تتوافر على المجيب الآلى بعد عدة ساعات، إجابة مدعمة بالدليل، بالعربية أو الإنجليزية من أجل المسلمين فى العالم بأسره.

« إذا تسللت المياه إلى إذناى عندما أقوم بغسيل شعرى، هل يفسد ذلك صيام رمضان»، «هل يمكن للمرأة أن تتولى رئاسة الجمهورية؟» لدى ميول جنسية مثلية، ما العمل ؟ «هل يمكن أن نهنئ صديقا مسيحيا بعيد الميلاد ؟ الهاتف الإسلامى لدية إجابة عن كل شىء. على موقع إسلام أون لاين مباشرة. أنشئ فى قطر عام ١٩٩٧، ولكنه موجود بالقاهرة ، كان هذا الموقع مزدوج اللغة -

عربية و إنجليزية - واحدا من أكثر المواقع استطلاعا فى العالم العربى - المسلم. ثلاثة ملايين مستخدم شهرياً، قبل إغلاقه فى عام٢٠١٠، بعد خلاف نشب بين موظفيه المصريين ومجلس إدارته القطرى، الذى أراد أن يفرض خطا جديدا للموقع يتجنب الموضوعات السياسية ويعمل على نشر إسلام أكثر تشددا.

فى الوقت الذى اندلعت فيه الثورات العربية، كان هذا الموقع المؤثر يبعث من رماده من جديد، تحت اسم .« Onislam » احتفظ الموقع الجديد بنفس الفكر: وضع الإسلام فى القلب من كل شىء. التعرف عليه بشكل أفضل والتعريف به بشكل أفضل .الأحداث الراهنة فى كل صورها، ومناقشات حول موضوعات مجتمعية، سياسية أو علمية. من انفلونزا H1N1 إلى الهجمات الانتحارية، مروراً بعمليات الولادة المصحوبة بالمساعدة الطبية.

تعلقت شهرة الموقع بشكل خاص ببنك الفتاوى المباشرة الخاص به. فى الموقع الإنجليزى وحده ، هناك أكثر من أربعة آلاف رأى لعلماء الدين موجودة فى متناول اليد باستمرار، فضلا عن تلك الفتاوى التى تصدر عن جلسات الإفتاء، للرد على أسئلة المسلمين الراغبين فى أن تتطابق أعمالهم اليومية بالكامل مع الشريعة الإسلامية.

خلف هذه السحابة الغامضة، هناك رجل، مصرى، يوسف القرضاوى. رجل متشدد، حاد الطباع، محل جدال. رجل الدين هذا، نجم الدعوة، الضيف المعتاد على شاشة الجزيرة، كان أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين. ولد فى مصر عام ١٩٢٦، جرد فى عهد عبد الناصر من جنسيته المصرية ويعيش اليوم مغتربا فى قطر. خلال عشرين عاما لم يتوقف نفوذ هذا المفكر الإسلامى عن الاتساع.

خصم لدود للعلمانية، لم يتردد فى أن يضفى الشرعية على بعض الهجمات الانتحارية، غالبا ما وصف الرجل بأنه أصولى متشدد. معجبوه الكثيرون يرون فيه،على العكس، أحد زعماء التيار الإسلامى، المسمى إصلاحى. عصرنة الإسلام؟ أسلمة العصرية؟ يبدو أن يوسف القرضاوى قد تبنى الخيار الثانى،

مما جلب له تقدير وحظوة الكثير جدا من المصريين. هؤلاء الآخرون، يجدون فى موقعه «معرضا إسلاميا» حقيقيا لكل ما يبحثون عنه، بل أيضا حلقة نقاشات داخلية بين الحركات الإسلامية العالمية، تجتذب شريحة معينة من المثقفين البرجوازيين، أكثر ميلا إلى خوض المجادلات الفكرية عن ممارسة نضال سياسى حقيقى. فوران ثقافى فعلى، كاشف للتطورات الطارئة على الإسلام.

فبراير٢٠١١، حينما كان حسنى مبارك قد سقط لتوه، وجهت الدعوة إلى يوسف القرضاوى ليعود إلى القاهرة حتى يؤم صلاة الجمعة فى يوم جمعة الانتصار» فى ميدان التحرير. منذ مقتل السادات كان القرضاوى ممنوعا من مخاطبة الجماهير فى وطنه الأم.

تحيا مصر! تحيا مصر! فى الميدان، فى تلك الظهيرة المشرقة كان نفس الهتاف يرج الجماهير، التى هتفت للشيخ العجوز عندما أنهى خطبته.

خطبة، كان ذلك المناور الماهر قد توجه فيها إلى الجميع، الجيش المحرر، الذى حيا قواته وأشاد بحكمته. جماهير العمال، التى كانت تتابع إضراباتها فى ذلك الوقت، والتى دعاها الشيخ إلى استئناف أعمالهم من أجل بناء الوطن. يوسف القرضاوى، الذى شارك أبناءه فى معارك ميدان التحرير، تحدث أخيرا إلى الشعب كله.

وجه الشيخ تحياته إلى هذه الشبيبة المذهلة التى أسقطت للتو هرمها، إنكم لم تنتصروا على مبارك فقط. بل على الظلم، الكذب، السرقة. يتوجه بحديثه إلى الرجال، إلى النساء، إلى رقعة الشطرنج السياسى بكاملها، إلى الأغنياء مثل الفقراء. لكنه وبشكل خاص، وبصوت عال مفعم، ترجعه كالزئير، على الجدران فى ميدان التحرير، عشرات من مكبرات الصوت، تحدث إلى « أقباط ومسلمى، أبناء مصر» طالب بأن يختفى التعصب. كلنا مؤمنون. كلنا مصريون والناس تصغى إليه، فى صمت.

جالسا أمام الميكروفون، يرفع القرضاوى نظره إلى الساحة السوداء الفسيحة المكونة من عشرات الآلاف من الرؤوس: حافظوا على روح الثورة، يحثهم الرجل. حافظوا على وحدتها. لا يقتل أحد « روح الإخاء هذه التى حملتكم، كلكم، سويا، إلى هذا الميدان».

قضيت الصلاة، الله أكبر. الله أكبر. وتحيا مصر!.

منذ الأيام الأولى للثورة، كانوا قد حضروا إلى هنا سريعا، يتلون صلاة الغائب على أرواح من سقط من الشهداء فداءً للثورة. معرفون بعمائمهم البيضاء وأحزمتهم الحمراء. كان علماء الأزهر من ضمن أوائل الهيئات الرسمية، مع القضاة التى أضفت وقار ومهابة مظهرها على ثورة تجسدت حتى الآن فى شباب يرتدون بنطلونات الجينز البالية.

أمام جدران الحسين، فى قلب القاهرة الفاطمية يرفع الأزهر، الجامع الجامعة الشهير، البديع، مآذنه الخمس المزخرفة فى عز وكبرياء.

شيده الفاطميون فى عام ٩٦٩، سوره الحصين المبنى بالأحجار التى أكسبتها الشمس لون الذهب هو الجانب المرئى من مجرة تتألف من آلاف مدارس تحفيظ القرآن، المدارس الثانوية، الكليات والجامعات، المعاهد ، الجمعيات، مراكز الفتوى و الذى يتجاوز نفوذه حدود مصر، قدم نفسه كحصن عالمى للإسلام «الحقيقى» مكلف بأن ينافس فى الوقت نفسه كلا من المملكة العربية السعودية، الحامى التقليدى للأماكن المقدسة وكثيرًا من البلاد التى صارت منذ الآن من ديار الإسلام المتشدد على ظهر الكوكب.

الشمس تغمر الباحة بأشعة ضوء أبيض ومؤلم. فى ظل كتف حجرى، ينكب «أكبر وعبدالله» على كتب الفقه، أحكام القضاء الإسلامى. أحدهما تركمانى والآخر سنغالى .اثنان من عشرات الآلاف من الطلاب، القادمين إلى مصر ومن خارجها للحصول على شهادة هذا المعهد العريق.

فى ضوء قاعة الصلاة الرئيسية الخافت، مجموعات من الرجال يتدارسون جالسين على سجاجيد حمراء فى مدخل المبنى، قبالة باب تسده لافتة مائلة، يقف رجل وامرأة صابرين، فى انتظار لقاء الشيخ الذى يؤمّن دوام العمل بمكتب الفتاوى، المكلف بالرد على أسئلة المسلمين.

فى يوم الجمعة، يوم الصلاة الجامعة، تمتلئ القاعة الشاسعة فى ثوان. وقبل أن تعيد الثورة ملكية الشوارع إلى الشعب، عندما كانت القنابل تتساقط على بغداد أو غزة، وعندما صُوِّر الرسول بشكل هزلى فى الجرائد الدنماركية، عندما منعت بعض التلميذات من وضع الحجاب فى المدارس الفرنسية، كانت هذه الباحة ،وعقب انقضاء الصلاة مباشرة ،مكان انطلاق الشعارات الغاضبة الثائرة التى كان يتخللها نفس الهتاف، الله أكبر. كانت المساجد والجامعات فى واقع الأمر هى الأماكن الوحيدة التى يمكن فيها السماح بالمظاهرات، المحظورة بمقتضى قانون الطوارئ، فى عهد حسنى مبارك.

على مسافة يسيرة، مطلة على أحواش مقابر مدينة الموتى الفينية العمر، تنتصب المبانى الرسمية، قدس الأقداس، حيث يتربع فى مكتبه الفاره شيخ الأزهر.

الأحدث عهدا يدعى أحمد الطيب. مفتى الجمهورية السابق، الذى يحظى بكثير من التقدير نظرا لاعتداله، وقد تم اختياره مباشرة بعد الشيخ محمد طنطاوى، المتوفى فى عام٢٠٠٢، وهو متزن، وملتزم.

اعتبارا من ١٩٦١، صارت الدولة تعين شيوخ الأزهر مباشرة، بعد أن كان اختيارهم فيما سبق يتم عن طريق الانتخاب. تفصيلة صغيرة توضح الأثر القوى جدا الذى يمكن أن يكون لتوجيهاتهم فى نفوس رعاياهم. ليس هناك ما يثير الدهشة إذا فى الواقع أن علماء الأزهر قد كانوا من ضمن أوائل من نزلوا إلى الشوارع أثناء الثورة للمطالبة باستقلال مؤسستهم وبالعودة إلى انتخاب الإمام الأكبر.

بالنسبة إلى المصريين كان الأمر واضحا: فالأزهر، هو صوت سيده، فهنا يجرى الانحراف عن أصول الدين، هنا تتواصل البهلوانيات البلاغية لإضفاء الشرعية على السياسة الحكومية باستخدام الأحاديث والآيات. حتى ولو ناقض، كذب، خفف، بعد فترة، ما قيل، ليتم التضليل بشكل أفضل.

هل تطلق الحكومة حملة لمكافحة الختان؟ تفضل شيخ الأزهر بتصريح أعلن فيه أن هذه العادة، المنتشرة جدا فى مصر، ليست من ضمن ما يوصى به الإسلام، وأنه شخصيا لم يخضع بناته للختان. بعد أسبوع تراجع عن تصريحاته، مشيرا إلى وجود حديث نبوى يتناول هذا الشأن، وإلى أنه، فى حالات بعينها ووفقا لبعض التفسيرات، يصير من الممكن أن تكون هذه العملية شرعية، ولو أننا لسنا متأكدين من ذلك تماما لكن فى آخر الأمر... ربما... باختصار، مراعاة الطرفين، إرضاء الحكومة دون إثارة غضب الأصوليين: عملية توازن دقيقة يجب على الأزهر، فى كل مرة، أن يؤديها على أفضل وجه. بينما يسعى إلى الاستفادة جيدا من رياح الثورة حتى ينهض بدوره من جديد: فى عام ١٩٦١، قام جمال عبد الناصر، الراغب فى ترويض الأزهر الذى يمثل دولة مصغّرة داخل الدولة، بتأميم هذه المؤسسة محولا رجالها إلى موظفين.

على الرغم من كل هذا، فقد احتفظت هذه المؤسسة العتيدة بهالتها الروحية. وكان مستوى المعارف الدينية المتحصل عليها، لمن أتم دراسته بها، رائعا. عبر أرجاء المعمورة، من الولايات المتحدة إلى ماليزيا مرورا بالمغرب، يعتبر الأزهر دائما، بالنسبة إلى مسلمى العالم بأسره، قلب المذهب السنى. ومرجعيته الأم.

من هنا جاء، اهتمام المملكة العربية السعودية الوهابية، بأن تنشر، مهما كلف الأمر، نفوذها على علماء الأزهر. ومن أجل ذلك، كانت كل الوسائل صالحة بدءًا بالبترودولارات (عائدات النفط)، موزعة عبر برنامج فعال من دعوات الإقامة والدراسة فى الجامعات السعودية، الإنعام بالمنح، أو تقديم الجوائز السخية. بتدخل هذا النفوذ المحافظ باستمرار لإجهاض الجهود التى تبذلها الدولة المصرية حتى تجعل من الأزهر نموذجا لنشر إسلام عصرى وتقليدى فى آن واحد، مستنير، معتدل، ولا غبار على مشروعيته الدينية.

ـ لسنوات طويلة، استسلم الأزهر للتهميش من قبل الوهابيين.

الرجل الذى يتحدث يأتى من قلب سراى الأزهر ذاته. أحد المقربين من الإمام الأكبر الجديد، أحمد الطيب؛ يؤكد أن الرياح، من الآن ، يمكن أن تغير اتجاهها. إنه وقت « ترتيب الدار» كما يجزم، وقد بدا عليه الحسم. إنه أوان الربيع الكبير، مثلما يجرى فى العالم العربى كله.

حتى الآن، ربما، كانت الخطوات غير حاسمة. تم غربلة المكتبة الجامعية، استبدلت بعض الكتب، خصوصا فى علم الاجتماع. صار للمعهد قناة تليفزيونية.

لقد صار الأزهر محافظا للغاية ولكنه ليس متشددا. لم يفت أوان أن نجعل منه صرحا للتسامح والانفتاح. إننا نستجمع قوانا ونعد أنفسنا لمعركة طويلة وقاسية مع الوهابية.

فى أروقة المؤسسة العتيدة ، بدأت رياح الثورة الوليدة فى الاندفاع. ذلك الصراع الداخلى بين التيار المحافظ، الذى تجسده جبهة علماء الأزهر، والتيار المعتدل المتمثل فى شخص الإمام الأكبر، يخرج إلى العلن بسبب الفتاوى المثيرة للجدل التى يصدرها بعض علمائه. مثل تلك التى تؤكد أنه ،حتى يمكن أن يسمح للرجال والنساء أن يعملوا سويا فى المكان ذاته، فلابد أن تقوم النساء بإرضاع الرجال حتى يكونوا جميعا فى مأمن من أية غواية جنسية، لأن عملية الإرضاع هذه تنشئ بينهم روابط أسرية. فجاجة وجلافة هذه الفتوى؛ جلبت سخرية واستهزاء كبار المفكرين المصريين، أثارت فضيحة فكرية،أجبرت من أطلقها على أن يؤكد أن الرضاعة المقصودة يمكن أن تكون رمزية فقط.

عفويا، عندما يقابل نور الحفناوى بعض الأزهريين، لا يستطيع هو الآخر أن يمنع نفسه من إظهار النفور.

ـ يا للخسارة. بدلاً من الانكباب على تفسير ومناقشة النصوص التى لم يستوعبوا منها شيئا، لم يقوموا سوى بتجميد الفكر الإسلامى.

بالنسبة إلى طالب العلوم السياسية هذا، فإن حفاظه على عقيدته صار يمر منذ الآن عبر جوجل. يمكنه أن يستطلع الشبكة العنكبوتية، ليالى بكاملها، مكتشفا أنماطا أخرى للفكر الإسلامى. من أكثرها انفتاحا إلى أشدها رجعية. وجد بنوكاً اليكترونية للأحاديث، التى تمثل إلى جوار القرآن قوام السنة. واعتباراً من الآن صار يفضل أن يقوم بنفسه بالبت فى قضاياه الدينية بدلا من أن يرجع فيها إلى علماء الأزهر. ابن لعائلة شديدة التدين، يقول بأنه قد استطاع التآلف مبكرا مع أفكار يكون من الصعب إدراكها أحيانا بالنسبة إلى الشخص غير المتفقه.

ليس من المؤكد أن يستطيع المرء الاحتفاظ بعقلية نقدية. عليه أن يتمكن من أن يكون واثقا من معارفه بالقدر الكافى حتى يمكنه السعى وراء طريق آخر غير الطريق الرسمى.

مع المخاطرة، نور هو أول من يعترف بذلك، بأن البعض قد أغوته، بشكل لا يمكن مقاومته، أصوات عرائس البحر، الأكثر تشددا. أصوات عديدة، ساعدها الانترنت على الانتشار ومنحها القدرة على الجدال والمقاومة. أما عند أنصار الإسلام المتطرف، فلا مجال للتسامح: أغلبهم لا يأبه بالأزهر، رمز الدعوة إلى العصرية الحديثة التى ينكرونها.

يهبط الليل، يتخلله ضوء مصابيح الإنارة الأصفر المغبر. على الرصيف، يجد السير صف من الرجال على مبعدة تمشى النساء.

فى آخر الشارع، يفتح مسجد الريان أبوابه لصلاة التراويح، صلاة تطوعية، إضافة إلى الصلوات الخمس المفروضة يوميا. منذ وقت ليس بالبعيد، كانت قلة من المصريين هى التى تشارك فى هذه الطقوس الرمضانية، التى صارت اليوم شائعة جدا. مثلها مثل الاعتكاف، وهو وقت للانعزال داخل المساجد خلال العشرة أيام الأخيرة من شهر الصيام، المكرس للصلاة وتلاوة القرآن والتفرغ تماما للعبادة. ظاهرة أصبحت شائعة للغاية بين الناس لدرجة أن السلطات، التى

تساورها المخاوف من هذه التجمعات الطويلة، خلف جدران المساجد المغلقة، قد سعت إلى فرض حظرها. تراويح، اعتكاف، نقاب: كثير من المظاهر الواضحة لعملية الأسلفة متسارعة الخطى لبعض قطاعات المجتمع المصرى.

المحللون جميعهم يقولون بذلك: فى مواجهة الإخوان المسلمين لم تكن الحكومة المصرية، فى بادئ الأمر، مستاءة من أن تشهد ظهور منافسين جدد فى مجال الدين. لم يتردد السلفيون فى إبداء نوع من الاستهانة تجاه هؤلاء الإسلاميين الآخرين، الذين يرون أن رغبتهم فى المشاركة فى لعبة السياسة قد أفسدتهم. لعدة سنوات، وجد هذا الخطاب صداه لدى كثير من المصريين، محبطين من سياسة الدولة، يخنقهم شعور بالعجز عن الفعل على المستوى الدولى، الذين اختاروا العمل من أجل حياتهم الآخرة. على مقربة من مسجد العزيز بالله، أحد المواقع السلفية المهمة بإحدى ضواحى القاهرة، تبيع المكتبات برواج كبير آلاف من الكتب المكرسة للدعوة إلى عودة إسلام يراه السلفيون وحده الإسلام الصحيح.

غير أن هذا الصعود القوى قد انتهى بإثارة مخاوف السلطات. لعدة مرات حاولت العمل على حظر وضع النقاب فى الجامعات أو المستشفيات العامة، متذرعة بأسباب تتعلق بالأمن، أو بالصحة العامة. وفى كل مرة، أو تقريبا كذلك، كانت الأحكام القضائية تقابلها بالرفض. زادت أجهزة الأمن كذلك من الرقابة على آلاف الأصوليين حتى لا تسمح بأن تتحول القاهرة إلى مرتع لتكاثر حركات الجهاد الصغيرة. ولأنه إذا كانت صفة «سلفى» لا تتفق بالضرورة مع إرهابى فى نظر البعض، فإن المجازفة بالخروج عن المسار قائمة. يعززها وضع دولى راهن تؤثر فيه النزاعات، الفلسطينية، العراقية، الأفغانية. مداهمات، اعتقالات. كانت الحملات البوليسية مستمرة خلال الشهور التى سبقت الثورة. عقب كل محاولة اعتداء تأتى الشرطة لتدق أبواب السلفيين أولا كما حدث فى الحادى والثلاثين من ديسمبر عام ٢٠١٠، عندما أودى انفجار قنبلة أمام إحدى كنائس الإسكندرية بحياة ثلاثة وعشرين شخصا ساعة خروجهم من قداس العالم

الجديد. لكن فى الشهور التى تلت رحيل حسنى مبارك، ودون محاولة رسم صورة مسيئة، أثار السلفيون قلقا متناميا لدى كثير من المصريين. أولاً بتدخلهم تدريجيا فى السياسة. ثم بانتقادهم العنيف للصوفيين، حركة إسلامية باطنية تضم الكثير من المريدين على ضفاف النيل، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى الأقباط.

قلق قبطى
الدين لله والوطن للجميع

فى اليوم السابع من الانتفاضة ضد مبارك، عندما رآهم ينزلون إلى ميدان التحرير، بلحاهم الطويلة وجلابيبهم التى لا تصل إلى كعوبهم، بعمائمهم الإسلامية على رؤوسهم، انتابت رامى الهواجس.

كان رامى قبطيا. فخورًا بالصليب الأزرق الموشوم على باطن معصمه. لم يكن ليتخيل أن يجد نفسه هكذا ، كتفاً إلى كتف مع هؤلاء الإسلاميين. خصوصًا هنا، وبخاصة الآن. قبل شهر من ذلك الحين، دمرت قنبلة كنسية القديسين بالإسكندرية ، مودية بحياة ثلاثة و عشرين مسيحيا مؤمنا عند خروجهم من قداس العام الجديد. اعتداء غير مسبوق فى عنفه، اعتداء جديد بلا داع.

لو أن رامى، طالب الصيدلة، قد أطاع أسرته ما كان ليذهب إلى التحرير أبدا. ليس لأنهم كانوا من أنصار مبارك على وجه الخصوص. فى حى شبرا الذى يقطن فيه، فى شمال القاهرة والذى تعيش فيه طائفة مسيحية كبيرة، يعانى المرء، مثل كل الناس، من تدهور ظروف المعيشة ، الأسعار التى ترتفع وفرص العمل التى تقل. وعندما يكون المرء قبطيا فإنه يحظى، إضافة إلى ذلك، بكثير من المضايقات، صور التمييز ضده. له الحق فى أن يخشى من المستقبل أمام حركة الأسلمة التى تزداد وضوحا يوما بعد يوم، هذه الأنقبة، هذه اللحى الطويلة، هذا العنف الطائفى الذى يمضى قدما.

«ما فيش تحرير» قالت له أمه، غداة مظاهرات ٢٥ يناير. ليس لك مكان هناك هى لقد سمعت وزير الداخلية ، فى التليفزيون الرسمى ، ينسب العنف

الحادث إلى الإخوان المسلمين. هؤلاء الإخوان ، الذين كانوا قد أعلنوا منذ وقت ليس بالطويل أنهم لن يقبلوا مطلقا برئيس قبطى. إلى أين نحن ذاهبون إذا؟ جمهورية إسلامية، مملكة عربية سعودية، إيران جديدة؟

عبر رامى عن غيظه بصوت صادر من أنفه. نحن ثمانية ملايين، أعادها عليها مكررا. إنها بلادنا، كنا فيها قبل المسلمين. كان كثير من أصدقائه قد ذهبوا إلى التحرير. وهناك لم يروهم، أو شاهدوا قليلاً منهم، هؤلاء الملتحون الذين يخيفون أمه. إنهم يقولون إن الشرطة هى من تسببت فى وقوع أعمال العنف. هذه الشرطة التى أطلقت على المسيحيين، وللمرة الأولى، الرصاص الحى، فى حى العمرانية الشعبى، ومنذ شهرين قد مضيا ، منهية حياة اثنين من الأقباط الذين كانوا يتظاهرون اعتراضا على إيقاف البناء فى إحدى الكنائس، دون الحصول على التراخيص اللازمة . هذه الشرطة التى لم تكن قد قامت بحماية الكنائس بالشكل الكافى بعد تهديدات القاعدة لطائفتهم. هذه الشرطة التى لم تتعقب على الإطلاق تقريبا، مرتكبى الاعتداءات الطائفية وتفضل أن تمارس الضغط على المسيحيين حتى يقبلوا بمجالس الصلح.

غير أن أمه ظلت على موقفها المتصلب. لقد قالها البابا شنودة، بطريرك الطائفة الأرثوزكسية العجوز: ليس من المفيد أن نتظاهر. وسوف يكرر ذلك عما قريب، متوجهاً بالحديث إلى الرئيس مبارك مباشرة عبر التليفزيون الرسمى: « »نحن معكم والشعب كله معكم» . كانت كراهية الرئيس المعلنة تجاه الإسلاميين أمرا يطمئن المسيحيين. الداء الذى نعرفه خير من ذلك الذى نجهله. لم يكن من المهم إذا، أن الدولة، فى تلك الآونة الأخيرة، لم تأخذ مخاوفهم و معاناتهم بما يكفى من الجدية.

فى عائلة رامى، عندما تتحدث الكنيسة، علينا أن نصغى.

الجمعة ٢٨ يناير٢٠١١، اتخذ رامى قراره. سوف يشارك فى المظاهرات. يوم صلاة المسلمين الجامعة، حيث يتواعد الناس أمام أبواب المساجد عقب الصلاة.

لكن هذا لا يهم ، فلم يعد هناك مسيحيون أو مسلمون. ليس هناك سوى شباب مصريين يملؤهم الغضب. والشرطة، طبعا.

فى ذلك اليوم، قطع رامى طريق الكورنيش من شبرا نزولا حتى ميدان التحرير، تدفعه الجماهير الغاضبة، ثائرة متوعدة بالثأر. استنشق الغازات المسيلة للدموع، دعك عينيه ببصلة مدها إليه بائع خضار مسلم أثناء مرور المسيرة. علاج شعبى قديم ضد هذا القصف الذى لا ينقطع. تحمل الضرب. رأى الطلقات المطاطية تتطاير من حوله. عاون الجرحى. عندما حل المساء كانوا قد حققوا النصر. سويا، رحلت قوات الشرطة. سقط الميدان فى أيديهم. ولا عزاء لأمه ولا عزاء للبابا، لقد أقسم رامى يومها ألا يبرح مكانه حتى يرحل حسنى مبارك. وحتى يتم الإصغاء إلى كل أمانى الشباب فى نيل الديمقراطية.

كان تواجد الإسلاميين فى ذلك الثلاثاء المليونى يثير مخاوف رامى ويصيبه بالغيظ، رامى، الذى كان يخشى أن يشوهوا هذا النضال، أن يسطوا عليه، مجازفين بالإساءة إليه. كان يراقبهم من الطرف الآخر للميدان ،قبالة مسجد عمر مكرم، حيث كانوا قد تجمعوا. لماذا قدموا إلى ميدان التحرير ؟ من أجل الصلاة؟

لم يغادر رامى وسط الميدان ، حيث قام مع رفاقه المسلمين والمسيحيين برفع لافتة كبيرة رسم عليها شكلا رمزيًا: صليب يحيط به هلال، رمز ثورة ١٩١٩ والاستقلال المصرى. تذكار من زمن لم يكن يفرق فيه كثيرا أن تكون مسيحيا أو مسلما.

على رامى أن يقر بذلك. إنه لم يسمع أى شعار دينى طول النهار لقد حاول البعض ذلك، بالفعل، لكن الأمر لم يتطور. لم يستمر.

وماذا لو كان الأمر حقيقيا ؟ ماذا لو كان النظام يعمل على إثارة الخلافات بين المسلمين والأقباط وإذكائها، و التذرع بها، كما بدأ البعض بالجهر بذلك الآن. الجهاد ! تلك الكلمة التى كان البعض قد أطلقها، بالفعل، فى ثانى أيام فبراير،

عندما هوجم الميدان. النظام يلقى بكل ما فى جعبته. من أجل إخلاء الميدان، قام بإطلاق الوحوش، البلطجية، من فوق أسطح البنايات، تنهمر زجاجات المولوتوف على رؤوس المتظاهرين المسالمين. تميز الهجوم بوحشية مطلقة، غير أن المتظاهرين لم يستسلموا. من بينهم كان هناك كثير من الإخوان المسلمين، السلفيين، كل ما ضم الميدان من إسلاميين.

الجهاد ! متر من بعد آخر ،طول الليل، الخوف والغضب يعصف بالأحشاء، كانوا يصدون المهاجمين. عند الفجر، حينما تدخل الجيش بينهم أخيرا، تبادل المقاومون التهانى فيما بينهم، دونما تمييز فى الديانة. أُخُوة الخندق الواحد.

عندما سقط حسنى مبارك، بعد أسبوع، عاد رامى إلى بيته. فى مسكن الأسرة بشبرا، بحوائطه المغطاة بالأيقونات، صور البابا شنودة الثالث والسيد المصلوب. مطمئنًا. سعيدًا بلحظة التوحد هذه التى تعيد فيها مصر اكتشاف هويتها، مسترجعة كبريائها الوطنية. الأعلام المصرية ترفرف فى الريح.

بعد شهر، عثر الثوار على بعض الوثائق التى لا تزال تحتاج إلى إثبات صحتها، وذلك عندما قاموا حينها بالهجوم على مكاتب أمن الدولة واستولوا عليها. تأتى تلك الوثائق لتدعم الأطروحة الرائجة من قبل والتى تقول بأن النزاعات الطائفية العنيفة كانت من إعداد وزارة الداخلية. حتى أن الأصل فى اعتداء الإسكندرية، الذى أسندته السلطات إلى جيش الإسلام، مجموعة جهادية صغيرة تعلن انتماءها إلى القاعدة ، صار محل شك.

بعض الأقباط، بعض أنصار حقوق الإنسان، بعض كبار الكتاب الصحفيين كانوا يتساءلون. عندما تلصق كل شىء بالنظام البائد ألا نخاطر، مرة أخرى، بالتعامى عن الحقيقة ؟ برفض التصدى لجوهر المشكلة ،لحالة التعصب هذه التى لا تكف عن التفاقم؟

« لم تكن هناك شرطة فى الشوارع وخلال شهر لم تتعرض أية كنيسة للاعتداء»، هكذا كان الرد يأتيهم دائما وبلا تغيير.

غير أن شهر العسل لم يدم طويلا. تبدت بعض الظواهر بالفعل. أمام مساجدهم، استأنف السلفيون مظاهراتهم للمطالبة بـ «تحرير» كاميليا شحاتة، التى كانت قصتها تسمم العلاقات بين المسيحيين و المسلمين منذ صيف٢٠١٠

فى قيظ شهر يوليو كانت زوجة القس القبطى قد اختفت من منزلها، بعد خلافها الألفى مع زوجها. فى أوساط الطائفة المسيحية تجرى الشائعة بأنها ربما كانت قد اختطفت وأجبرت على اعتناق الإسلام. تصرفت الأجهزة الأمنية بسرعة .عثرت على المرأة فى منزل إحدى صديقاتها و نقلوها إلى الكنيسة التى أنكرت أن كاميليا قد غيرت ديانتها ،غير أنها أبعدتها عن الأنظار. ومن حينها لا يعرف أحد أين توجد. ليس هناك مزيد من الأخبار عن وفاء قسطنطين، التى اختفت فى ظروف مشابهة خلال عام ٢٠٠٤.

غضب لدى المسلمين المتشددين: السلفيون، فى قمة استنفارهم ،يجزمون بأن السيدتين محتجزتان فى أحد الأديرة، بعد أن قامتا باعتناق الإسلام عن إرادة حرة كاملة. إنهم يطالبون بالظهور العلنى لأختيهم. شهيدتان، يقول البعض، مشيعين بأنهما ربما اغتيلتا. يشترطون إطلاق سراحهما. الصحافة،المثقفون، رجال الدين، يتدخل الجميع فى القضية. الاتهامات تنهمر، والسباب أيضاً.

كان الأنبا بيشوى، ذراع البابا شنودة الثالث اليمنى و خليفته المرتقب ،هو من فتح النار. قال الرجل إن المسلمين ليسوا سوى « ضيوف على أرض مصر، مشيرا إلى انتشار المسيحية فى أرض مصر على يد القديس مرقص فى القرن الميلادى الأول، ستمائة عام من قبل الفتح العربى - الإسلامى. لم يتأخر الرد : على شاشة قناة الجزيرة، يرد المفكر الإسلامى الكبير سليم العوا ،المعروف حتى حينها بالتسامح والانفتاح، بأن الأقباط يخفون الأسلحة داخل الكنائس تحسبا لحرب ضد المسلمين.

الأجواء مسممة. والقاعدة تدس أنفها: بعد المذبحة التى جرت بالكاتدرائية السريانية فى بغداد فى شهر أكتوبر، وجهت شعبتها العراقية إنذارا إلى الكنيسة

القبطية من أجل إطلاق سراح كاميليا شحاتة و وفاء قسطنطين .بعد ذلك بشهرين ،وعندما دمرت سيارة مفخخة كنيسة القديسين بالإسكندرية ،كان الكثير على قناعة بأن الجماعة الإسلامية الغامضة قد وضعت تهديدها موضع التنفيذ.

بعد ثلاثة أسابيع من سقوط نظام حسنى مبارك، فى الرابع من مارس ٢٠١١ كانت هناك كنيسة قديسين أخرى، كنيسة، ـ كنيسة صول ـ ثلاثون كيلومترا جنوب القاهرة، قد شبت فيها النار، أحرقها سكان القرية المسلمون.

فى البداية، مجرد حب برىء بين شاب و شابة. كان قبطيا أما هى فكانت مسلمة. أمر غير مقبول فى هذه الرقعة من مصر. نصف الريفية، المحافظة، حيث العلاقات المختلطة أمر محرم تماماً. من ناحية أخرى، فإن الحال العكسية ما كانت لتكون الأفضل. يندد الأقباط دائما بـ «تحول الديانة قسرا للمسيحيات الصغيرات، اللاتى يجدن فى ذلك السبيل الوحيد للزواج بأحبائهن المسلمين، على الرغم من التحريم العائلى.

فى صول، سوف يحتدم النقاش بين عائلتى الشابين. قُتِل كل من الوالدين. فى اليوم التالى، بعد مراسم الجنازة، كانت الكنيسة مركزا لتجمع الغاضبين. انطباع بأننا شاهدنا هذا من قبل: فى دلتا النيل، فى واحة الفيوم،فى مصر الوسطى، تزايدت فى السنوات الأخير مثل هذه الحوادث العنيفة. كنيسة هنا ومسجد هناك، وبعيدا منازل أو محلات تجارية.

غالباً ما يبادر المسلمون. أحياناً كذلك، تكون بإيعاز من الأقباط. شيئا فشيئا تنقلب الخلافات الأسرية بسهولة إلى تصفية حسابات طائفية. كما حدث فى نجع حمادى، بالقرب من الأقصر، حيث أدى إطلاق النار على إحدى الكنائس إلى مصرع سبعة أشخاص لدى خروجهم عقب قداس منتصف الليل فى عيد الميلاد الأرثوذكسى. ربما تم استئجار القناصة للثأر لعملية اغتصاب تعرضت لها فتاة مسلمة بواسطة أحد الأقباط فى إحدى القرى المجاورة.

عقب أحداث صول سرعان ما احتوى الجيش الخطر. انتقل اللواء حسن الروينى، قائد منطقة القاهرة العسكرية، إلى موقع الحدث. أعلن عن إعادة بناء الكنيسة على وجه السرعة وعلى نفقة الجيش لكن الغضب القبطى يزمجر. وأسفل منحدر المقطم الصخرى ،حيث يعيش الزبالون، جامعو قمامة القاهرة، الأعزاء على قلب الأخت ايمانيول، كان الوضع يتأزم.

فى ذلك اليوم، الثامن من مارس ٢٠١١، كان عمال النظافة، الذين تأثروا اقتصادياً بشدة من جراء إعدام كل الخنازير فى مصر عام ٢٠٠٩، أثناء لوثة انفلوانزا الخنازير الهاجسية ، Hini كانوا قد وصلوا إلى حافة الهاوية. قاموا بقطع الطريق الدائرى الذى يمر بأسفل منطقتهم، متسببين فى إثارة غضب قائدى السيارات وسكان الحى المسلم المجاور. بقية الرواية تبدو مشوشة. البعض يشير إلى وجود بعض السلفيين ضمن التظاهرات المضادة ويقال إنهم ربما استخدموا أسلحة نارية، كما يشيرون إلى وجود العسكريين بأسلحتهم.كانت عاقبة المواجهات وخيمة «ثلاثة عشر قتيلا».

كانت مصر واقعة تحت الصدمة، لم تكن ريح الثورة قد خمدت بعد، وها هو شبح الحرب الطائفية يستفيق من غفوته. المعارضون ورجال الصحافة، الذين اكتشفوا فى الوثائق المصادرة من مكاتب أمن الدولة تلك العلاقات التى كانت تربط وزارة الداخلية بالجماعات السلفية، لم يؤمنوا من جهة أخرى بالمصادفة : يجب ألا يقع الأقباط فى الفخ الذى نصبه لهم أنصار نظام مبارك يكتب متوسلا أحد كبار كتاب صحيفة الشروق الجديدة.

إن فخ الثورة المضادة، الذى ندد به أيضا رئيس الوزراء عصام شرف، ربما كان موجوداً. غير أن جذور المشكلة كانت عميقة.

مصر الجديدة .. خريف ٢٠١١

يفتح باب المقهى، تدلف إلى الداخل شابة ذات شعر أسود طويل متداخل الخصلات. تناديها الجماعة الجالسة حول المائدة المزدحمة بأقداح الكاباتشينو التى يتصاعد منها البخار وصحاف الحلوى بإشارات حميمة.

مقطبة الوجه ، تجلس مريم، عصبية الحركات ،متكدرة.

فى العادة، كانت عينا مريم تضحكان. لكنهما فى ذلك النهار كانتا أقل مرحا عند نزولها من سيارة الأجرة المترجرجة التى حملتها إلى ذلك الحى الراقى الواقع فى شمال شرق القاهرة ، والذى تشهد أبراج الكنائس العديدة فيه على أهمية نسبة المسيحيين بين سكانه.

كانت الأمور، مع ذلك، قد سارت بشكل طيب نوعا ما فى البداية.

كان السائق ذو اللحية الكثة، قد لاحظ سريعا أن مريم ليست مسلمة. حاسرة الرأس، الصليب يطوق العنق. كان المذياع يبث تسجيلا لسورة قرآنية. خفض الصوت قليلا ثم انخرط فى حركة سير السيارات.

الأحداث الجارية، الدراسة، حالة الجو، الزمن الذى يجرى. محصوران فى زحام القاهرة، تناول السائق وراكبته العديد من مجالات الحديث. عند وصولها إلى مقصدها مدت مريم يدها بأجرة المشوار إلى السائق الذى رفض تناولها، تأدباً، شاكرا إياها على الحديث الشيق فى صحبتها.

لكن يالللأسف، أضاف الرجل. أنت فتاة لطيفة، مهذبة ستكونين رائعة بالفعل لو أسلمت ووضعت حجابا.

بقيت مريم مشدوهة.

لقد قيل ذلك وكأنه بديهة ،كشىء عادى غير مؤذ. كما لو كان من الطبيعى أن يكون كل الناس فى هذا البلد من المسلمين.

روت لها صديقتها مديحة أنها قد سمعت يوما ما فى محل البقالة شخصا يغمغم خلفها «استغفر الله» ليسامحنى الله ويغفر لى «استدارت يملؤها الفضول . وقعت وجها لوجه أمام رجل ملتح قال لها فى غلظة ، دون أن ينظر إليها: «غطى نفسك يا كافرة» .

إنها لم تعد تحتمل كل هذا. « بالنسبة إلى هؤلاء المتشددين، فإن مصر تعنى الإسلام. بلا نقاش. يبدو أنهم لم يعودوا يرغبون فى وجود مسيحيين عندهم قالت مريم».

مديحة ومريم من الأقباط، حتى أن ذلك مكتوب بالحبر الأسود فى بطاقة الهوية. مصر واحدة من البلاد القليلة النادرة التى تكشف بهذه الصورة عن مذاهب سكانها الدينية. عدد المسيحيين، أحد جوانب الأزمة، يمثل مع ذلك أحد المحظورات (أحد التابوهات) التى يجب عدم الحديث بشأنها فى مصر. تدعى الحكومة أن الرقم هو أربعة ملايين، أى خمسة بالمائة من عدد السكان، أما الكنيسة فتجزم من جانبها بأن عدد المسيحيين يبلغ اثنى عشر مليونا من أصل أربعة و ثمانين مليونا من المصريين. على كل حال ، فذلك يمثل أهم الأقليات المسيحية فى الشرق الأوسط . وبالنسبة إلى الأقباط فالعدد لا يعنى شيئا: فقد كان اسمهم مشتقا من كلمة ايجبتوس الإغريقية ، «مصرى» . دليل، إن كنا نحتج، على أنهم أحفاد الفراعنة الحقيقيين. يطيب للأقباط الأرثوزكس أن يقولوا إنهم قد كانوا مسيحيين من قبل أن توجد المسيحية. فمنذ ألفى عام ، كانت العائلة المقدسة قد سارت حتى وصلت إلى نهر النيل ، هاربة من مذبحة الأبرياء التى أمر بها هيرودو. على ضفاف النهر ، قبالة أسيوط كانت قد وجدت لها ملاذا آمنا فى مقالع الحجر الجيرى التى حفرها عبيد الفراعنة. عند وصول يسوع، مريم، يوسف، تحطمت الأصنام واهتدى سكان مصر العليا الخضراء لدى رؤيتهم للسيد الذى لم يكن سوى طفل رضيع.

نثرت هذه القصيدة الدينية الملحمية بطول الوادى ألفا من المزارات المقدسة وذات المعجزات، أثار إقامة العائلة المقدسة التى لا تزال تضفى مزيدا من الرسوخ لتاريخ الأقباط فى أرض مصر. ما يزيد من مرارة الشعور أنهم يعاملون كأنهم ، مواطنون من الدرجة الثانية»، «أغراب فى وطنهم الأم كما يقولون» ، تستهويهم فى الغالب فكرة الاتجاه إلى المنفى.

فى أماسى الثلاثاء من كل أسبوع، بلا تقصير، تقابل مديحة ومريم شلة أصدقاء الطفولة الذين تجمعهم ذكريات الأنشطة الكنسية. منذ عدة سنوات انضم إليهم زملاء كلية التجارة جامعة القاهرة، حيث قامت الفتاتان بدراساتهما. عددهم نحو العشرين من الشابات و الشبان. أقباط بالتأكيد، مثلهم.

بعد ثمانى سنوات، لم يعد يعيش فى القاهرة سوى اثنين فقط منهم. رحل الآخرون. إلى الولايات المتحدة، إلى كندا واستراليا، وإلى البلاد التى كانت تستجيب لطلبات الحصول على تأشيرة الدخول التى يطلبها الأقباط. هاجر إلى تلك البلاد قرابة المليون من أقباط مصر بالفعل، نصفهم إلى الولايات المتحدة.

نحن نعرف أن السفر لا يمثل حلا. هذا البلد هو وطننا بقدر ما هو وطنهم. إنه تراكم يتجاوز المعاناة الدينية بكل تأكيد. الأمر الذى لا يمكن تحمله أساسا هو حالة عدم الاستقرار المهنى، الشلل الذى أصاب البلد وعندما تتدخل الديانة فى ذلك... يصبح الأمر غير محتمل . يتحمل المرء ويظل يتحمل و يوما ما يفيض الكيل .

وتكف مديحة عن الكلام.

مضطهدون، أقباط مصر مضطهدون ،كما يقال أحيانا. الكلمة تحمل قدرا من المبالغة، مديحة هى أول من يقر بذلك. غير أن الأقباط مهمشون ،ممثلون بأقل مما يجب ـ فى الجيش، الوظائف العامة ، السياسة ـ من بين الخمسمائة نائب الذين تم انتخابهم عام ٢٠١٠، هناك فقط ثلاثة من الأقباط، منسيون فى المناهج المدرسية، مستبعدون عمليا من بعض الوظائف العليا، مثل رئاسة الجمهورية، الدستور قائم على الشريعة، القانون الإسلامى.

تفريق فى المعاملة ؟ يود الأقباط فى أن يقيموا الدليل على ذلك بالقول بأن بناء مسجد أو إقامة زاوية فى إحدى العمائر، «الزاوية هى قاعة صلاة خاصة» ، أمر فائق السهولة . بل إن إقامة زاوية تمنح العقار إعفاءً ضريبيا. وبالعكس فإن بناء كنيسة أو تجديدها يمثل عقبة صعبة: حتى وقت قريب كان من الواجب

الحصول على تصريح يحمل توقيع رئيس الدولة شخصيا، قاعدة تم توسيعها فى عام ٢٠٠٥، لتشمل محافظى الخمس وعشرين محافظة المصرية.

حمل هذا القيد الأقباط على الالتفاف على المحظور بتحويل المبانى المدنية، سراً، لتفى بأغراض دينية. كما حدث فى العمرانية، على مرمى حجر من أهرام الجيزة، حيث أدت المواجهات التى تسبب فى إثارتها توقف أعمال تحويل أحد دور المناسبات الاجتماعية إلى كنيسة، إلى مصرع اثنين من الأهالى المسيحيين وذلك فى نوفمبر ٢٠١٠. فى كل مكان، يجب أن نضاعف الانتباه: عدم بناء برج كنيسة أكثر ارتفاعا من مئذنة، فى حالة الإصلاحات الضرورية العاجلة ،تجرى الأشغال سرا و بسرعة وفى جوف الليل، منذ عشرين عاما ينتظر الأقباط صدور قانون دور العبادة الموحد.

أحيانا يستبد اليأس بمديحة. حينها، وعندما يمكنها أن تقوم بذلك، تذهب لقضاء سحابة النهار فى أديرة وادى النطرون. حتى تستجمع قواها من جديد، تختلى بنفسها لتتأمل، تستعيد الثقة فى المستقبل .

عند الفجر، تغادر المدينة، تترك خلفها واجهات مبانى القاهرة الرمادية ،تنخرط على طريق الشمال . تعبر القرى الناعسة النابتة بين الرمال، إلى جوار الدلتا، حيث ينفتح النهر متخذا شكل زهرة اللوتس. حتى تصل إلى أسوار الأديرة القبطية القديمة المبنية بالأحجار. فى جو دير السريانى الثقيل، المشبع بالبخور، وتكاد أن تخنقه رائحة الشموع، تتأمل مديحة فسيفساء القرن الرابع عشر. حافية القدمين ،تفترش سجادة ،بالقرب من والديها و أشقائها و شقيقاتها، وتستمع إلى القس يروى حكايات دينية. فى الكنيسة الصغيرة المجاورة ،يتجمع حشد من الزوار حول الصندوق الذى يضم رفات القديس بيشوى، يتحسسون بباطن اليد جوانب الصندوق فى ورع ،يقبلون صورة الراهب القديس.

المصرى مؤمن بطبعه، سواء كان مسلمًا أم مسيحيًا، الورع عنده طبيعة ثانية راسخة فى أعمق أعماقه منذ أزمنة الفراعنة. لا تزال العبارة صالحة: فى عام

٢٠٠٩ كانت مؤسسة جالوب لاستطلاع الرأى قد سألت مواطنين من ١٤٣ دولة عما إذا كانوا يرون أن الإيمان معهم فى حياتهم اليومية أم لا. جاءت مصر على رأس القائمة بنتيجة مائة فى المائة «نعم».

على ضفاف النيل ،يستعرض الناس دينهم فى تباه ، يرفعونه كالراية أمام أعين الجميع . لدى الأقباط ينطبع الدين حتى فى جلودهم التى يوشمونها بالصليب الأزرق خلال مراسم دينية حميمة تحيطها هالات البخور. الصور الدينية تظهر بوضوح فوق لوحات القيادة فى السيارات، تنتشر فوق جدران المحلات والمتاجر. نضع الأيقونات المقدسة فى محافظ أوراقنا ،نحتفظ فى قاع حقائب اليد بقوارير صغيرة من الزيت المقدس.

فى أوساط المسيحيين لا ينسى أحد أن السادات كان هو من أدخل الشريعة إلى الدستور.

لهذا السبب ، يتمسك الباحثون بقول: « إن العلاقات الإسلامية ـ مسيحية» قد تدهورت ابتداءً من الثورة الناصرية، التى أدت إلى فرار الأقباط الأكثر تأثيرا. ثم مع عملية إعادة أسلمة المجتمع التى أطلق السادات عقالها حتى يخلق. ثقلا موازنا، خصوصا أمام معارضيه من اليساريين. فشل الوحدة العربية الناصرية أدى كذلك إلى نشوء فراغ أيدلوجى وسياسى ، تم ملؤه بالدين لدى كل من المسلمين والمسيحيين .آنذاك بدأ المصريون فى تحديد أنفسهم تبعا لانتمائهم الدينى ولم يعد الانتماء الوطنى هو المحدد فى ذلك، انغلق كل واحد على نفسه.

ـ نحن أصحاب عقيدة ،منذ أيام القديس مرقص وحتى اليوم، مصر هى أرض الشهداء. نحن لا نخشى شيئا.

أومأ الأب بيشوى برأسه موافقا.

أزيز أجهزة التوكى .. ووكى يختلط بصوت رنين الأجراس، الوئيد، المكتوم.

قبالة كنيسة القديس سيرج، رجال مسلحون وسيارات شرطة ،كما هو معتاد أمام مواقع التدفق السياحى الكبير. أمام الأسوار السميكة للمدينة القبطية

القديمة بالقاهرة، يتعاقب الزوار ليتأملوا فى إعجاب مجموعات المتحف القبطى الفنية. بضع خطوات ،إلى اليسار ،تقود إلى الكنيسة المعلقة بسقفها الذى يتخذ شكل مركب مقلوب، رمزا لسفينة نوح.

فى رحبة الكنيسة، نرى ،فى كل مكان ، وجه البابا شنودة الخليفة رقم ١١٧ للقديس مرقص. على قصاصات تحديد صفحات الكتب ،حاملات المفاتيح التذكارية، معتمرا قلنسوته التقليدية المصنوعة من الشعر الأسود واللامع، يحدق فى جموع المؤمنين، عيناه السوداوان تخترقان وجها مختفيا خلف لحية هائلة.

بالنسبة إلى ملايين من أقباط مصر وشتاتهم كان البابا شنودة أكبر بكثير من مجرد مرشد روحى. لقد حافظ هذا المناور البارع، الذى اعتلى الكرسى البابوى عام ١٩٧١، على توازن دقيق للقوى. له سلطة الإشراف المطلق على رعاياه، فى مقابل صيغة ما لمولاة النظام. فعندما اندلعت بعض حوادث العنف، أو عندما صدرت أحكام بالبراءة كما حدث بعد مذبحة الكشح عام ٢٠٠٠، التى راح ضحيتها عشرون مسيحيا، تحاشى شنودة الثالث لعبة المزايدة: أدان واستنكر ثم سرعان ما امتدح الأصوات الداعية إلى التهدئة إلى جوار نظيره، الإمام الأكبر ،شيخ الأزهر، الذى كان على وفاق مع النظام.

لوقت طويل، كانت سلطة البطريرك كافية لاحتواء غضب الطائفة المسيحية . لكن خلال تلك السنوات الأخيرة ، صار عدد متزايد باطراد من المسيحيين المصريين ،يشجعهم فى ذلك أقباط المهجر ، المتنفذين للغاية خصوصًا لدى الكونجرس الأمريكى ، يصرون بأسنانهم ، يأسفون ، وهم كارهون، من سلوك البطريرك الداعى إلى التسكين والتصالحى بأكثر مما يجب. بدلا من المعانقات العقيمة بين الكهنة والشيوخ ،صار البعض يفضلون الطعون اللاذعة للأب زكريا بطرس ، أحد الرهبان ، الذى يحرض الأقباط على التمرد، من محل إقامته بالولايات المتحدة، بماهجمته للنصوص القرآنية وتفسيرها على هواه. ند مسيحى للشيخ الشعراوى، نجم الدعوة الإسلامية فى الثمانينيات، شخصية مكروهة عند الأقباط الذين كان ينعتهم باستمرار بعدم الإيمان والكفر.

بعد اعتداء رأس العام الجديد ٢٠١١، بالإسكندرية، خرج الشبان المسيحيون عن تحفظهم. صار خطابهم أكثر تصلباً و تعبيرهم أيضا. فى الثغر، واجهوا الشرطة بشكل عنيف. فى القاهرة، ألقوا باللوم وهتفوا ضد مسئولى الدولة وكبار رجال الدين الذين حضروا لتقديم واجب العزاء إلى شنودة الثالث داخل جدران كاتدرائية القديس مرقص، فى الثالث من يناير ٢٠١١، كانوا عدة آلاف، وكأنهم يتنبئون، يهتفون ثورة ، ثورة فى مصر «بعدها بثلاثة أيام، كتب هانى شكر الله، رئيس تحرير الأهرام أون لاين ، افتتاحية تهكمية للتنديد بعمى المجتمع المصرى. عنوانها؟

«إنى أتهم» .

« مرة أخرى، سوف ندين جميعا هذا الاعتداء. كلنا معا، مسلمين ومسيحيين، أعضاء الحكومة و شخوص المعارضة، كنائس و مساجد، رجال دين وعلمانيين. (..) أغلب هذه الاستنكارات لن تكون مع ذلك سوى نفاق خالص.(..) مجرمو القاعدة المتعطشون إلى الدماء وعصابات الأشقياء المتورطة فى مذبحة الإسكندرية ليسوا هم من يثيرون مخاوفى. إنى أتهم حكومتنا، التى يبدو أنها تعتقد أنها بمزايدتها على الإسلاميين سوف تستطيع أن تكبح جماح التعصب. إنى أتهم كل هؤلاء النواب و هؤلاء الوزراء الذين لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من أن يحملوا تعصبهم إلى قلب البرلمان (..) والذين، بالمناسبة، لا يأنفون من إذكاء المشاعر المعادية للأقباط بغرض تحويل الرأى العام عن القضايا السياسية التى كانت، بخلاف ذلك، أكثر إلحاحا. (..) إنى أتهم من بيننا هؤلاء الذين يعلنون سخطهم عاليا و قويا من قرار إيقاف البناء فى مركز إسلامى فى مدينة Ground Zero، مع أنهم يهللون فى صخب للشرطة المصرية عندما تتدخل لمنع بناء درج فى كنيسة قبطية بالعمرانية.لقد سمعتكم تتحدثون داخل المكاتب ، فى النوادى وفى حفلات العشاء فى القاهرة: « إن الأقباط يستحقون درسا، صار الأقباط يتغطرسون أكثر فأكثر، يسعى الأقباط للتبشير بين المسلمين (..). وفى النهاية، فإنى أتهم مثقفى اليسار، مسلمين ومسيحيين، الذين، كانوا، تواطئوا،

جبناً، أو فقط لمجرد رفضهم تكدير صفو الغالبية، قد ظلوا صامتين، مكتفين فى كل مرة بالانضمام إلى جوقة المعارضين عديمى الجدوى ،حتى بينما كانت المذابح تتزايد وتصير شيئا فشيئا أكثر فظاعة. (..) هل تنقصنا الشجاعة لهذه الدرجة حتى لا نأخذ على عاتقنا مهمة تحديد مصيرنا، مصير بلادنا ؟ مع أن هذا هو الخيار الوحيد المتبقى لنا، وسوف يكون من الأفضل لنا أن نتمسك به قبل أن يفوت الأوان».

بعد أحداث العنف فى صول والمقطم، تجمع الآلاف من الأقباط ومن المسلمين على كورنيش النيل، أمام مبنى الإذاعة و التليفزيون، الدعوة إلى الوحدة الوطنية. مسيحيات تطير شعورهن مع الريح، مسلمات يضعن النقاب، رجال يحملون الصليب فى يد والقرآن فى الأخرى؛ يتغنون سويا: «مسيحى ومسلم يد واحدة» مصر تلتجئ إلى روح الميدان، كما لو كانت تتعوذ من روح شريرة.

البحث عن الديمقراطية
عايزين حرية!

بدا ثابتا عاقد العزم، تحت هذه الشمس الحارة. ينظر إلى الأمام فى الصف الممتد أمامه، لا تزال هناك عشرات وعشرات من الرؤوس تنتظم فى خط مستقيم تماما. كان فى الستين. وها هى ذى الأخاديد تحفر الجلد تحت عينيه. كان الجو حارا ولم يكن ذلك يهمه. لم يكن فى نية محمد موافى أن يذهب ليجلس هناك ، فوق المقعد المنصوب بالقرب من تمثال كبير لجمال عبد الناصر، فى فناء تلك المدرسة الواقعة فى حى « جاردن سيتى» . المدرسة، لقد غادرها منذ زمن طويل، ولم يرتادها إلا قليلا جدا. فى قريته الريفية، كان الأطفال يذهبون إلى الحقول، تعلُّم القراءة، مضيعة للوقت، وكان بالكاد للتمكن من قراءة القرآن. اليوم، ولواحد من أجمل أيام حياته، لن يكون محتاجا إلى ذلك. فى المعزل (حيث يدخل الناس لإعداد بطاقات التصويت)، ورقة، دائرة خضراء، دائرة حمراء . «نعم لا»، هذا ما سوف يكون، بعد قليل، فى البطاقة التى سوف يدسها فى الصندوق.

خلفه، تكتم امرأة زفرة ضيق. لقد جاءت مع ابنتها وحفيدتها ذات الخمسة عشر عامًا. كن أيضا لم يصوتن من قبل مطلقا. مثل ملايين المصريين الذين قاموا فى هذا اليوم ١٩ مارس ٢٠١١، وللمرة الأولى فى حياتهم ، بواجبهم كمواطنين بإبداء رأيهم عبر الاستفتاء على إصلاح الدستور.

تحت النظام القديم، كان عشرة بالمائة تقريبا هم من يذهبون للإدلاء بأصواتهم، أغلبهم موظفون، عمال، يشحنهم فى الحافلات أرباب أعمالهم،

أعضاء الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم. يكافأ كثير منهم بشىء من اللحم، أو بورقة نقدية من فئة الخمسين جنيها (أكثر من ٦ يورو بقليل) يدفعها إليهم محاسيب الحزب المحليون، لكى يضعوا البطاقة التى زجوا بها فى أيديهم فى الصناديق.

هذه المرة، على الرغم من عدم وجود حملة انتخابية حقيقية، فإن المصريين يتجمعون بكثافة. وفخورين بقدرتهم على التعبير عن أنفسهم أخيرا بحرية، كانوا أكثر من ثمانية عشر مليوناً توجهوا إلى صناديق الاقتراع التى لم تكن معروفة بالطوابير التى تمتد لمئات الأمتار أحيانا أمام بعض مكاتب التصويت. نسبة المشاركة ٤١٪ كانت بلا سابقة فى التاريخ المصرى الحديث. وعلى الرغم من بعض المخالفات التى رصدها المراقبون المستقلون، فإن الاختبار الديمقراطى الأول، اختبار التعبئة، قد مر بنجاح.

فى الأيام التى سبقت الاستفتاء، كانت مصر قد انساقت وراء حمى المناقشات السياسية التى اندلعت، حتى فى الشوارع، سيارات الأجرة، أرصفة المقاهى. كان الدستور فى قلب هذا النقاش. وبصورة أكثر تحديدا، التعديلات الدستورية التى أعدتها لجنة من عشرة من رجال القانون، كان المجلس الأعلى للقوات المسلحة قد قام بتعيينهم. لم تكن طبيعة هذه التعديلات هى جوهر النقاش، بقدر ما كان ذلك هو البرنامج الزمنى للمرحلة الانتقالية. كانت المواد الخاضعة للتصويت تصحح أكثر أوجه العوار سفورا فى الدستور. ابتداءً، كانت تزيح العقبات، شبه المستحيل تخطيها، أمام المرشحين لانتخابات الرئاسة التى تم تمريرها فى عام ٢٠٠٧. تضع حدا للرئاسة مدى الحياة، بتحديدها إلى فترتين متعاقبتين مدة كل منهما أربع سنوات. تلغى السلطات الاستثنائية التى كانت ممنوحة لأمن الدولة فى النظام السابق. أو تقدر أيضاً أن دستورا جديدا يجب أن يوضع ويخضع للاستفتاء خلال مهلة أقصاها سنة واحدة من بعد الانتخابات البرلمانية المقبلة. غير أن المصريين واجهوا موقفا حرجا: هل يجب إجراء الإصلاحات تدريجيا، كما يقترح الجيش، أم التخلص من الماضى مرة واحدة ؟ فى معسكر الرافضين،

نجد معظم شباب الثوار وأحزاب المعارضة التقليدية، بل أيضا عمرو موسى، محمد البرادعي، اثنيان من المرشحين المعلنين للرئاسة. بالنسبة إلى هؤلاء فإن الدستور كان قد فقد ثقة الناس فيه تماما. وبالتالى فلا يكفى أن يتم إصلاحه، يجب تغييره دون انتظار. المعارضون يبدون مخاوفهم خصوصا من البرنامج الزمنى للمرحلة الانتقالية الذى يقترحه الجيش. فبعد تعديل الدستور، كان الجيش قد اقترح إعادة السلطة إلى المدنيين عن طريق إجراء انتخابات برلمانية فى سبتمبر ٢٠١١، خلال مهلة قدرها ستة شهور، ثم انتخابات رئاسية خلال الستين يوما التى تلى ذلك.

غير أن هذا البرنامج لم يكن يترك أمام المعارضة سوى القليل جدا من الوقت، حتى تستعد، بينما يجب أن يعاد تركيب المشهد السياسى بأكمله. بالنسبة إلى ورثة الثورة فإن هذا البرنامج الزمنى يخاطر بالسماح للنظام القديم بأن يستمر « فى ثياب جديدة» بمحاباة القوى السياسية المستعدة من قبل بالفعل. مخاوف زادت منها حقيقة أن من ضمن أنصار «نعم» فى الاستفتاء، هؤلاء الذين كانوا يمتلكون مبدئيا أوفر الحظوظ فى الفوز إذا ما أجريت انتخابات عاجلة: حزب حسنى مبارك الوطنى الديمقراطى و الإخوان المسلمون.

بعد أسبوع من المناقشات الملتهبة، سوف يسفر الاستفتاء من خلال هذه الرؤية، عن عودة قاسية إلى الواقع بالنسبة إلى الثوار، بنسبة ٧٧٪ من الأصوات، اكتسحت « نعم » النتيجة.

الناس الذين صوتوا «نعم» لا يدركون شيئا، لقد تم التغرير بهم.

أمالَ علىٌ غطاء رأسه الصوفى، جالسا فى أحد مقاهى الزمالك كان هذا الرسام الشاب قد دفن، مع رفاقه من الثوار، آماله التى اغتيلت بغتة، كانوا خمسة، كافحوا جميعهم من أجل « لا » و يتقاسمون الآن نفسها الأحزان.

لقد حاربنا بلا طائل.

أمام إحدى البنايات القديمة، المحطم رخام واجهتها، حيث يسكن، بالقرب من حصن السفارة الأمريكية، كان شريف، موظفًا كبيرًا، يشعر، هو الآخر، بغضبه يتصاعد.

الذين صوتوا «نعم» سرقوا دماء الشهداء. ليس لنا الحق فى أن نتوقف فى منتصف الطريق. لقد قطعت رأس الوحش، لكن جسمه مازال حيا.

فى اليوم التالى لهذه الهزيمة الانتخابية ، كان الاستفتاء يترك فى حلوق الثوار طعما مرا. نددوا خصوصًا باستغلال الدين من قبل الإخوان المسلمين، والسلفيين أيضا. فى كثير من المساجد، صور الأئمة فى واقع الأمر التصويت لصالح «نعم» كواجب دينى من أجل إعداد البلاد للانطلاق من جديد، أمام الحقيقة القاسية التى أظهرتها الصناديق، كانت الديمقراطية الوليدة تواجه صعوبات بالفعل.

لقد أظهر الاستفتاء أن مصر ليست التحرير فقط وأن غالبية المجتمع لم تكن مستعدة لقبول كل تحديات الشباب. لقد حملت إلى حد بعيد، خلال الثورة، نفس الآمال فى التغيير. لكنها تشعر منذ الآن بالحاجة إلى أن تجد معالم على الطريق.

نتيجة التصويت لم تكن تسمح، فى المقابل، باستخلاص نتائج نهائية بشأن الثقل السياسى لهؤلاء وهؤلاء. بالنسبة إلى كثير من المصريين، بما فى ذلك بعض الشباب، كان التصويت «بنعم» قد بدا وكأنه الطريق الأقصر والأمن ليغادر الجيش السلطة ولكى تستعيد البلاد حالة شبة طبيعية. ربما أدت «لا» بالعكس، إلى إطالة أمد فترة عدم الوضوح المؤسسى والقانونى وتنمية الشعور بحالة الشلل. لقد كان هذا الهاجس، أكثر من التزام حزبى حقيقى، هو ما برر، على ما يبدو، مشاركة كثير من المصريين فى التصويت.

لكن ما الضمانة التى نملكها الآن لكى نعيد الانطلاق على أسس سليمة ؟ لا يرجع شريف عما هو فيه، غامسا خبزه بحنق فى طبق الفول، غذاء المصريين

الأساسى. إنى أتفهم أن يكون الناس قد تعبوا، لكن يجب ألا نخفف الضغط، ليس قبل إنجاز هذا العمل بالكامل !

سبب إضافى لمخاوف المعارضين: فى اليوم التالى للاستفتاء أصدر المجلس العسكرى مرسوما بمشروع لقانون يقرر عقوبات بالسجن وبغرامات لكل من «يقوم بمظاهرات ، اعتصامات ، تجمعات ، مسيرات تعرقل سير العمل فى المؤسسات العامة أو الخاصة».

أكدت الحكومة أن هذا القرار قد جاء لتدعيم مكتسبات الثورة بأن جنّبها أن تتورط فى نزاعات بلا نهاية. كما وعدت أيضا أنه لن يبقى ساريا إلا مادام قانون الطوارئ باقيا لم يرفع، الأمر الذى وعد الجيش بتحقيقه قبل الانتخابات.غير أن ذلك، بالنسبة إلى الشباب الذين ناضلوا من أجل الحرية فى ميادين التحرير، كان يشبه طعنة خنجر جديدة.

بعد شهر ونصف الشهر من رحيل مبارك، ظل الوضع مرتبكا وغامضا. أغلب المؤسسات السياسية معلقة النشاط، حظر التجول، حتى بعد تقليصه، ظل قائما. الاقتصاد ، على وجه الخصوص،يواجه صعوبات فى الانطلاق من جديد. المواقع السياخية مقفرة تقريبا. العديد من المؤسسات وإدارات الدولة تعانى من الإضرابات و الاحتجاجات الاجتماعية. مستثمرون أجانب يساورهم القلق بسبب فقدانهم لشركائهم المصريين، لا يعولون على عودة الاستقرار السياسى والاقتصادى قبل عدة سنوات مقبلة. أما السلطات فتتوقع ألا يتعدى معدل النمو ٣٪ فى نهاية السنة المالية الجارية. غير أن الخبراء اتفقوا فى القول بأن الاقتصاد المصرى ،تحت معدل نمو مقدار ٦٥٪ لا يخلق عددا كافيا من فرص العمل. وأن نسبة البطالة قد ارتفعت بسرعة كبيرة، خصوصا فى أوساط شباب الخريجين.

مع هذا، لم يكن كل شىء يدعو إلى اليأس: التضخم الذى أضر بقوة المصريين الشرائية، ظل مستقرا. فى حدود الـ ١٠٪ لكن الارتفاع الكبير المتوقع

فى الأسعار والمتخوف منه لم يحدث. الجنيه المصرى لم ينهر، رغم ما تعرض له من ضغوط، ولا البورصة أيضا، على الرغم من بدايتها الجديدة الصعبة فى نهاية مارس، بعد شهرين من الإغلاق.

فى مجال الأعمال، لم تكن الأجواء، من جانب آخر، كارثية. يعتقد الكثير من الخبراء أن مصر يمكنها أن تحقق استفادة أفضل فى بيئة اقتصادية أكثر سلامة. غير أن وجهة النظر هذه كانت تبدو، فى غداة الثورة محفوفة بالمخاطر. البلد يدور ببطء وأغلبية الناس تساورهم المخاوف بشأن المستقبل.

فى هذه الظروف، كيف يمكن إقناع المصريين بالوثوق فى الديمقراطية ؟ كان هذا هو التحدى الهائل الذى يواجهه المشاركون الجدد فى لعبة السياسة. لأن الجميع كان يدرك أهمية الرهان: كان مستقبل الديمقراطية المصرية معلقاً بسلوك الأغلبية الصامتة.

نبهت نتيجة الاستفتاء الدستورى قوى المعارضة إلى جسامة المهمة: فى المناطق الفقيرة والأقل تعليما، كان قطع الصلة بأساليب المحسوبية القديمة ،سواء القائمة على النقود أو الديانة ،يستلزم عملا متكاملا لإيقاظ الوعى السياسى. وكان هذا يتطلب وقتا طويلا. وسوف يكون من اللازم أن يستجاب بشكل ملموس لتطلعات شعب كانت القضايا الاجتماعية الاقتصادية بالنسبة إليه تسبق كل ما عداها.

حتى نتحقق من هذا، لا داعى للذهاب حتى إلى مصر « العميقة» مصر دلتا النيل أو الصعيد، التى تمتد من أبواب القاهرة إلى تخوم الأقصر. يكفى أن نذهب إلى طريق العاصمة الدائرى الذى تطوقه العشوائيات، التى تضم الآن قرابة ربع السكان. عام بعد آخر، كانت هذه العشوائيات تنخر بشكل مروع فى الأراضى الزراعية التى لا يمكن البناء فوقها نظريا، بفضل البقشيش المدفوع إلى مقاولين غير شرفاء. كما هو الحال فى الوراق، حى هائل الحجم، يضم قرابة المليون من السكان و يقع شمال غرب القاهرة.

الخبز ... الخبز ... مزيد من الخبز.

عندما يجرى سؤالهم عما ينتظرون من الثورة، لا يأتى على أفواه سكان الوراق سوى هذه الكلمة: عيش، الخبز، « الحياة » باللهجة العربية المصرية. كما يرى سكان الوراق، فإن ثورة التحرير ومزاياها الديمقراطية المنتظرة ما زالت فكرة تجريدية ، كما يعترف بذلك إبراهيم ، العامل فى أحد مصانع السيارات والقاطن فى الحى.

ـ أنا لا أعرف لمن يجب أن أصوت. أنا أفضل أن أترك للآخرين أن يقرروا من هو الأفضل تأهيلا لقيادة البلاد.

من هم على سبيل المثال؟

ـ المتعلمون الذين يعرفون كيف يقرأون القرآن.

لا يذود إبراهيم عن حقه فى التصويت عن قناعة. لا. بالأحرى عن حرج: فمثله، أكثر من شخص واحد بين كل ثلاثة يعانون الأمية.

يرى محمود، مدرس بالمرحلة الثانوية، أن ثورة العقول سوف تتطلب بعض الوقت. وسوف يبدأ ذلك بنظام تعليمى أفضل، بكل تأكيد، وبوسائل إعلام أكثر تربوية أيضا. لكن، بصورة أكثر. عموما فإن العقليات هى التى يجب أن تتغير. سكان الأحياء الفقيرة، كما يقول محمود، لم يكن لهم رأى فى أى شىء على الإطلاق. وغياب الحرية السياسية ليس المتهم الوحيد. إنها مسألة عادات ثقافية، يقول الأستاذ محمود: وطأة المجتمع البطريركى ،حيث لا يتم الاعتراض على السلطة، أثر التعليم، المبنى على الحفظ عن ظهر قلب منذ الصغر.

النتيجة، يقول محمود، إننا جميعا قد استبعدنا كلمتين من قاموسنا: لا ولماذا.

اعتاد سكان الوراق على أن يتدبروا أمورهم بعيدا عن الدولة. عربات التوك توك، تلك الدرجات ثلاثية العجلات المزودة بمحركات، التى تحل محل سيارات الأجرة فى المناطق الريفية، تكاد تكون الوحيدة تقريبا التى تغامر بالدخول فى

الشوارع المليئة بالحفر. هنا لا توجد وسائل مواصلات عامة، لا إنارة عامة ولا نقل للمخلفات وقمامة المنازل. حتى المياه النقية تغيب أحيانا. المجلس المحلى «عاجز وفاسد» النائب السابق، واحد من « انتهازيى الحزب الوطنى الديمقراطى كان يوزع اللحم يوم الانتخابات حتى يصوت له الناس، ولم نره مرة أخرى بعدها» ابتسم حسن، بقال سمين من أهل الحى، فى تكلف.

ـ لقد فعلت مثل الجميع، أخذت ما أعطونى ولم أدل بصوتى، قالها و انفجر ضحكا.

والآن؟

ـ إذا قمت بالتصويت، سيكون فقط من أجل شخص أعرفه جيدا وأثق به.

الشباب الثورى لا يدخل على ما يظهر فى هذه الشريحة، حتى وإن وصفوهم بـ« الشجعان». ولا الأحزاب التقليدية كذلك . « إنهم لم يهتموا بنا على الإطلاق» .إنه يثق أكثر قليلا فى الإخوان المسلمين الذين ، وفقا لما يرى، تولوا منذ سنوات أمور الصحة ،التعليم ،مساعدة المحتاجين . فى الأيام الأولى من الثورة، عندما نشرت الصعوبات التموينية الذعر، كان الإسلاميون أيضا هم من قاموا بالاستعدادات لكى ينقلوا الخضراوات، الفواكه إلى الحى، والدقيق من أجل صنع الخبز. بفضلهم، يقول حسن، انخفضت الأسعار بمقدار النصف.

أنا لا أظن أنهم يمثلون أغلبية، لكن، فى الوقت الحالى، يجب الاعتراف بأنهم كانوا الوحيدين الذين قدموا للناس شيئا.

يسعى الإخوان المسلمون، من جانبهم ،إلى الطمأنة: فى اليوم التالى للثورة كانوا يؤكدون أنهم « ليسوا مهتمين بالوصول إلى السلطة» وأنهم لم يقدموا مرشحا فى الانتخابات الرئاسية المقبلة. إنهم يدركون، بالتأكيد، أنهم فى موقع قوة. أمامهم، يبدو الأفق منفتحا، أو تقريبا كذلك.

هيكل خرسانى سودته ألسنة اللهب: هذا هو كل ما تبقى، فى مارس٢٠١١، من مقر الحزب الوطنى الديمقراطى. قبل الثورة بشهرين، كان رؤوس الحزب الحاكم، مثل أحمد عز، مازالوا يختالون فيه، محتفلين دونما شعور حقيقى

«بانتصارهم» فى الانتخابات البرلمانية. لم تكن غلطتنا على أى حال إن كان المعارضون معدومى الكفاءة. قال بإيجاز ، رجل الحزب المتحكم فى الانتخابات.

غداة استقالة حسنى مبارك، كان أحمد عز قد ألقى فى السجن. مثله مثل عدد من قدامى قادة الحزب، أو رجال الأعمال الذى يقومون بتمويله. بعضهم بتهمة الفساد أو إهدار الأموال العامة ، وآخرون بتهمة تدبير وتمويل هجوم البلطجية على ميدان التحرير فى الثانى من فبراير ٢٠١١.

وجه سقوط الرئيس لطمة عنيفة إلى الحزب الوطنى. الأعنف، منذ تأسيسه عام ١٩٧١، بواسطة الرئيس السادات عندما ألغى نظام الحزب الواحد الذى ورثه عن ناصر ، لم يكن الحزب الوطنى قط حزبا قائما على أساس فكرى بل كان بالأحرى تكتل مصالح شخصية، جماعة منتفعين، على الأخص فى السنوات الأخيرة، مع النفوذ المتنامى لرجال الأعمال. بفقدانه السلطة، فقد الحزب الوطنى جاذبيته: من مليونين ونصف المليون من الأعضاء قبل الثورة، لم يعد يضم سوى بضع مئات الآلاف بعدها بعدة أسابيع. بعض قواده السابقين، خصوصا من كانوا ينتمون إلى الجناح الإصلاحى، كانوا يعتزمون كل حال إنشاء حركتهم الخاصة.

ضربة قاضية؟ فى صورته القديمة، بالتأكيد. غير أن الخبراء يعتقدون أن الحزب قادر على أن يعيد بناء نفسه. محمد رجب، الذى تولى رئاسة الحزب بعد رحيل حسنى مبارك، وعد بالقيام بـ «حملة تنظيف» لتخليص الحزب من أعضائه الأكثر فسادا. لكن الكثيرين يشكون فى صدق هذا المقرب من صفوت الشريف السكرتير العام السابق، أحد أركان النظام القديم. فى استفتاء ١٩ مارس الدستورى، أثبت الحزب الوطنى من جهة أخرى أنه يواصل، بقدر من النجاح، الاعتماد على شبكات عملائه باروناته المحليين، ذوى النفوذ الدائم سواء فى الدلتا أو فى مصر العليا.

من أجل طى صفحة الحزب الوطنى، كان الشباب المتجمعون فى «ائتلاف ثورة ٢٥ يناير» قد كثفوا من اجتماعات التشاور بعد رحيل حسنى مبارك. كنا نقابل فى هذه الاجتماعات أعضاء من جماعات المعارضة، مثل حركة ٦ إبريل وأيضا ممثلى شبيبة الأحزاب المؤسسية: التجمع (ماركسى)، الكرامة (يسار)، حزب الناصرى، الوفد (ليبرالى)، شباب الغد والجبهة الديمقراطية ثلاث حركات يمكنها أن تمثل قائمة مشتركة فى الانتخابات المقبلة، وحتى الإخوان المسلمين.

ـ أهلا بمشاركة الجميع بشرط أن يكون ذلك من أجل العمل انطلاقا من قاعدة ديمقراطية مشتركة ،لا من أجل التناحر على المناصب الرسمية، هكذا يلخص الوضع عبد الرحمن سمير، ٢٥ عاما، ممثل الجمعية الوطنية للتغيير التى أسسها محمد البرادعى.

جاكت من القطيفة بنى اللون ولحية صغيرة مشذبة بعناية. تلقائيا، ينقر الشباب على هواتفه المحمولة الثلاثة. دردشة، رسائل على تويتر، على فيسبوك، لا وقت لالتقاط الأنفاس. هناك كثير من الأشخاص يجب الاتصال بهم، أمور يجب ترتيبها، أسئلة تنتظر الرد عليها. كيف يمكن الآن، التنسيق بين حركات معارضة بمثل هذا التفاوت، وقد تحقق بالفعل هدفها المشترك برحيل الفرعون ؟ كيف يمكن الحفاظ على إرث الثورة و مكتسباتها؟

على قمصانهم ،كانت صورته مطبوعة، متخذة هيئة غاندى، شارب رفيع ونظارات دائرية الإطار. بالنسبة إلى كثير من شباب جيل الفيسبوك الذين أسقطوا الرئيس، كان محمد البرادعى، ٦٩عاما، هو « الأب الروحى» للثورة.

الحائز على جائزة نوبل عام٢٠٠٥، ربما سيكون أحد المرشحين للانتخابات الرئاسية القادمة، كما يتمنى أنصاره.

ربما. إذا طلب منه المصريون ذلك. إذا كان هناك نظام ديمقراطى «حقيقى» الأمر الذى يستبعده، من وجهة نظر البرادعى، انتصار « نعم» فى الاستفتاء الدستورى.

لا يريد لنفسه أن يصير حيوانا سياسيا: حتى يتحول محمد البرادعى عن طبيعته كان يلزم ما هو أكثر من هبوب رياح الثورة. كان الرجل رصينا متحفظا، أقل ارتياحا فى الشارع عنه فى الصالونات الدبلوماسية الوثيرة التى ارتادها خلال ثلاثين عاما فى مقرات مختلف وكالات الأمم المتحدة.

غير أن من كان لا يزال على رأس الوكالة الدولية للطاقة الذرية، فى فبراير ٢٠٠٩، أشعل فتيل قنبلة مؤقتة حقيقية. فى ذلك اليوم، كان محمد البرادعى ضيفاً على أحد البرامج الحوارية ذات نسبة المشاهدة العالية على قناة دريم الخاصة. ضيف بلا مفاجآت. متزن، موال، ألم يمنحه حسنى مبارك بالأمس القريب قلادة النيل، أرفع أوسمة التكريم المصرية ؟ كان موضوع الحلقة محددا: النشاط النووى فى إيران. لذلك، عندما سألت المذيعة منى الشاذلى صاحب جائزة نوبل عن مشاعره تجاه وطنه، انتظر الجميع ذلك المقطع الأبدى من أغنية عظمة مصر وإشعاعها، أم الدنيا.... مستقيم النظرة، أجاب البرادعى بأنه، حقيقةً، لم يكن يعتقد أن بلاده يمكن أن تسقط إلى مثل هذا الحضيض على المستوى السياسى أو الاجتماعى.

سماع شخص مثله، يحترمه كل العالم، يقول بالصوت العالى كل ما يفكر فيه كثير من المصريين بصوت شديد الخفوت، كان ذلك أمرا لا يصدق، يتذكر سالم، طالب العلوم السياسية.

انفتحت عيون السد. نظام تعليمى فى حالة يرثى لها، أمية، فقر، تفاوتات اجتماعية، نقص فى الحريات السياسية.

- مصر يجب أن تتغير، قال البرادعى مختتما. إننى لا أسعى إلى الحصول على منصب رسمى، لكنى مستعد للوقوف إلى جانب المصريين من أجل إصلاح النظام.

بعد ذلك بعام، لدى عودته النهائية إلى مصر، استقبله آلاف الأشخاص فى مطار القاهرة. بالنسبة إلى الديمقراطيين المصريين، المستسلمين تقريبا لعملية توريث الحكم منذ تم تمرير التعديلات الدستورية المشينة فى عام٢٠٠٧، مثل

البرادعى سببا جديدا للأمل. ضم الحشد المنتظر، علاء الأسوانى، الذى حضر لتحيه رجل «نزيه» قال الروائى متحمسا: كان البرادعى يستطيع أن يهنأ بتقاعد مريح وهادئ ،أو أن يقبل بمنصب شرفى، لكنه اختار أن يعود لـ «يناضل فى سبيل وطنه ومن أجل شعبه» مدركا أن عليه أن يدفع ثمن ذلك».

الصحافة الموالية للحكومة، تحت الطلب دائما، تقدم كشف الحساب الأول. اتهمت البرادعى بالحصول على الجنسية السويدية، بالقيام بالتآمر مع الولايات المتحدة حتى تتمكن من اجتياح العراق، نشرت صورا لكريمته فى ثوب الاستحمام ولحفل زواجها، حيث فاضت أنهار الكحول. كانت الاتهامات فجة، متدنية، لكن فى مصر التى لم تقم بعد بثورتها الفكرية، فإنها قد تركت آثارها فى النفوس وقلصت باستمرار، من حظوظه فى الانتخابات الرئاسية.

خلال عام ٢٠١٠، لمرات عديدة، أعرب البرادعى عن إحساسه بأنه يحارب طواحين الهواء:

إننى قلق، لأن المصريين لم يستوعبوا بعد الفكرة الأساسية للديمقراطية. إنهم محبطون إلى حد أنهم ينتظرون مُخلّصًا. والحال أن هذا ليس هو الحل. لتغيير هذا البلد يجب أن يشارك الجميع.

المعارضة، صاحبة المصلحة الأولى، كان لديها فرصة استعادة قدراتها وموقعها. لكنها تركتها تمر. تقوضها مشاعر الغيرة وتمزقها الخلافات ، تجاهلت نداء البرادعى بمقاطعة الانتخابات البرلمانية المنتظرة فى نوفمبر٢٠١٠.

وفى المقابل، استُنفِر، بعض المصريين: الشباب المتعلم، المدونون.

لم يعد هؤلاء يحتملون التسويات الصورية و الخطابات المسكنة لقوى المعارضة التقليدية. لقد أدركوا أنهم إذا كانوا يريدون أن يشهدوا سقوط نظام مبارك فإن عليهم أن يدفعوا الأمور قليلا. وأن محمد البرادعى ربما كان الشخص البارز «تمثال الجؤجؤ» الذى كان ينقصهم لإقناع المجتمع الدولى بعدالة معركتهم.(التمثال الذى كان يزين مقدمة السفن الشراعية قديما ـ المترجم).

فى خلال عدة أشهر، كان هؤلاء الشباب قد أعدوا أنفسهم. إنهم أكثر من عشرين ألف متطوع ينتقلون من باب إلى باب طالبين من المصريين التوقيع على عريضة «المطالبة بالتغيير» . مطالبهم: رحيل حسنى مبارك، الحرية، العدالة الاجتماعية، تغيير الدستور. كان صاحب جائزة نوبل قد حدد لنفسه هدفًا أن يجمع مليون توقيع. عندما اندلعت الثورة، كان قريبا جدا من هذا الرقم.

كل يوم، ينضم أعضاء جدد إلى تحالفه الوطنى من أجل التغيير. قدوتهم غاندى ومارتن لوثر كنج. مصدر إلهامهم المفكر السياسى الأمريكى جين شارب Gene Sharp الذى كانت مناهجه فى العصيان المدنى قد ألهمت حركات التمرد الشعبية ضد الأنظمة السلطوية فى صربيا، فى أوكرانيا، فى جورجيا وفى إيران.

العصيان المدنى،هذا ما يلوح به البرادعى مهددا منذ سبتمبر ٢٠١١، على تويتر، وسيلة اتصاله المفضلة. فى جريدة الشروق الجديد يقول البرادعى بوضوح: إن النظام إذا لم يستجب لمطالب التغيير، فإن المصريين سوف ينزلون إلى الشوارع وأن ذلك سوف يكون بالنسبة إليه «بداية النهاية».

بعد ذلك بشهرين، جاء رد النظام بتزوير الانتخابات البرلمانية على نطاق واسع.

لابد لهذا القمع من نهاية، صرح صاحب نوبل للسلام مندداً. أتمنى أن يفهم النظام مستقبلا أن لدينا الحق فى التظاهر السلمى للمطالبة بالتغيير. إذا لم يسمح لنا بذلك، فإنه لن يترك للشعب منفذا سيكون هناك عنف، وهذا، ما لا يتمناه أى مصرى.

هل البرادعى رجل خيالى ؟ لكنه، على الأقل، مدرك لحقيقة الوضع فى بلاده. أثناء مظاهرات٢٥ يناير ٢٠١١، على كل حال، كان البرادعى فى النمسا. لم يعد إلى القاهرة إلا بعد يومين مدعيا أنه كان مستعدا لضمان انتقال سلمى للسلطة. غير أن قطار الثورة كان قد انطلق بالفعل، ولن يتولى البرادعى أمر قيادته أبدا.

رحل حسنى مبارك، وعلى الرغم من كل شىء فإن كثيرا من الشباب الثورى اتجه ناحية البرادعى. لكن الجيش، عن نفسه، قد تأفف من استقباله، وفى١٩ مارس، أثناء الاستفتاء، استقبل البرادعى بالرشق بالأحجار فى حى المقطم الشعبى. إذا كان هذا الاعتداء قد قاده بالفعل البلطجية الذين استأجرهم الحزب الوطنى، كما يؤكد من يحيطون بالبرادعى، فإنه يظهر حقد النظام القديم تجاه رجل ساهم بقدر كبير فى سقوطه.

مع هذا، فإن كثيرا من المصريين لم ينصفوا الرجل. أفسدت آراؤهم بروباجاندا (دعاية) الصحافة الموالية لمبارك، استمروا فى اعتباره عميلا أمريكيا. بعد الثورة، حاول البرادعى تصحيح، هذه الصورة عبر مشاركته فى كثير من البرامج الحوارية التليفزيونية، لكن كثيرا من أهل بلده كانوا يفضلون عليه قليلا عمر، موسى لمنصب الرئاسة.

وجهه المحفور وتصريحاته الزاعقة جعلت منه منذ وقت طويل شخصية على حدة على مسرح السياسة المصرية. فى الرابعة والسبعين، كان عمرو موسى ذو الشعبية الجارفة قد ظل على خطوط البداية زمنا طويلا جدا لدرجة أنه كاد ألا يغادر مكانه مطلقا. غير أن هذا الرجل الذى يوصف بأنه ليبرالى، سياسى و اقتصادى، كان يعرف أن وقته ربما قد حان أخيرا.

أثير لدى الشارع المصرى منذ وقت طويل، نزل عمرو موسى إلى الميدان منذ أن اقترحت اللجنة المكلفة بتعديل الدستور إزالة العوائق أمام ترشح المستقلين. إذا تحرك بشكل صحيح، فإن وزير خارجية حسنى مبارك السابق يمكنه أن يجد أمامه طريقا واسعا. هناك ميزة أنه قد كان فى قلب النظام، ثم أزيح منه. إمكانية أن يكون متوافقا مع المؤسسة العسكرية، بينما لم يكن فى يوم من الأيام عضوا فى الحزب الوطنى. كان ذلك بالأحرى أحد أسباب التميز فى تلك الأوقات.

بنى عمرو موسى شعبيته خلال الفترة التى كان يدير فيها الدبلوماسية المصرية، ما بين عامى الانتقادات الحادة لهذا الدبلوماسى فرنسى الثقافة، المهاجم للسياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين، كانت قد جعلت منه حتى بطلاً لأغنية، توضح مواقفه: أحب عمرو موسى وأكره إسرائيل، رددها ملايين المصريين معا فى عام ٢٠٠٠، مؤديها شعبان عبد الرحيم، مكوجى، كان يغنى أغنياته الخفيفة فى أوقات فراغه، صار نجما وطنيا.

إسرائيل و الولايات المتحدة كانتا أقل تأثرا بالتجربة الفنية وظلتا، حتى يومنا هذا بالأحرى مرتابتين من ناحية عمرو موسى، الذى أعلن فى الماضى عن تأييده لرفع الحصار عن غزة، الذى جعل من الحوار مع إيران أحد محاور برنامجه السياسى الخارجى.

وفى سفارات الدول الأجنبية بالقاهرة، اتفق كثير من الدبلوماسيين: إذا تم انتخابه فسيعرضه ذلك للتقيد بشروط اتفاقية السلام ولا شىء غير اتفاقية السلام. فى واقع الأمر، إن لإسرائيل أسبابها فى أن تستشعر بعض المخاوف. فى الواقع إن مصر توفر لإسرائيل على سبيل المثال، تقريبا، نصف احتياجاتها من الغاز الطبيعى، بأسعار تقل بوضوح عن أسعار السوق العالمى.

فى القاهرة، يدور الهمس بأن الهالة التى تحيط بعمرو موسى كانت تلقى بكثير من الظل على حسنى مبارك وكان هذا هو السبب من وراء « ترقيته» فى عام ٢٠٠١، ليكون على رأس الجامعة العربية. منصب رفيع مرموق، لكنه عرضة للانتقادات، طالما كانت المنظمة تبدو مصابة بالشلل باستمرار أمام الأحداث التى تعصف بالعالم العربى، مثل النزاع الإسرائيل ـ عربى وحرب العراق.

غير أن نجم عمرو موسى الكاريزمى لم يأفل. بل إنه قد أتاح له أن يرصد، عن بعد، انحراف النظام نحو انتهازية رجال الأعمال. ويقال عنه فى دهاليز السياسة المصرية إنه « لم يستفد من النظام» وأنه قد كان من الذكاء، حيث لم

يظهر كمقرب من رؤوس عصابات النظام ورجال الأعمال الأكثر فساداً، الذين صاروا اليوم محل ازدراء الناس. كذلك اهتم هذا الدبلوماسى المتمرس بصورته كمرشح لمنصب الرئاسة. فى الصحافة القاهرية انتقد الرجل ضعف سلطات البرلمان، وكذلك حالة التعليم والنظام الصحى، اثنان من الاهتمامات الأساسية للمصريين. كان مبدؤه مصر يجب أن تتقدم على عجلتين، السوق الحرة و العدالة الاجتماعية، قد أكسبه نقاطا لدى كل من رجال الأعمال والفقراء أيضا.

فى الرابع من فبراير تودد إلى الشباب أيضا بالتوجه إلى ميدان التحرير، قبل أسبوع من سقوط حسنى مبارك. غير أنه لم يقنعهم: الكثير يجدونه طاعنا فى السن ، حيث لا يمكن أن يجسد آمالهم ويرون فيه أحد ورثة النظام القديم. آخرون يرونه أحد أسوأ الاحتمالات ويطمئنون أنفسهم قائلين لقد وعد إذا ما تم انتخابه رئيسا، بألا يبقى سوى فترة ولاية واحدة.

لم يكن عمرو موسى هو الوحيد الذى يحلم بمقعد الرئاسة. بخلاف محمد البرادعى، هناك العديد من المرشحين الذين أعلنوا عن رغبتهم بالفعل . من بينهم هشام البسطويسى ،نائب رئيس محكمة النقض ،الذى قاد الحملة ضد القضاة الذين كانوا مكلفين بالإشراف على انتخابات ٢٠٠٥، مشهرا بالتزوير الذى جرى على نطاق واسع . حمدين صباحى، مؤسس حزب الكرامة، حركة سياسية تطالب بتركة ناصر، الذى رفع صوره، من يجترون الحزن على أيامه ،فى الميدان أواخر أيام الثورة .أو أيمن نور ،الذى حصل على المركز الثانى فى انتخابات ٢٠٠٥، الرئاسية، أول انتخابات تعددية فى تاريخ البلاد.

محام له قريحة زعيم شعبى، زعيم حزب الغد الليبرالى، الذى يبلغ الحادية والثلاثين من عمره، صار فى عام ١٩٩٥، أصغر نائب برلمانى فى تاريخ مصر. خلال حملة ٢٠٠٥، كان أيمن إضافة إلى ذلك أول من قلب قواعد السياسة المصرية عندما نظم لقاءً انتخابيا فى ميدان التحرير. فى ذلك اليوم كان بضعة آلاف من أنصاره الشباب، يرتدون اللون البرتقالى فى إشارة تقدير لانتفاضة

الديمقراطية فى أوكرانيا، يتغنون بمقاطع اسمه، دليلاً عن رعدة تسرى فى الشباب المصرى، على توقه إلى التغيير. ولئن حمله زعيم شعبى لا تتصف سمعته باستقامة استثنائية.

لم يكافأ أيمن نور على جسارته. أسقطه النظام فى الانتخابات البرلمانية التى جرت بعدها بشهرين. ثم ألقى به فى السجن متهماً إياه بتزوير توقيعات التأييد المطلوبة لتأسيس حزبه، الذى تم إشهاره فى ٢٠٠٤، لم يتم الإفراج عنه إلا فى بداية عام ٢٠٠٩ لـ أسباب صحية. فى التاسع والعشرين من يناير ٢٠٠١ غداة نزول الجيش إلى شوارع القاهرة. عاد نور إلى الميدان التحرير ليكون إلى جانب المتظاهرين. زاعماً أنه مصمم أكثر من أى وقت مضى على استئناف النضال، حتى وإن لم يعد يتمتع بشعبية واسعة بين من كانوا يساندونه من قبل.

رحيل مبارك ليس نهاية الأمر.. بل البداية.

لم يكن من قال ذلك أحد رجال السياسة، بل أحد الكتاب. على الرغم من أن الحدود بين الاثنين كانت قائمة فى مصر. علاء الأسوانى، مؤلف رواية «عمارة يعقوبيان» إحدى أكثر الروايات مبيعا، تشريح مذهل لنظام مبارك، كان الكاتب العربى الأكثر ذيوعا فى العالم. وهو أيضا أحد شخوص الثورة المعروفة، عملاق أجش الصوت، ظل يدعو إلى سقوط الفرعون، فى كتبه وفى مقالاته الصحفية التى كان يذيلها بعبارة: «الديمقراطية هى الحل».

تنسل لفافات التبغ بين أصابعه بلا توقف. لم يعد ينام منذ أسابيع، أولاً مقاتل فى الميدان ثم فى إعادة صياغة المجتمع. ما يكفى ليجعل من علاء الأسوانى رجلا سعيدا.

ـ لقد كان من الخطر أن تبرز رأس قبل أن تصل الثورة إلى غايتها، لأنه سيكون من السهل على النظام أن يقطعها أو أن يسيطر عليها. لكن فى الفترة التى تبدأ الآن فإننا نحتاج إلى ممثلين موثوقين. ليس لدينا وقت نهدره، لأن أنصار النظام القديم يتحركون فى الخفاء ليطفئوا حماس الثورة، أو يحرفونه عن

طريقه. ليس من روح الثورة أن تدعو إلى محو أوجه الاختلاف. التنوع يؤدى لتلقيح الأفكار. فى ميدان التحرير رأينا الإسلاميين والماركسيين يقاتلون جنبا إلى جنب، مسيحيين يقومون بحماية المسلمين أثناء الصلاة والعكس بالعكس، نسوة محجبات يعقدن صداقات مع أخريات حاسرات الرؤوس. مصر أكبر بكثير من الإخوان المسلمين. لسنوات طويلة كان النظام قد أوقع الغرب فى فخ هذا الاختيار: إما الديكتاتور وإما الإسلاميين. لقد أثبتت هذه الثورة أن الحقيقة ليست كذلك. إن علينا أن نستثمر هذه الرسالة.

كان علاء الأسوانى قدوة، خاطب الجماهير كل ليلة فى ميدان التحرير، داعيا إياها إلى اعتناق قيم التسامح التى يتمسك بها. بعد سقوط مبارك، تابع الأسوانى هذه « المعركة اليومية» كما أنه سجل فى ٢ مارس ٢٠١١ صفحة فى تاريخ وسائل الإعلام العربية على شاشة قناة ontv الخاصة. خلال مناقشة على الهواء مباشرة، اتهم رئيس الوزراء أحمد شفيق، الذى اعترض عليه الثوار فى حينها، لكونه أحد بقايا نظام مبارك، والمسئول عن إطلاق النار على مواطنيه. مبارزة كلامية غير مسبوقة الضراوة فى بلد كان احترام أصحاب النفوذ فيه واحترام الجيش قد شكلا لزمن طويل خطوطا حمراء. لم أكن أستطيع أن أخون روح الثورة «هكذا سيقول علاء الأسوانى بعد تلك الموقعة».

انتهت الندوة وكأنها مباراة فى الملاكمة. كان المصريون متحجرين أمام شاشات التليفزيون وقد هالتهم تلك الجرأة. البعض أخذه الحماس، آخرون مصدومون مستنكرون. صبيحة اليوم التالى قدم رئيس الوزراء استقالته. أما الكاتب فقد تلقى رسالة. رسالة من والد أحد الشباب الذين لقوا مصرعهم خلال الثورة: دم ابنى لم يسل هدرا. إنه بين أيد أمينة.

انتهت الثورة، لكن مهمة تكاد تكون أكثر صعوبة تبدأ: يجب الحفاظ على روح التحرير.

التحرير نوبة صحيان مصرية
ارفع رأسك فوق أنت مصرى

كانت إحدى أسنانه مكسورة، اعتذر عن ذلك، كان قد فقدها فى المعركة، ذات ليلة حالكة ، فى مواجهة البلطجية الذين أتوا للهجوم على التحرير. سوف يهتم بأمرها فيما بعد. أما الآن، فإن ذلك لن يمنعه من أن يبتسم، يضحك، وأن يكون فى غاية الفرح، أن يسمح لدموعه بأن تنهمر. لقد رحل حسنى مبارك. السماء، السيارات ، واجهات العمارات ، مصر كلها تلونت بالأسود - الأبيض - الأحمر، أما هو فكان يدور حول نفسه، مفتوح الزراعين، كدرويش مفتون.

«ارفع راسك فوق، أنت مصرى !»

ينبغى لك أن تكون قد سمعت هذا الهتاف يردده مليون شخص يملؤهم الأمل. ينبغى لك أن تكون قد رأيت هذا الفخر المستعاد يلمع فى هذه العيون غير المصدقة لما يجرى. فى ثمانية عشر يوما، اكتشفت مصر نفسها. صار قادرا على الإتيان بالمستحيل، راودته أحلام كبيرة، ولم يعد يشعر بالعجز. هذا « الامتلاك الجماعى لإرث زاخر بالذكريات .«هذه» الرغبة فى العيش معا، فى مواصلة الاستفادة من هذه التركة التى ورثناها مشاعا «بيننا إن هذا هو ما يصنع أمة، كما قال .Ernest Renan

ما هو الشىء المشترك الذى كانت تملكه حتى ذلك الحين، مصر التى ترقص فى ميدان التحرير فى هذه الساعات البهيجة؟ ما هو الشىء المشترك بين تلك المرأة بجلبابها الأسود، التى قدمت من قلب دلتا النيل، مع ابنها العامل مسود

الكفين، وبين طبيبة الأسنان القاطنة فى حى الزمالك الراقى والتى كانت ترفع العلم نفسه؟ بين هؤلاء الشباب ذوى الشعور الطويلة والذين ينقرون على هواتفهم المحمولة الذكية وعلماء الأزهر بهيئاتهم التى تشبه الرسوم العثمانية ؟ بين هؤلاء الشباب وأولئك الشيوخ، البدو والنوبيين، المسلمين والمسيحيين؟

لا شىء أو القليل جدا.

كان الشاب ذو السن المكسورة هو من يعرف ذلك. اسمه على إسماعيل، اثنان وثلاثون عاماً. منذ خمسة أعوام، كان قد قضى بعض الوقت فى السجن، عبر زنازين امن الدولة. دائما على رأس مظاهرات الإخوان المسلمين، فى الجامعة. فى السجن. لم يتولد عنده سوى مزيد من الكراهية لأسلوب الحكم. كراهية النظام. النفور من المجتمع.

وبعد ذلك، كان هناك التحرير.

وأدرك على إسماعيل أنه لم يكن وحيدا.

البلد كله كان خاضعا لمبارك و لنظامه. كنا نعيش داخل هرم مقلوب، حيث كان كل شىء تابعًا له: الوزراء، المحافظون، أصغر المسئولين، مديرو المدارس، المستشفيات، القيادات الدينية. كان الكل فاسدا. والآن أصبح كل شىء فى طريقه للسقوط. كل المصريين كانوا ضحايا النظام بشكل مباشر. سواء لأنهم كانوا مرضى ولا يمكنهم الحصول على العلاج. سواء لأنهم، يوما ما، دون أن يعرفوا لماذا، قد تعرضوا للسب من شرطى جائر متعسف. أو لأنهم قد كانوا من ضحايا الفساد. فى الميدان لم أر سوى مناضلين، لاسيما أنهم كانوا أشخاصا عاديين. لقد كنا جميعا ضحايا. حتى صاحب المؤسسة، المجبر على التنسيق سرا مع رجال الحزب الوطنى حتى تسير أعماله. الإسلامى المسجون بسبب عقيدته. القبطى الذى لا يحظى بنفس الحقوق التى يتمتع بها الآخرون. لقد كنا جميعا ضحايا.

على مبعدة، هناك من يرقصون على موسيقى مكبر صوت هائل يعلو إحدى المنصات ، شباب آخرون حليقو اللحى يتذوقون حلاوة حلمهم الذى تحقق.

كنا نشعر بالخزى، وها نحن أولاء نكتشف معنى كلمتين . العزة و الكرامة. خصوصًا عندما أدركنا أنه، فى ظروف حياة طبيعية، ديمقراطية، يمكن للنظام أن يستوعب الجميع، كل له مكانه فيه. نحن لا نحب الإخوان المسلمين، غير أن لهم الحق فى الوجود. منذ الآن فصاعدا صرنا نتقبل بعضنا البعض. كلنا مصريون. كلنا متساوون، كلنا إخوة .

حماسة صادقة، بكل تأكيد، لكنها كانت هشة: مصاعب ما بعد الثورة، إعادة بناء البلاد سرعان ما سوف تبدد نشوة الانتصار، وتذهب بمشاعره الطيبة.غير أنها فى غداة رحيل حسنى مبارك كانت «تزال فى أوجها. فى ذلك اليوم، فى كل مكان، ابتدأ جيش من شغالات النمل فى تنظيف البلد. فى الشوارع، تمر جماعات من الشباب، مسلحون بالمكانس وأكياس المهملات، لالتقاط الأوراق المتسخة وجمع المخلفات.

«آسف على الإزعاج» أنا أنظف مصر. مطبوعة على أوراق ، ملصقة على قمصانهم، العبارة موجودة فى كل مكان، شديدة الدلالة على تلك الحركة الكبرى التى اجتاحت أكثر البلاد العربية سكانا. إنها « ثورة بيضاء» يقول الناس فى الميدان. فى ميدان التحرير انقض الشباب على أحجار حافة الأرصفة وأعادوا دهانها بالأبيض والأسود.

آخرون يفركون مصابيح الإنارة فى أناة كما لو كانوا يلمعونها، مصابيح علاء الدين. هذا يكنس، هذا ينظف ، هذا يرتب ، هذا يصلح. مصر فخورة بإظهار أنها لا تحتاج أحدا لتتدبر أمورها. فخورة بشكل استثنائى بهذه الصورة التى تقدمها للعالم: شعورًا لم يجربه حتى الآن ثلاثة أرباع السكان الأقل من ثلاثين عاما، إلا عندما فاز فريقهم الوطنى بكأس أفريقيا لكرة القدم !.

لم يكن ذلك أمرا هينـا، فى هـذا البلـد المتشبع بالوطنيـة، التى تعهـدتها الأساطير القديمة بالرعاية، بينما لم تكن مصر سوى ذلك الطيف الهائل لمصر نفسها. جيل دغدغته أساطير لا تعنيه شيئا. لا عظمة الفراعنة التى تدرس قليلا فى المدارس - مثل أى شىء لا علاقة له بالفترة الإسلامية - والتى تركت للملايين السائحين الذين يبهرهم ذلك، ولا الملحمة الناصرية، مزيج من حركة مقاومة الاستعمار وحركة القومية العربية الغالبتين، التى صادرها أسلافهم وجعلوا منها نموذجا رائدا للمجد العربى.

كانت العلاقة مع الولايات المتحدة أحد أعراض حالة الشيزوفرينيا (الفصام) التى أظهرها المجتمع المصرى مؤخرا بشكل متزايد. كذلك كان الحال فى العلاقة مع إسرائيل، «حصالة» كل صور الإخفاق، والمتهمة بأنها المسئولة عن كل الآلام التى تعانى منها مصر، إلى حد العبث والسخف، أحيانا، مثلما حدث فى ديسمبر ٢٠١٠، عندما اتهمت الصحافة المصرية الموساد، المخابرات الإسرائيلية، بتجويع أسماك القرش التى نشرت الرعب على شواطئ شرم الشيخ.

بعد أكثر من ثلاثين عاما، لم يقم المصريون بتطبيق السلام مع إسرائيل حتى الآن. خلال عقد كامل تم التشهير بالمصريين فى العالم العربى، عاشوه كعقوبة على خيانة «القضية» دائما موصوفون من قبل الكتاب العرب، بأنهم خدم الأمريكان، الذين جعلوا من مصر، بعد اتفاقيات كامب ديفيد، ثانية المستفيدين من مساعدتهم فى العالم بعد إسرائيل، لقد شعروا بأن هذه المساعدة تمثل قيدا لا يطاق على استقلال سياستهم الخارجية.

تواطؤ السلطات المصرية فى حصار قطاع غزة، الشعور بـ « الخزى» عند زيارة وزيرة الخارجية الإسرائيلية، تسيبى ليفنى ،للقاهرة عشية ابتداء عملية «الرصاص المتجمد» فى ديسمبر ٢٠٠٨ بيع الغاز الطبيعى المصرى إلى إسرائيل بأسعار مخفضة، الذى بدا صورة من صور «الخضوع»: تلك كانت بواعث الشعور بالضيق عند الأجيال الجديدة.

متضامنون مع معاناة الفلسطينيين أو اللبنانيين خلال حرب ٢٠٠٦، كان للمصريين الحق فى أن يحذروا، بل يرفضوا، ما يصدر عن إسرائيل. غير أن رد الفعل الظرفى هذا يبلغ حدوده القصوى ويصير عكسى الأثر عندما يجرّم أصحاب فكرة مقاومة التطبيع والرفض المبدئى لأى علاقات مع الدولة العبرية، بما فيها الثقافية، الحوار مع الإسرائيليين المدافعين، هم أيضا، عن حقوق الفلسطينيين، مثل الكاتب عاموس أوز أو دافيد جروسمان.

- سيكون من الأجدى جدا أن يذهب الفنانون العرب إلى تل أبيب ليقولوا كلمتهم، تنهد متحسرا دانيال بارينبويم قائد الأوركسترا، مدافع آخر عن السلام وعن الحوار وأول إسرائيلى تمت دعوته إلى قيادة فرقة أوبرا القاهرة الموسيقية فى إبريل ٢٠٠٧ . غير أن قلة نادرة من المصريين هم الذين تجرأوا على اجتياز هذه الخطوة. ومن قاموا بها كان عليهم أن يدفعوا الثمن. مثل الممثل عمرو واكد، أحد أكثر الفنانين انخراطا فى الثورة، المتواجد فى ميدان التحرير منذ اليوم الأول، الذى تم تجريسه والتشهير به لأنه قبل أن يلعب دورا إلى جوار الإسرائيلى يجال ناور فى المسلسل التليفزيونى البريطانى عائلة صدام فى ٢٠٠٨، أو أيضا الكاتب الدرامى على سالم، الذى تم فصله من نقابة الكتاب لأنه روى، فى كتاب له، رحلته على متن سيارته، فى عام ١٩٩٣، لاكتشاف هذه الجارة التى لا يعرف عنها المصريون، فى حقيقة الأمر، الكثير.

تجربة مريرة انتزعت منه، فى عام ٢٠٠٥، هذا التعليق القاسى: «إن خصوم التطبيع هم الجنود الخاسرون لنظام سياسى - اقتصادى كان قد انهار مع سقوط حائط برلين. إنهم يعيشون فى عالم من الخوف، من الكراهية وغياب الرؤية لأنهم يدركون أن السلام سوف يخلق بيئة لن يجدوا فيها مكانا لهم. التطبيع هو السبيل الوحيد لمساعدة الفلسطينيين للخروج من المأزق بتخفيض التوترات فى الشرق الأدنى تدريجيا. هناك ما يكفى من المشاكل فى هذه المنطقة بما لا يدعو إلى أن نضيف إليها المزيد. مصر قد وقعت من قبل اتفاقية السلام. إذا تم تطبيع علاقتنا مع إسرائيل فإننا نستطيع أن نشارك بطريقة أكثر فعالية فى رفع

مستوى هذه المنطقة ،بالتعاون فى مجال الاقتصاد ،التعليم أو البحث العلمى . سيكون لنا مصالح فى إسرائيل، و الإسرائيليون سيكون لهم مصالح عندنا والكل سوف يأخذ على عاتقه أن يدافع عن مصالحنا المشتركة. ما دمنا لا نستطيع أن نقيم السلام على أساس الصداقة بين الشعوب، فينبغى لنا أن نثبت أننا واقعيون.هكذا تم بناء أوربا بعد الحرب العالمية الثانية».

سوف يلزم بالتأكيد أكثر من ثورة لتغيير نظرة المصريين نحو إسرائيل، خصوصًا فى الظروف الإقليمية عام٢٠١١، لكن فيما وراء العلاقة المعقدة مع جارتهم ، هل سوف ينجح المصريون فى تحطيم قيودهم الذهنية، الآن وقد أطاحوا بحائط برلين الخاص بهم عندما أسقطوا نظام حسنى مبارك ؟ هذا هو أحد رهانات هذا الجيل الضائع ،المسحوق تحت ثقل التاريخ . جيل يبقى عليه أن يقوم ببناء كل شىء. ابتداءً بمفهوم بسيط ومعقد فى نفس الوقت: ألا وهو مفهوم المواطنة. كلمة السر فى هذه الثورة . مهمة هائلة. أقليات دينية، عرقية، اجتماعية. كيف يمكن للمرء أن يشعر بأنه مصرى، مواطن، له نفس الحقوق، عليه نفس الواجبات؟

ليل التحرير ـ خيام مرتجلة.

أغطية بلاستيكية، وسائل حماية هزيلة من الريح والبرد. مئات الرجال، راقدون على الأرض، ملتفون فى أغطيتهم. ونساء، نائمات، إلى جوارهم. حارسات الثورة، على قدم المساواة. مشاهد لم يكن من الممكن تخيلها فى مصر قبل الثورة، حيث أقامت، الديانة، التقاليد، الحياء، الميل إلى المحافظة، منذ آلاف السنين، الحواجز بين الناس. ماعدا داخل النخب الصغيرة المتأثرة بالقيم الغربية، لا يقبل الناس بعضهم البعض فى الشارع، نتردد، نتساءل قبل أن يتصافح رجل وامرأة.مسألة تتعلق باللياقة.

فى مصر أطاحت رياح التمرد بكل شىء.

وهذا ما أدهش فاطمة عنان وأثلج صدرها.

ـ لقد أدت النساء الصلاة إلى جوار الرجال فى الميدان، دون أن يتسبب ذلك فى أية مشكلة. لقد نزلن إلى الشوارع بصورة طبيعية ووجدن مكانهن تلقائيا دونما جدل. طالبن بحقوقهن، مثل الرجال، لم يعدن يرغبن فى الاكتفاء بالدور التقليدى الذى تسمح به لهن مجتمعاتنا البطريركية، كإبداء التضامن، مساعدة الجرحى، التموين. كلا!. لقد شاركن فى التحريض على الثورة، كن يقمن بالتدوين، يشاركن فى وضع الخطط، كن يقمن بنقل المعلومات والأخبار. لقد كتبن التاريخ إلى جانب الرجال.

فى الثلاثين من العمر، يحيط برأسها حجاب أبيض، كانت فاطمة عنان واحدة من مناضلات الحركة النسائية الأكثر شهرة فى مصر. قطعت ميدان التحرير مرارا، مع عرّاباتها، مناضلات الحركات الطلابية فى السبعينيات، الباقيات على الساحة، مع أمهن جميعا نوال السعداوى، بشعرها الأبيض الغزير العارى، كانت تصر، وقد تخطت الثمانين من عمرها، على المطالبة بأن يتمتع كل المصريين، رجالا ونساءً، بحقوق المواطنة. مسلمات محجبات أو علمانيات، كلهن يناضلن منذ سنوات ليصنعن لهن مكانا فى مجتمع يتكون من أغلبية نسائية تجرى معاملتها على أنها أقلية.

لقد حاولن عبثا أن يكن على رؤوس المؤسسات أو منذ وقت قصير، أن يلتحقن بسلك القضاء ،يتولين ميزانية الأسرة، يعملن، يشكلن أغلبية قوام الخريجين. لا أمل. ٢٠٠٨ أثار تعيين أول امرأة كمأذونة عاصفة من الاستنكار. المأذون، موظف عام يقوم بتسجيل حالات الزواج بين المسلمين . نظريا، لم تكن هذه الوظيفة ممنوعة على النساء، لكنهم كثر، هؤلاء الذين يواصلون الاحتجاج بأن المرأة لا ينبغى لها أن تمارس هذه المهنة، لأن الدخول إلى المساجد يصير ممنوعا على المرأة خلال فترة حيضها. ويواصلون التذكير بأن المأذون، فى نهاية مراسم العقد، يصل ما بين يدى والدى العروسين. لمس يد رجل، مشكلة أخرى. والأحكام المسبقة المتحاملة ليست وقفا على الطوائف الأقل تعليماً أو الأوساط الدينية: فى فبراير ٢٠١٠، رفض مجلس الدولة الموقر بـ ٣٣٤ صوتا مقابل ٤٢ صوتا إدخال النساء إلى هيئته.

لكن، فى ميدان التحرير ،كانت هناك حالة من التسامح. خلال ثمانية عشر يوما، حدث الاختلاط بشكل طبيعى، مثيرا لدهشة النساء، المذهولات من مظاهر الاحترام التى تحوطهن. لا أيد متحسسة، لا ملامسات، انتهى التحرش الدائم الذى يزعم ٨٣٪ منهن أنهن كن ضحاياه بشكل يومى، كما أظهرته، فى عام ٢٠٠٩، دراسة للمركز المصرى لحقوق المرأة. العنف الجسدى والشفوى الذى يدفعهن عفويا إلى اللجوء إلى الأماكن العامة المخصصة لهن. عربة السيدات فى المترو ليست إجبارية، لكن كم هى مريحة ومناسبة...

ـ ما اكتسبناه فى التحرير، لا يمكننا أن نخسره.

تمرر يدا فى شعرها الأشعث القصير. خلود بيدق، ٢٥عاما، نامت هى الأخرى فى ميدان التحرير. أدت دورها فى المعركة.

ـ من قبل، كانت السيدات اللاتى يسرن فى الطريق ينتبهن إلى سلوكهن، متحاشيات أى اتصال بصرى. اليوم، يجب أن تمشى النساء كما يرغبن، يجب أن يؤدب من يمنعهن من ذلك. انتصار التحرير، هو صحوة لضمائرنا، على جميع المستويات. فى الشوارع ينادى الناس بعضهم، دون سابق معرفة، للحديث فى السياسة.

إذا من الآن فصاعدا، عندما نرى رجلا يزعج امرأة بالملاحقة يجب توقيفه، وأن يقال له إن هذا غير مقبول. نحن نمثل أكثر من نصف سكان هذا البلد، نحن لن نصير بضاعة الثورة المرفوضة.

فى الثامن من مارس، بعد أقل من شهر من انهيار نظام مبارك، هاجم نحو خمسين رجلا غاضبا عدة مئات من السيدات، عضوات الحركات النسائية اللاتى كن يتظاهرن فى ميدان التحرير احتفالا بيوم المرأة. اعتداءات ربما كانت موجهة عن بعد، كما أكد ذلك البعض، غير أنها قد ذكّرت بالطريق الذى مازال على مصر أن تقطعه.

لم يكن قد جاء إلى القاهرة مطلقاً. كيف يمكن العيش دون رؤية الأفق، كيف يمكن العيش فى أجواء التلوث، الزحام... ثم دفعت رياح الثورة عبير الياسمين التونسى إلى الجنوب. واستقل القطار. أكثر من اثنتى عشرة ساعة ليصعد بطول النيل من أسوان الوادعة، عابرا الأقصر والجروف الحمراء لجبل طيبة، قاطعا حقول مصر الوسطى باهرة الخضرة، حتى يصل إلى العاصمة، اتجاه التحرير. كانوا ثلاثة أشخاص، قاموا بهذه الرحلة، وجدوا أنفسهم فى وسط الجماهير الغفيرة. كانوا مندهشين لاكتشاف أنهم لم يكونوا أيضا وحدهم ضحايا النظام، لوحوا بدورهم بأعلام ثلاثية الألوان، مذهولين تقريبا من تصرفاتهم. إنهم النوبيون. هؤلاء الذين سقطوا. من ذاكرة مصر.

يحيى فى الحادية والثلاثين من عمره. منذ ستة أعوام، يقوم بإرشاد السائحين وسط عجائب أسوان الرائعة، كوم أومبو، فيلا. النوبة أو بالأحرى ما تبقى منها، طرفها الشمالى. يحيى هو أحد أبناء الهجرة، الأرض التى ولد أبوه فوقها، اختفت من فوق سطح العالم، ابتلعتها مياه السد العالى، الذى افتتح فى عام١٩٧٠، بيت الأسرة يرقد مدفونا فى الطمى، على بعد أكثر من ثلاثين مترا تحت سطح الماء، مع المدافن، الحقول، بساتين النخيل، قرى النوبة و معابدها. بعد مدار السرطان، على أبواب أفريقيا السوداء، فى الجهة الأخرى من مسطح المياه الشاسع لبحيرة ناصر، كان معبد أبوسمبل، الذى تم إنقاذه بمعجزة، بتكاتف دولى، يشرف على البحيرة، جليلا مهيبا شامخا.

بصورة مشوشة، يتذكر والده تلك الكتيبات التى وزعت عليهم يوما ما قبل أن يأتى المركب ليحملهم، قبل الفيضان العظيم. كنا نتحدث فيها (الكتيبات) عن المنازل الجميلة التى كانت تنتظر النوبيين فى الشمال، وعن الكهرباء التى وعد بها جميع المصريين، عن التقدم. كان النوبيون قد فقدوا أرضهم غير أن ذلك كان من أجل صالح بلد بأكمله ومن أجل تقدمه: تضحية مؤلمة، لكنها ضرورية، وسيجرى تعويضها.

لقد رحلوا. مثلهم مثل قرابة المائة ألف من النوبيين الآخرين. الأرض الموعودة، التى طالما تغنوا بها، كانت تنتظرهم: مكعبات خرسانية، بلا كهرباء ولا مياه جارية، شيدت على عجالة فى قلب الصحراء، على بعد عشرات الكيلو مترات من النيل الحانى، مصدر القوت. الأراضى، بساتين النخيل الخصبة، بالكاد تم تعويضها. صدقة استنفدت فى السنوات الأولى فى استعواض الماشية التى نفقت أثناء التهجير ولشراء العلف (الكلأ) النادر وجوده آنذاك على هذه الأراضى الجافة الجرداء وكأنها الجحيم.

ناسبة إلى النوبيين أهدافا انفصالية، مارست مصر تجاههم سياسة إدماج إجبارى، متوافقة المراحل مع الفكر الوطنى والقومى العربى لجمال عبد الناصر». لقد قمنا بكل ما فى وسعنا حتى يتوقفوا عن العيش فى عشائر كالهمج، لكن هؤلاء الناس لا يريدون أن يصيروا مصريين كالآخرين «متراخ»، منزعج، الأسوانى. «حتى هؤلاء الذين، رحلوا بعيداً يستمرون فى كونهم نوبيين قبل أن يكونوا مصريين» . اليوم، هناك أكثر من مليون من النوبيين متناثرين عبر العالم، فى مقابل عدة مئات من الآلاف فى مصر.

فى التحرير، طالب يحيى و النوبيون الآخرون بمكانهم فى مصر الجديدة. حلمهم هو العودة للعيش فى الجنوب. بالنسبة إلى بعضهم، على ضفاف توشكا، على سبيل المثال، ذلك العمل الهائل الذى أشرف عليه مبارك، وادى اصطناعى للنيل، يحفر فى الصحراء وتتم تغذيته بفائض بحيرة ناصر من المياه. غير أن هذا المشروع الزراعى الهائل، الذى التهم احتياطات الدولة المصرية من النقد الأجنبى، كان محجوزا قبل كل شىء للشركات الكبرى. لم يكن هناك مكان لمن يحملون أحلاماً بسيطة. صارخا فيها بعنف، كان الكاتب النوبى هجار أودول قد اتهمها (مصر) بأنها لم تفعل شيئا لحماية النوبيين، كانت مصر حسنى مبارك قد وعدت بالإصغاء إلى أبنائها فى الجنوب. بعد قيامها ببناء المتحف النوبى، فى أسوان، الذى افتتح فى ١٩٩٧، كانت الحكومة المصرية قد رصدت نحو أربعة وعشرين مليون يورو لتمويل مشروعات القرى النوبية الجديدة، بالقرب من أبى سمبل.

فى بقعة ظليلة فى الميدان، يدب الحماس فى يحيى.

ـ نحن نريد أن نحصل على مكاننا. نريد أن يستمعوا إلينا. أن يحترمونا، أن تقوم الدولة بالاستثمار فى منطقتنا، من أجلنا نحن، وليس من أجل السائحين فقط. أن تتطور مدارسنا. مستشفياتنا، مشاريع البنية التحتية فى أرضنا. لقد تم التضحية بنا من أجل البلد. أن يثبتوا لنا أخيرا أننا كلنا مصريون. وأن يجعلونا نرغب فى أن نظل كذلك.

الطريق المزدحم بالآلات الزراعية والحيوانات الأليفة يغوص فى قلب الدلتا، ما بين طنطا و المحلة الكبرى، عاصمة صناعة النسيج فى مصر. من ناحية ومن ناحية أخرى، تشق قنوات الرى، بساتين اليوسفى أو الليمون، كروم العنب أو حقول البرسيم، التى تتابع فى استعراض يتفجر بالألوان. باستثناء بعض الجرارات، تنازل لصالح الحداثة، كان الفلاحون يواصلون زراعة أراضيهم باستمرار على طريقة آبائهم وأجدادهم قبلهم. هنا لم تغير الثورة شيئا ذا بال، لا وقت كى نحلم بالمستقبل. إنه سيكون صعبا، مجهدا، جامدا لا يتبدل. إلا إذا رحلنا من هنا.

بيد أنه، ليس علينا أن نذهب أبعد من المقهى المتواضع المزروع على مدخل البلدة حتى ندرك أن ميت بدر حلاوة ليست تماماً قرية كالأخريات.

ـ هل بإمكانى أن أساعدك؟

اللكنة واضحة، لكن اللغة الفرنسية سليمة جدا. على شاكلة ثلاثة من الزبائن الأربعة، كان صاحب المقهى قد عاش عدة سنوات فى نطاق باريس. كان يعمل كعامل بناء فى جوار حى مانيلمونتان. آخرون كانوا نقاشين، صناع بيتزا، باعة خضراوات وفاكهة فى الأسواق. منذ الثمانينيات، كان النصف تقريبا من سكان القرية البالغ عددهم نحو عشرين ألف نسمة، حصريا من الرجال، قد أقاموا حينا من الوقت فى فرنسا، بطريقة شرعية أو غير شرعية.

عاد بعضهم إلى مصر. صاحبنا استرد مقهى أبيه واشترى مزرعة بالنقود التى ادخرها أثناء إقامته فى الغربة. آخرون، مثل أخيه ، الذى تزوج من فرنسية، مازالوا يعملون هناك. الذين يتمكنون فى الحصول على تأشيرة دخول سياحية يتدبرون أمورهم لإطالة مدتها. يتمكن البعض من تقنين إقامتهم بشكل شرعى. يظل الآخرون بلا أوراق. فى مطلع الثمانينيات، لم يكونوا سوى نحو الثلاثين شخصاً. كل عام يأتى آخرون لزيادة عددهم. لقد صاروا، كما يقال فى القرية، نحو ستة آلاف فى عام ٢٠١٠.

ظلت الهجرة غير الشرعية، زمنا طويلا، ظاهرة هامشية فى مصر. غير أنها لم تتوقف، فى هذه السنوات الأخيرة، عن التنامى، مدفوعة، على وجه الخصوص بتدهور ظروف المعيشة وغياب الآفاق المستقبلية. وفقا لمركز الجنوب لحقوق الإنسان، فإن نحو عشرين ألفًا من المصريين ينزحون كل عام باتجاه أوربا، كثير منهم من الشباب المؤهلين. يتوقف أغلبهم فى إيطاليا، يحط البعض رحاله فى فرنسا أو ألمانيا. غير أنه من اللازم أن يدفع المرء نحو تسعة آلاف يورو ليستقل مركباً باتجاه اليونان ، مالطا أو إيطاليا.

أمام المقهى، يقوم أحد العمال بحرق قوالح الذرة لتستخدم كفحم للنراجيل. يلعب بعض شباب الدومينو، أو ينتظرون ، عاطلون بلا عمل. تنحصر الفرص فى العمل فى الحقول أو فى قيادة التوك توك. تحت فيض اليوروهات المتدفق، ارتفعت أسعار الأراضى، فى السنوات الأخيرة . فى القرية، تدور الحياة قاسية، وبالنسبة إلى كثير من الأسر، فإن إرسال أحد الأبناء إلى أوربا يمثل ضرورةً حتميةً. الصرف الصحى، المستشفى، المدرسة. كل شىء، يتم تمويله فى ميت بدر حلاوة من نقود المهاجرين.

الشىء نفسه فى مصر بكاملها: أجور العاملين المهاجرين، فى أوربا، فى السعودية أو فى الخليج، هى أحد المصادر المهمة لموارد البلاد. وأحد الأعمدة الخمسة لاقتصاد ريعى، (الأخرى هى السياحة، قناة السويس، البترول، والغاز الطبيعى) لا يخلق ما يكفى من فرص العمل.

بلا شك إن الثورة لم تغير الكثير هنا: يستمر أبناء القرية فى الرحيل عنها. لأنهم يعرفون جيداً أنه ليس من المنظور، فى الغد القريب، أن يجدوا فيها، بطريقة أيسر، عملا ذا عائد مناسب. خصوصًا وأن مئات الآلاف من أشقاء المحنة قد عادوا، بسبب الفوضى الجارفة فى ليبيا. مليون ونصف المليون من العمال المصريين كانوا يعيشون فى ليبيا قبل اندلاع الثورة. ربما يرجع بعضهم إليها مرة أخرى. غير أن عدد السكان فى مصر لا يتوقف عن الزيادة على أى حال. وقفاً للمعدل الحالى، فإن مصر يمكن أن تضم مائة وخمسين مليونا من السكان فى عام ٢٠٥٠.

وعلى المدى القصير لا تبعث التوقعات كثيرا على الاطمئنان.

ابتداءً من ميدان التحرير الثائر، وعلى خط مستقيم، لا تبعد جزيرة الزمالك إلا بعدة مئات من الأمتار. هناك يوجد نادى الجزيرة الرياضى، رمز مصر الأرستقراطية، مكان غريب، أنشأه المستعمرون الإنجليز، وأمم فى العهد الناصرى. عشرات الهكتارات المختفية خلف أسوار عالية (الهكتار = ١٠٠٠٠ متر مربع - المترجم)، حيث يستقبل مضمار الخيل، ملاعب الجولف، التنس، باعة المثلجات، منذ الفجر حتى الليل، الآلاف من الأعضاء، وزراء ،أصحاب دخول عالية، تجار، متخصصون فى نظم المعلومات أو موظفون. هنا أيضا قامت الثورة. وفى وسط أرستقراطية الأعمال تلك، لايدور الحديث إلا عن شىء واحد كيف يمكن إنعاش الأعمال من جديد؟ أثناء الثورة، أغرق المستثمرون الأجانب محاميهم باستغاثاتهم المذعورة: كيف يمكن إلغاء تعاقداتهم، الاستناد إلى شروط الظروف القاهرة، الانسحاب من مصر قبل أن يفقدوا كل شىء؟ ومن الآن فصاعداً، كيف يمكن إقناعهم بالبقاء، بزيادة استثماراتهم، بينما صار شركاء الأمس خلف القضبان؟ كل يوم، تكشف الصحافة عن فضائح جديدة. مالية، عقارية، مصرفية، ضرائبية، زوابع لا نهاية لها. من كبار رجال أعمال الأمس، كان أصحاب المؤسسات الغربية يشاركونهم لعب الجولف وتناول السوشى، إلى ممنوعين من مغادرة البلاد، ممنوعين من التصرف فى ممتلكاتهم. فخ القانون

المصرى، الذى يشترط وجود شريك محلى بنسبة ٢٠٪ على الأقل لأى استثمار خارجى، صار منذ الآن فصاعدا مصدرا للمخاوف.

بكل تأكيد، لم يكن كل رجال الأعمال من الفاسدين، بل على العكس، حتى وإن كان عليهم العمل وفق القواعد غير المكتوبة. لم يكن رجال الأعمال الأجانب يستطيعون إلا القبول بذلك: لقد كنا جميعا جزءا من النظام، مدركين لذلك أو عن غير قصد. كم يكون العمل ممكناً دون دفع البقشيش، دون تفاهمات وترتيبات سرية، لقد كانت هذه هى القاعدة السارية، دون أى تجاوز. ليس هناك من خيار. لكن ماذا عن الغد؟عندما يجب دفع الرواتب استجابة لمطالب عمال يعرفون أهمية ما تعنيه دعوة إلى الإضراب.

تتمتع مصر بموارد طبيعية، تم الترويج لها فى أوساط الأعمال، طاقات محركة، قوة بشرية لا تطلب سوى أن يتم الاستفادة منها، واستغلالها. ألم تفرض نفسها فى خلال بضع سنوات كقائد على المستوى الإقليمى بل حتى على المستوى القارى، فى مجال الاتصال والتقنيات الحديثة؟ ألا تملك وبامتياز ـ بوجود القرية الذكية، قرية التكنولوجيا العالية التى تستضيف على وجه الخصوص المقار الإقليمية لشركات ميكروسوفت، أوراكل أو ألكاتيل ـ لوسن ـ نقطة جذب معترف بها دولياً؟

كانت مصر، من بين دول أخرى، محصنة بنظامها المصرفى القديم، قد اجتازت بسلام هزات الأزمة المالية العالمية، حتى أن حسنى مبارك كان قد تنبأ، قبل سقوطه بوقت قصير، بمعدل نمو يبلغ ثمانية بالمائة. غير أن السائحين، المصدر الأول للدخل فى البلاد، كانوا قد اختفوا. منذ عدة سنوات، وعقب كل اعتداء، كنا نظنهم قد رحلوا، إلى الأبد، حتى نراهم وقد عادوا من جديد، بعد مرور عدة أسابيع، دائما أكثر عددا من ذى قبل. فى عام ٢٠١٠، كانوا خمسة عشر مليونا قد جاءوا لاكتشاف الروائع الفرعونية، عجائب البحر الأحمر، أسرار الصحراء. مبدعين، أغرق الشباب المصريون اليوتيوب بالفيديوهات الثورية، التى تروى أحداث نضالهم، وتطلب من العالم كله مساندتهم بالعودة لزيارة بلادهم.

لكن هل يمكن لهذه السياحة الكثيفة التى أثرت صناعة السياحة المصرية بالأمس أن تستعيد سيرتها الأولى بالإيقاع نفسه فى أفضل الأحوال لن يكون ذلك قبل عدة أشهر، ليس قبل أن تستقر الأوضاع...

على جسر قصر النيل، تحت السباع البرونزية، كان الجميع مرفوعى الرؤوس، منبهرين. بائعو التذكارات الثورية، قمصانا وأعلاما. العائلات المتجهة إلى ميدان التحرير، كأنهم فى رحلة الحج. العشاق الصغار، السائرون متشابكو الأيدى، يتناولون الترمس، تلك الحبوب المنقوعة فى الماء المالح ، التى تباع فى قراطيسها الورقية . الكل شامخ بأنفه، يتطلعون إلى سماء يقطعها سرب من مئات الطيور المهاجرة، كانت تشكل فى طيرانها حرف «V» رائع التكوين.

بالنسبة إلى مصر، كانت التحديات هائلةً. كانت كذلك قبل الثورة ولسوف تظل دائما بعدها: الزيادة السكانية، البطالة، انعدام العدالة الاجتماعية... منابع المياه، أيضاً، التى يمكن أن تصل فى مستقبل غير بعيد إلى حد النقصان. فى حين أن الدول الأخرى الواقعة على مجرى نهر النيل قد فرغت لتوها من إقرار اتفاقية جديدة لتوزيع مياه النهر بشكل أقل مواءمة لمصالح مصر. الظروف الإقليمية تهدد بالانفجار، خطر الإرهاب مازال كبيرا، ظهرت حالة جديدة من انعدام الأمن. مستقبل البلاد يكتب بالخط المنقط، ورشة العمل السياسى بدأت بالكاد، الجهاز الشرطى تم تفكيكه، فترة التسامح والصفاء مع الجيش انقضت بالفعل، سيكون من الواجب خلق علاقات ثقة جديدة تجاه مؤسسات الدولة التى صارت شرعيتها هباءً منثورا، تعلم قواعد الديمقراطية.

لكن فى هذا البلد، مصر التى مستها كهرباء إنجازها المذهل، صار كل شىء ممكنا منذ الآن فصاعدا، الأفضل، أو الأسوأ. شىء واحد قد تغير، وربما لزمن طويل قادم: راح « الخوف» . السجن النفسى انفتحت أبوابه. المعارضة التقليدية لم تعد بمفردها التى تجرؤ على الكلام، على تحدى السلطات. نسفت عقدة الفرعون. سبعة آلاف عام من العبودية، من الخضوع والانقياد للسلطة، وللمرة الأولى ربما، ثورة شعبية حقيقية.

المصريون يدركون ذلك، إن نصرهم هش، قابل للضياع غير أنهم جميعا، منذ الآن، يقولون: إنهم يعرفون الطريق.

إذا لزم الأمر، سيعودون إلى الميدان.

القاهرة ٢٩ مارس٢٠١١

شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب أن يرى النور دون كل هؤلاء الذين، خلال أربعة عشر عاما، من الإسكندرية إلى أبى سمبل، من سيوة إلى شرم الشيخ، من القاهرة إلى باريس، أتاحوا لنا أن نكتشف، ونشارك، ونفهم، ونحب مصرهم: أشخاص لا نعرفهم قابلناهم خلال التحقيقات، ودبلوماسيون، باحثون.

شكر خاص إلى علاء الأسوانى، وسامر الجمال، ونبيل الشوباشى، وفانشينزو نسيتشى، وتيوفك أكليماندوس، وحسن بهجت، وصوفى بومييه، ومعاذ الزجايمى، وباتريك هاينى، وفاطمة أحمد، ومصطفى يحيى، ومريام حسنى، وبيتر واليس لوساراريان، وأنييس دييياج.

شكرا إلى مارتين سعادة، وفيكتور سلامة، وهنرى ـ بيير أندريه، ولودفيج جونتى، واستيفان كيف، على قراءتهم المتأنية اليقظة لمخطوطة الكتاب وعلى نصائحهم.

شكر خاص جدا إلى جوانييل دران، وأنجريد دوفال، ودافيد جونتيرو، وآن صوفى كرفلا، وبيير ـ وإيف إيرفيه، وسيبيل وتوماس الوى. فبدونهم لم يكن ممكنا إنجاز هذا العمل.

المؤلفان فى سطور:

ـ «كلود جيبال»

صحفية فرنسية متخصصة فى شئون الشرق الأدنى. تبلغ من العمر السابعة والثلاثين. تعيش فى القاهرة من عام ١٩٩٧، وتعمل مراسلة لـ «راديو فرنسا» ولجريدة «ليبراسيون» منذ عام ٢٠٠٠.

ـ «تانجى سالون»

ثمانية وثلاثون عاما، مراسل صحيفة «الفيجارو» في القاهرة، وكذلك لراديو وتليفزيون لوكسمبور. يهتم كزميلته بشئون الشرق الأدنى منذ أربعة عشر عاما.

المترجم فى سطور:

ـ عاصم عبد ربه حسين

مصرى. حاصل على بكالوريس الاقتصاد.

يترجم عن الفرنسية ومن أعماله:

ـ عن الجرائم المعلوماتية.

ـ مقالات عن المسرح الأفريقى.

ـ مقالات عن تاريخ الحركات الصوفية.

التصحيح اللغوى: محمد الشربينى

الإشراف الفنى: حسن كامل



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب